لجنة التأليف والترجمة والنشر

جان دارك

المؤلف : جورج برنارد شو

المترجم : الدكتور أحمد زكي بك

عيون الأدب الغربي

العدد الرابع

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٨

مقدمة المترجم

هذه قصة « جان درك » لمؤلفها « جورج برنارد شو » .

أما المؤلف فقد حضرتُهُ خطيباً ، وسمعته مجادلاً ، وقضيت عقداً من الدهر في بلده وبين قومه فلم أجد بينهم اسماً في عالم الأدب والسياسة تُرْهَف له الآذان كاسمه ، ولا جدلاً يَهرع الناس لحضوره كجدله ، ولا لساناً أقذع في النِّقاش وألذع في الجواب كلسانه ، ولا فكاهة تَنِمّ عن صاحبها كفكاهته .
كتبتْ له إحدى الغانيات الجميلات الفاتنات تعرض عليه أن يتزوج منها وتغريه بأنه إذا اجتمع جمالُها وعقلُه أنتجا أحسن الخلف . فأجابها بقوله : أخشى أن يجتمع عقلك وجمالى . واستمعتُ منذ أشهر بالراديو لحفلة أقيمت في إنجلترا لإحياء ذكرى من ذكريات شيكسپير ، لا أذكر بالضبط مناسبتها ، وكان خطيب الحفلة برنارد شو ، فسمعت صوته خافتاً قد أضعفته الشيخوخة وإذا به يبدأ كلامه بسؤال الناس : « أتعرفون لماذا دعاني القوم للخطابة في هذا الحفل ؟ » . فأنصت الناس وعلى شفاههم لا شك ابتسامةٌ ، توقعاً للنكتة التي لم تفارقه حتى بعد فواته الثمانين . فجاء

جوابه خافتاً كذلك : « أظنهم فعلوا ذلك لاعتقادهم أنى أنا الثانى من بعد شيكسپير » . فسمعت على الأثير صدى الضحكات العاليات فى ذلك الجمع الحاشد . وهى نكتة تحمل أكثر من معنى واحد إذا نحن قرنّاها برأيه المعروف فى شيكسپير[1] . ولم ينحصر صيت « شو » فى الجزر البريطانية ، بل تعدّاه إلى كل بلد ينطق بالإنجليزية ، وإلى كل مثقَّف لا ينطق بها ، فهو فى الأدب الإنجليزى من أكبر شخصياته إن لم نقل أكبرها ، وذلك فى القرن العشرين وإلى أحقاب خَلَتْ . وهو فى إنجلترا يحتل مثل المكانة التى احتلها أناتول فرانس فى فرنسا ، وكانا صديقين حميمين ، ذوى مشربين متقاربين . أذكُرُ أن أناتول استقبل صديقه شو مرحباً به ، وهما شيخان ، فضمّه وقبّله على الملأ على عادة الفرنسيين ، فاحمر وجه شو ، ففى إنجلترا لا يُقبَّل إلا النساء .

أما عن القصة ، وهى إحدى القصص الثلاث التى يرى النقّادون أنها خير ما أنتج شو ، فقد حضرتُها تُمثَّل فى لندن منذ أكثر من أربعة عشر عاماً ، وكان دور چان تقوم به الممثلة الشهيرة سِبِلْ ثُرنْدَايك « Sybil Thorndyke » وكنت فى زمرة

(١) لا يقدّر شو شيكسبير كتقدير الناس له . ويعتقد شو أن شيكسبير مهما جدّ واجتهد فهو لا يستطيع أن يأتى برواية كروايته Back to Methusalah ، أو كروايته الأخرى Heartbreak House . ولا يثنيه عن هذا الاعتقاد شىء أبداً .

بينهم صديقٌ مصريّ حميم معروف بإسلاميّته ، وباتّباع دينه على حرفيّته ، وهو إلى اليوم مؤمن شديد الإيمان ، عالم كبير العلم ، مثقّف واسع الثقافة ، ولكنه يغلو أحيانًا فيتزمّت تزمّتًا قد يأباه الفكر الطليق . وحسبي هذا في وصفه فإني أخشى أن أكون قد سمّيتُه . وكانت الرواية بالطبع نصرانيّة ممعنة في النصرانية ، فعجبتُ كيف يحضر مثلُه مثلَها ، وترقّبت أنظر ما يكون منها فيه . ودَرَجَتْ الروايةُ من منظر إلى منظر حتى جاء المنظر الخامس في الكتدرائية حيث انفض عن چان كل أصحابها ، حتى الملك الذي توّجتْه ، ونصحوها بالكفّ عن الحرب والرجوع إلى أبيها وريفها فانفجرت فيهم تقول :

« لو أني اتّبعت مثل هـذا الحق بالأمس ، فإلى أيّ حال كنتم تصيرون . إنكم لاعَوْنَ لى فيكم ولا نصيحة . نعم أنا في هذه الدنيا وحيدةٌ . وقد كنت فيها أبداً وحيدة . تركتُ أبى لأُسعِف بلادى ، فطالب إلى إخوتى أن يُغرقونى فى البحر إذا لم أطعه فأرعى غنمه . بينا فرنسا تجرى دماؤها على الأرض سفحاً . وما ضَرَّه أن تجرى دماها ، إذا عاشت خرافه ناعمةً فى مهتوك حماها . وحسبتُ أن أرى نُصَرَاء خلصاء لبلادى فى بلاط مَلِكها ، فلم أجد إلا ذئابا يتنازعون على قِطَعٍ من أشلاء وطنٍ ممزّق . وحسبتُ أن لله أحبابا فى كل مكان ، لأن الله محبٌّ لكل إنسان . واعتقدت فى سذاجتى أنى سأجد فيكم قلاعا رواسخ تدفع الأذى عنى ،

فإذا بى أجدكم تخلعونى خلع النعال البالية . ولكنى الآن قد تكشّفتْ لى حقيقتكم فعرفتُها عِيانا ، ورأيتُ الحق فى أمركم عُريانا ، ولن يكسب أحد من معرفة الحق خسرانا . وتتهدّدونى بوَحْدتى ، وما بى والله ذعرٌ منها . إن فرنسا وحيدة . وإنّ ربّى لوحيد . فما وَحْدتى إلى جانب وَحْدة قومى ووحدة الله ربّى . لقد تعلّمتُ الآن أن وَحْدة الله هى سرّ قوّته . ألا ما كان حال الله لو أنه أصغى لنصائح منكم حقيرة ، تصدر عن قلوب مريضة غيورة . قوة الله فى وحدته ، وكذلك قوتى ستكون فى وحدتى بجوار الله ، فلن تخوننى صداقتُه ، ولن تُعْوزنى محبّتُه ، ولن تَخذِلنى نصيحتُه . وسأستمدّ مَدَداً من مَدَده ، فأقتحم المهالك ، وأركب الأخطار حتى أموت . والآن أخرجُ إلى الشعب ، إلى عامة الناس ودهمائهم ، فلعل الحب الذى أجده فى عيونهم يفرّج عنى كَرْبة البغضاء التى أجدها فى عيونكم . إنكم ستفرحون جميعاً لحرقى ، ولكنى إنْ سِرْتُ إلى النار ، فإنما أسير عَبْرَها إلى الخلود فى قلوب الناس ، ففى هذه القلوب سأحيى أبد الآباد . والآن تداركنى بلطفك يا رحمن » .

وكانت الممثلة قوية التمثيل قوية الأنوثة رغم دِرْع الفولاذ التى تلبسها . فنظرتُ إلى صاحبى فإذا دمعه يجرى مدراراً ، ويكاد يشهق فيفضحنا . وانتهى الفصل فحمدت الله . ولكن جاء الفصل السادس حيث حوكمت وأحرقت فلم يكن هذا الفصل أقل تأثيراً من سابقه فى نفس صاحبى المسلم المؤمن . عندئذ أدركت أن العاطفةَ الدينيـة شىء والدينَ نوع آخر ، وأن من

الحوادث النصرانيـة ما يهز قلب المسلم حتى إلى البكاء ، ومن الحوادث الإسلامية ما يحرّك عاطفة النصرانى ، وأن فؤاد الإنسان فى صميمه واحد مهما اختلفت العقائد والأوطان . فلما دعتنى لجنة التأليف والترجمة والنشر إلى ترجمة هذه الرواية لم أجد فى نصرانيتها مانعاً من قبول ترجمتها . بل على النقيض وجدت فيها حافزاً على ترجمتها لما فيها من هذه العاطفة الدينية المشتركة بين الإسلام والمسيحيّة . وإن فى اشتراك العاطفة الحبّ والتعاطف . قال تعالى : « وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » .

أحمد زكى

المنظر الأول

[صباحٌ صاحٍ من أصباح الربيع ، على نهر موز Meuse[1] بين لورين Lorraine وشمبانيا Champaigne[2] ، فى عام ١٤٢٩ ، فى قلعة فوكولور[3] Vaucouleurs .]

[وفى المنظر اليوزباشى رُو بير دى بُدريكور Robert de Baudricourt ، عينٌ من رجال الحرب ، وسيم جميل ، جمّ النشاط ، إلا أنه لا إرادة له . ويعلم هذه النقيصة من نفسه فيحاول أن يخفيها بالتغضّب والتسخّط الشديد على خوليّه ، وبالإرغاء والإزباد فى وجهه . ثم الخولىّ وهو رجل حقير ذليل ، قليل اللحم قليل الشعر ، يُعْجزكَ تقديرُ سِنّه ، فهى ثمانِ عَشْرَةَ سنة أو خمسٌ وخمسون أو ما بينهما . وهو من صنف الرجال الذين لا تُذويهم الأعمار لأنهم قطّ ما أزهروا .]

[والرجلان فى حجرة مشمسة ، وهى من حَجَر ، فى الطابق الثانى من القلعة . أمّا الضابط فجالسٌ على كرسىّ من خشب الأَرْو إلى خوان متين بسيط على شاكلة الكرسى ، وهو مثله من الأرو . وتظهر من وجه الضابط صفحته اليسرى . أما الخولىّ فيقف فى مواجهته فى الطرف الآخر من الخوان ، هذا إذا سمّينا تلك الوقفة الذليلة المسترحمة المستعيذة وقوفاً . ووراء

(١) نهر ينبع فى فرنسا ومصبه بهولندا فى البحر الشمالى .

(٢) اللورين وشمبانيا مقاطعتان فى الشمال الشرقى لفرنسا .

(٣) بلدة صغيرة على نهر موز .

الخولى شباك مفتوح من شبابيك القرن الثالث عشر ، وقد تقسمت فراغَه قوائمُ على أسلوب ذلك القرن . وبالقرب من الشباك برج صغير ذو باب ضيق ، تعلوه قبوة ، يؤدى إلى سُلّم لفّاف يهبط إلى فِناء القلعة . وفى الحجرة تحت الخوان مقعد ذو أربع أرجل متين ، وتحت الشباك صندوق من الخشب] .

* * *

رُوبير : ما عندكَ بيض ! ما عندك بيض !! عليك لعنة الأولين والآخرين يا رجل ، ماذا تَعنِى ؟ ما عندك بيض !

الخولىّ : سيدى ، ليس الذنب ذنبى إنما هى إرادة الله .

روبير : يا للكفران ! تقول لى ما عندك بيض ، ثم تُلقى ذنب ذلك على الله !

الخولى : سيدى ، ماذا أصنع وأنا لا أستطيع أن أَبيض ؟

روبير : [يتهكم] ها ! إنك تمزح !

الخولى : لا يا سيدى ، عَلِمَ الله ! إن البيض يُعْوِزنا جميعاً ، كما يعوزك ، اضطراراً ، وأى مندوحة عن ذلك والدجاجات تأبى أن تبيض ؟

روبير : صحيح ، صحيح ! [ينهض] والآن استمعْ لى أيها الوغد .

الخولى : [فى ذلّة] نعم سيدى .

روبير : من أنا ؟

الخولى : من أنت ، سيدى ؟!

روبير : [يمشى نحوه] نعم . من أنا ؟ أأنا روبير ، سيد بُدْريكور ، ويوزباشى هذه القلعة قلعة ڤوكولور ، أم أنا فارس من رعاة البقر ؟

الخولى : لا وعفواً يا سيدى ، فما أنت إلا رجل كبير ، أكبر من الملك نفسه .

روبير : بالضبط ! والآن أتدرى ما أنت ؟

الخولى : أنا لا شىء يا سيدى ، سوى شرفٍ كسبْتُه بأنى خوليّك .

روبير : [يتقدم نحوه ويدفع به إلى الحائط دفعات لكل صفة يصفه بها دفعة] أنت لك الشرف بأنك خوليّ ، ولك فوق هذا الفضلُ على جميع خَوَل فرنسا بأنك أسوأهم ، وأجهلهم ، وألْتهم ، وأعجنهم ، وأغباهم ، وأبلههم ، وأريلهم فماً ، وأسْيَاهم أنفاً . [يأخذ فى الرجوع بخطى واسعة إلى الخوان] .

الخولى : [وقد انكمش على الصندوق مذعوراً] نعم يا سيدى ، فلا بد أنى أتراءى هكذا بالنسبة لرجل عظيم مثلك .

روبير : [يدور على عقبيه إليه] تعنى أن الذنب يرجع إلىّ ؟

الخولى : [يتقدم إليه مسترحماً مستغفراً] واه يا سيدى ، إنك دائمًا تَلْوى كلماتى البريئة .

روبير : سألوى رقبتك إذا ما سألتك كم لدينا من البيض فجرُؤت فقلت لى مرة أخرى إنك لا تقدر أن تَبِيض .

الخولى : [محتجا منكراً] واهٍ سيدى ، واهٍ سيدى ...

روبير : لا تقل واه سيدى ، واه سيدى ، بل قل لا ياسيدى ، لا ياسيدى . إن دجاجاتى الثلاث البربرية(١) ودجاجتى السوداء أكثر الدجاج بيضاً فى شمبانيا ، ثم تأتينى بعد هذا وتقول لا بيض عندك ! أين البيض ؟ من سرقه ؟ أَجبْ وإلا رفستك إلى باب القلعة ، فأنت كذّاب ، وتبيع متاعى للصوص . واللبنُ نقص بالأمس كذلك ، فهل أنت ناس ذلك ؟

الخولى : [مستيئساً] أعلمُ ذلك يا سيدى . أعلمه علما لا أنساه أبداً . ذهب اللبن ، وذهب البيض ، وغداً يذهب كل شىء لدينا .

روبير : كل شىء لدينا ؟! أفتسرق كل شىء إذن ؟

---

(١) نسبة إلى بربر ، ويقصد بها شمال أفريقيا ما بين مصر إلى المحيط الأطلسى .

الخولى : لا يا سيدى ، ليس فى الدار من يسرق شيئاً ، وإنما حلّت بنا لعنةٌ ساحرة .

روبير : ليس مثلى من يصدّق مثل هذا . إن روبير دى بدريكور يحرق الساحرات ويشنق اللصوص . فقم وأتنى بخمسين بيضة وبجالونين من اللبن ، وأحضرها هنا جميعاً قبل الظهر ، وإلّا فرحمة الله على عظامك ، فسأحطّمها لك تحطيما ، وأعلّمك ألاّ تستغفلنى مرة أخرى [ويعود فيتخذ مكانه من الكرسى كمن قضى قضاءً مبرماً لا رجعة فيه] .

الخولى : سيدى ، إنى أقول لك ليس لدىّ بيض ، ولن تجد لدىّ بيضاً ولو قتلتنى ما دامت الفتاة على الباب .

روبير : الفتاة ! أية فتاة ؟ عمّ تتحدّث يا هذا ؟

الخولى : الفتاة التى جاءت من لورين Lorraine يا سيدى ، من بلدة دُمْرِيمى Domrémy .

روبير : [يقف غاضباً أشد الغضب] يا أرض مِيدى ويا سماء أطبقى ! ماذا تقول أيها الرجل ؟ أتقول إن هذه الفتاة لازالت هنا ، هذه الفتاة التى بلغت من الوقاحة أنْ طلبت لقائى من يومين ، هذه الفتاة التى أمرتك بحملها إلى والدها وأعطيتك أمرى إليه أن يضربها ضرباً طيباً ، هذه الفتاة لا زالت هنا ؟

الخولى : طلبتُ إليها أن تذهب يا سيدى ولـكنها لا تفعل.

روبير : لم أقل لك اطلبْ إليها أن تذهب ، وإنما قلت ارم بها رمياً . لديك خمسون فارسًا كَمِيّا ، ولديك أربعة وعشرون خادمًا فحلا قويا ، كل هؤلاء لإنفاذ أمرى ، فهل خافوها جميعًا ؟

الخولى : إنها عنيدة تثق أشدّ الوثوق بنفسها .

روبير : [يأخذ بقفاه] عنيدة ! إذن فانظر ما أصنع ؟ سأرمى بك على هذا السلم .

الخولى : لا يا سيدى ، أرجوك يا سيدى .

روبير : كن عنيداً إذن وامنع نفسك من السقوط . إنه أمر هيّن ، أمر تستطيعه أية فتاة رثة الهيئة قذرة .

الخولى : [وقد تعلّق مسترخياً فى يديه] سيدى ، سيدى ، إنك لا تستطيع أن تتخلص منها برميي أنا [يُضطر روبير إلى إسقاطه من يديه ، فلما يسقط يقع على الأرض على الركبتين وينظر إلى سيده مستسلماً ذليلا] أرأيت يا سيدى ؟ إنك أصدق عزمًا منى ، وأصدق كثيراً ، ولـكن كذلك هى .

روبير : قل إنى أقوى منك أيها المأفون .

الخولى : لا يا سيدى ، ليس هذا ، فإنما هى قوة شخصيّتك يا سيدى . إنها أضعف منّا جميعًا . إنها فتاة قليلة لا حول فيها

ولا قوة ، ومع هذا لا نستطيع إخراجها .

روبير : إنكم جماعةٌ أنذال . إنكم تخافونها .

الخولى : [ينهض على حذر] لا يا سيدى . نحن إن خفنا فإنما نخافك . أما هى فتبثُّ فينا الشجاعة والثقة . والحق أنها لا تخاف من شىء ، فلعلك سيدى تقدر أن تُخيفها .

روبير : [بوجه عابس] ربما . أين هى ؟

الخولى : تحت ، فى فناء القلعة يا سيدى ، تتحدث على عادتها مع الجند . إنها تتحدث دائمًا إلى الجند إلاّ إذا هى صلّت .

روبير : صلّت ! ها ! أتعتقد أيها الغبى أنها تصلى . إنى أعرف أىَّ صِنف من الفتيات ذلك الذى لا يفتأ يتحدث إلى الجند . والآن آن أن تتحدث الفتاة إلىَّ قليلا [يذهب إلى النافذة ويصرخ بقوة منها] أنتِ يا من هناك !

صوت فتاة : [صوت بهيج قوىّ خشن] أتعنينى ؟

روبير : نعم أنتِ .

الصوت : أيوزباشى أنت ؟

روبير : نعم أنا يوزباشى ولعنة الله على وقاحتك . اطلعى هنا [يتكلم إلى الجند فى الفناء] أروها الطريق يا هؤلاء ،

وأسرعوا بها إلىّ [يترك النافذة ويعود إلى مجلسه لدى الخوان ويجلس جِلسة الأبّهة] .

الخولى : [يتكلم فى همس] إنها تريد أن تكون جنديا ، وتطلب إليك أن تعطيها ملابس الجند . تطلب درعًا يا سيدى ، وسيفًا كذلك والله [يسترق الخطا وراء روبير] .

[تدخل جان من باب البرج . وهى فتاة ريفية قوية البنية ، سنها بين السابعة عشرة والثامنة عشرة ، فى ملابس محترمة حمراء . ولها وجه غير مألوف : فعيناها متباعدتان كل البعد ، وهما جاحظتان ، وهكذا تجدهما دائماً فى كل من لهم أو لهن خيال قوىّ . وأنفها حسن الشكل طويل واسع . وشفتها العليا قصيرة . وفمها تقرأ فيه العزمَ القوىّ ولو لم تَرِقّ شفتاه . وذقنها جميل تقرأ فيه الحرب والصراع . ثم هى تتقدم إلى الخوان مغتبطةً مبتهجة بأنها استطاعت أخيراً أن تخترق الحرم إلى صاحبنا ، مليئةً أملا بتحقيق رجائها . وعبّس روبير فلم تردّها تعبيسته ولا أخافتها أبداً . ولها صوت ترسله على سجيته فكأنما تخرجه من قلبها ، فيه الثقة ، وفيه الضراعة ، وفيه الترضّى ، فلا يستطيع أحد أن يتنكّر له] .

جان : [تحيّيه بثنية من ركبتيها] صباح الخير ياسيد يايوزباشى . أيها اليوزباشى ، إن عليك أن تعطينى حصانًا ودرعًا وأن تَمُدَّنى ببعض الجند ثم ترسلنى إلى الدوفين[1] Dauphin ، بهذا يأمرك مولاى .

---

(١) لقب الولد الأكبر لكل ملك من ملوك فرنسا . والمقصود به هنا هو شارل السابع ملك فرنسا .

روبير : [وقد اغتاظ] مولاك يأمرنى ؟! ومَن مولاك هذا؟ وفى أى داهية يكون ؟ عودى إليه وقولى له إنى لست دوقاً ولا شريفاً فى خدمته فأتلقَّى منه أمراً ، وإنما أنا سيّد بدريكور لا أتلقى أمراً إلا من الملك .

چان : [تطمئنه] نعم يا سيد بدريكور ، وصوابٌ ما تقول ، غير أن مولاى ربُّ السموات والأرض .

روبير : ما هذا ! إن الفتاة مجنونة [إلى خوليه] لِمَ لَمْ تقل لى أيها الأحمق إنها مجنونة ؟

الخولى : لا تُغضبْها يا سيدى وأعطِها ما تريد .

چان : [جازعةً ولكن غير غاضبة] إنهم جميعاً يا سيدى يقولون إنى مجنونة إلى أن أتحدّث إليهم . إن إرادة الله قضت عليك بأن تفعل ما يوحى إلىَّ به الله .

روبير : إن إرادة الله قضت علىَّ بأن أرسلك إلى أبيك ، وأن آمره بحبسك وضربك حتى يخرج من جسمك هذا الجنون . فماذا أنت قائلة ؟

چان : إنك تظن أنك فاعل ما تقول ، ولكن هيهات فسترى أن الأمور تجرى على غير ما تريد . ألم تقل إنك لن ترانى ، ثم ها أنت الآن ترانى !

الخولى : [يتوسل] نعم سيدى ، إنها تقول الحق ياسيدى .

روبير : اسكت أنت يا أحمق .

الخولى : [بذلّة] نعم ، سيدى .

روبير : [يتحدث إلى چان وهو فى ألم من إحساسه بضياع ثقته بنفسه] إذن فأنتِ تستغلّين إذنى لك فى الدخول علىّ ؟

چان : [فى خفة روح] نعم ، سيدى .

روبير : [يحسّ بانغلابه فيضرب الخوان بيديه ضرباً شديداً ، وينفخ صدرَه ويُبرزه تكبّراً وتعظّما علّ هذا يذهب بالضعف الذى أصابه الساعة فى إرادته ، وهو ضعف عرفه من نفسه حتى ألفه] أنصتى إلىّ أيتها الفتاة . إنى سأملى عليك إرادتى .

چان : إفعلْ بالله يا سيدى . إن الحصان ثمنه ستة عشر فرنكا ، وهذا مبلغ كبير ، ولكنى سأقتصده فى الدرع ، فإنى سأبحث بين الجند عن درع تَلْبسنى بالقدر الذى يكفينى . إنى خُشَوشنة فليست بى حاجة إلى درع جميلة تفصَّل علىّ تفصيلا كالتى تلبسها أنت . ولن أحتاج إلى عدد كبير من الجند ، فالدُّوفين سيعطينى كل ما يكفينى من ذلك ، لرفع الحصار عن أُرْلِين[1] Orleans .

(١) بلدة فرنسية على الشاطئ الشمالى لنهر اللوار . قصد إليها الإنجليز بعد =

روبير : [وقد طار لبّه] رفع الحصار عن أُرلين ؟!

چان : [بكل بساطة] نعم يا سيدى . هذا ما أرسلنى الله لأدائه . ويكفينى أن ترسل معى ثلاثة رجال أخيار يعطفون علىّ . وقد عاهدونى على الذهاب معى . وهم پُولى وچاك و ...

روبير : پولى Polly ! أيتها الفاجرة كيف تتجرئين على السيد برتران دى پولنچيه Bertrand de Poulengey فتسمّينه پولى فى وجهى ؟

چان : هكذا يسميه إخوانه يا سيدى ، وما علمت أن له اسماً غير هذا . وچاك ...

روبير : هذا السيد چُون أُف مِتز John of Metz على ما أحسب ؟

چان : نعم ياسيدى . فچاك سيذهب معى عن طيب خاطر . إنه رجل طيب كريم يعطينى المال فأفرّقه على الفقراء . وأظن چون جدساف John Godsave سيأتى أيضاً ، وديكُ النبّالُ أيضًا Dick the Archer ، وخادماهما چُون أُف هُنْكورت John of Honecourt وچليان Juliau . قد رتّبتُ كل شىء

= أن تغلبوا على النصف الشمالى من فرنسا (شمال نهر اللوار) ، فحاصروها وطمعوا بعد فتحها أن تكون مفتاحا لفتح النصف الجنوبى من فرنسا .

يا سيدى ، ولن أكلفك مشقةً إلا أن تُصدر أمرك إليهم .

روبير : [يتأملها وقد علته ذهلةٌ من الدهش] ألَا لعنة الأولين والآخرين علىّ أنْ يجرى كل هذا من ورائى ولا أدرى !

جان : [فى خفة روح لم تتعكر] لا يا سيدى ، لا لعنةَ عليك فالله غفور رحيم . والقديستان كترينة Catherine ومرغريت[1] Margaret ، وهما تتحدثان إلىّ كل يوم [يفتح فاه كأنما شُدِه] ، سيشفعان لك عند الله ، وستدخل الجنة ، وستُذكَر بأنك أول من أعاننى فى سبيل الله .

روبير : [يتحدث إلى الخولىّ وهو لا يزال فى قلقه ، ولكنه يغيّر لهجته لاهتدائه إلى نهج جديد يخرج به من ورطته] أصحيح ما قالت عن السيد دى پولنچيه ؟

الخولى : [يجيب وبه رغبة شديدة ظاهرة فى الجواب] نعم يا سيدى . وصحيح كذلك ما قالته عن السيد دى متز ، فكلاهما يود الذهاب معها .

روبير : [ينبس بما لا يُفهَم وهو غارق فى الفكر ، ثم يذهب إلى النافذة وينادى من فى الفناء] أنتم يا هؤلاء . أرسلوا إلىّ السيد

(١) هما قديستان . أما القديسة كترينة فهى راعية الفتيات وقد استشهدت حول سنة ٣٠٧ ميلادية على ما يذكرون . وأما القديسة مرغريت فاستشهدت حول سنة ٢٧٥ ميلادية .

دى پولنچيه . [يعود فيتحدث إلى چان] ، وأنتِ فاخرجى الآن وانتظرى فى الفناء .

چان : [تبتسم له ابتسامة وضّاءة] أفعلُ يا ســـيدى . [ثم تخرج] .

روبير : [إلى الخولى] اذهبْ معها أيها المعتوه الرَّعِش ، وابْقَ حيث تسمعنى ، ولا ترفع عينك عنها ، فسأدعوها إلىّ مرة أخرى .

الخولى : بالله افعلْ يا سيدى ، واذكر تلك الدجاجات ، وأنها أحسن دجاج يبيض فى شمبانيا ، و ...

روبير : بل تذكّرْ أنت حذائى ، وغب عن بصرى قبل أن ينال ظهرك .

[يتراجع الخولىّ سريعاً فيلتقى عند الباب ببرتران دى پولنچيه ، وهو رجل فرنسى ، لمفاوىّ المزاج مترهّل ، وهو فارس ممتاز[1] gentleman-at-arms ، له من العمر ستة وثلاثون عاماً أو نحوها ، وهو موظف فى قسم البوليس الحربى ، غائب الفكر حلاّم ، يندر أن يتكلم إلا إذا كلّمه أحد ، فإن هو أجاب أجاب فى بطء وعناد . فهو على النقيض من روبير ، فروبير يعتزّ بنفسه ويفرضها على الناس ، وله صوت جهير ، وله فى الظاهر

(١) هو فى العرف القديم واحد من رجال أربعين ، جرت العادة باصطحاب الملك لهم حيثما ظهر فى تمثيل الدولة . ثم صار اللقب رتبة شرف .

نشاط جم ، وله فى الباطن إرادة منحلة غاية الانحلال . يلتقى الخولىّ بپولنچيه على الباب فيتراجع ويفسح له السبيل ثم يذهب هو لحاله] .

[يرفع پولنچيه يده بالسلام ويظل واقفاً يترقب أمراً] .

روبير : [ملاطفاً مؤانساً] لم أَدْعك لعمل من أعمال الوظيفة وإنما لحديثٍ أخوىّ غير ذى كلفةٍ ، فاجلس [يجر له المقعد بمُشط رجله من تحت الخوان] .

[يرخى پولنچيه من صلابته ويدخل فى جوف الحجرة ، ويحمل المقعد فيضعه بين الخوان والنافذة ، ويجلس وهو ساهم يفكّر . أما روبير فيرتكز على طرف الخوان بين الواقف والجالس ، ثم يبدأ حديثه] :

روبير : أصغ لى يا پولى ، أريد أن أحدثك حديث الوالد .

[يرفع پولنچيه بصره إليه دقيقة غير باسم ، ولكنه لاينطق بكلمة] .

روبير : إنه حديث عن هذه الفتاة التى شغلت بعض همّك . لقد رأيتُها ، وقد تحدثتُ إليها . فهى أولا مجنونة ، ولكن هذا ليس بذى بال . وهى ثانياً ليست بنتاً فلاحة ، بل هى من أواسط الناس ، وهذا يجعل الأمر خطيراً . أنا أعرف طبقتها جيداً ، فأبوها حضر هنا فى العام الفائت ليمثّل قريته فى قضية ، فهو بعض أعيانها ، وهو مزارع لم يرتق إلى طبقة الأسياد gentlemen ، فهو يكتسب من زراعته ويرتزق منها ، ولكنه على كل حال ليس فلّاحا عاملا يحرث الأرض ولا صانعاً . وقد

يكون له ابن عم فى المحامين أو بين القساوسة . وأمثال هؤلاء الناس قد لا يكون لهم خطر فى المجتمع . ولكنهم مع هذا قد يسبّبون متاعب كبيرة لرجال السلطة ، أعنى لى . وأنت تقصد إلى التغرير بهذه الفتاة ، وتضحك عليها بإفهامك إياها أنك تأخذها إلى الدوفين ، وهذا أمر لا شك يتراءى لك فى غاية البساطة ، ولكن اعلمْ أنك إن أحدثت لهذه الفتاة سوءاً ، فستُحدث لى ألف سوء ، فإنى سيد أبيها وحاميها . إذن فانْسَ صداقتى وارفع يدك عنها .

بولنچيه : [بحرارة متعمَّدة] يا لها من كبيرة ! إن عينى لا تنال من هذه الفتاة إلا ما كانت تناله من السيدة العذراء نفسها لو أنى نظرت إليها .

روبير : [ينزل عن الخوان] ولكنها تقول إنك أنت وچاك وديكَ تطوّعتم بالذهاب معها . فلأى شىء ما تطوعتم ؟ لا تقلْ لى إنكم اقتنعتم بالهُراء الذى تقول وأنكم ذاهبون معها إلى الدوفين .

بولنچيه : [ببطء] إن فى هذه الفتاة شيئاً خفيا . إن فى المخفَر تحتُ رجالاً فى أفواههم بذاءة وفى قلوبهم قذارة ، أو بعضهم

هكذا ، ولكنهم لم يفوهوا قطّ بكلمة تتصل بأنوثتها ، وهم يعقدون ألسنتهم عن اللعن والسباب فى حضرتها . إن بها شيئاً خفيا ، سرا لا يُكتَنَه ، لعلنا إن جرّبناه حمِدنا عقباه .

روبير : پولى ! پولى ! ما هذا الحديث ؟ تماسكْ يا رجل وانظر ما تقول . إن البصر بالأمور لم يكن يوماً خير فضائلك ، ولكن هذا الذى تزعم فات الحدّ وفاض [يتراجع روبير عنه مستاء متقزّزاً] .

پولنچيه : [لا يظهر فيه أثر لاستياء روبير وتقززه] ماذا يفيد البصر بالأمور ؟ لو كانت لنا بصيرة إذن لانضممنا إلى دوق برجندى[١] Duke of Burgundy وإلى ملك الإنجليز . إن نصف فرنسا إلى اللّوار فى أيديهم . ولهم باريس . ولهم هذه القلعة ، فأنت تعلم علم اليقين أنك اضطُررت إلى تسليمها إلى دوق بدفورد Duke of Bedford ، وأنك إنما احتفظت بها على عهدٍ أن لا تخون . أما الدوفين ففى شينون[٢] Chinon ، كالفأر محصوراً فى ركن ، غير أنه يأبى أن يقاتل كما يقاتل الفأر . وعدا هذا فنحن لا ندرى أنه الدوفين حقا ، فأمه تقول إنه ليس الدوفين ،

(١) برجندى مقاطعة فرنسية فى شرق فرنسا .

(٢) بلدة فرنسية على نهر ڤين وهو فرع من نهر اللوار . وهى فى الجنوب الشرقى من بلدة أرلين وتبعد عنها نحواً من مائة ميل .

ومَنْ أعرفُ بولدٍ من أمه . فماذا ترى فى ملكة تقول إن ولدها من حرام ؟

روبير : إنها زوجت ابنتها ملكَ الإنجليز ، فهل تلومها ؟

پولنچيه : إنى لا ألوم أحداً ، ولكن شكراً لها على ما صنعتْ ، فالدوفين كسير ذليل ، ولا بد لنا من مواجهة الحقيقة عارية . إن الإنجليز سيأخذون أُرْلِين Orleans وابن الفاعلة[1] دُنْوَا Dunois لن يستطيع إيقافهم .

روبير : إن ابن الفاعلة هزم الإنجليز منذ عامين فى مُنْتَرْچِى Montargis وكنت معه .

پولنچيه : مهما كان من أمره بالأمس فرجاله اليوم مستضعفون أذلاء ، ولن ينجينا الآن إلا معجزة ، وهو لا يستطيع المعجزات

روبير : إن المعجزات لا بأس بها يا پولى ، ولكن الصعوبة فى أنها لا تقع فى هذه الأيام .

پولنچيه : هكذا كنت أحسب بالأمس ، أما اليوم فأنا فى ريبة من ذلك [يقوم ويمشى نحو النافذة مفكرًا] . وعلى كل حال فحالنا اليوم يقضى بأن لا نترك باباً إلا طرقناه ، وفى هذه الفتاة شىء لا أدرى كيف أسميه .

(١) هذا لقبه الذى عرف به واسمه دنوا Dunoes

روبـير : أتظن أن الفتاة تستطيع إتيان المعجزات ؟ قل لى ؛ أتظن ذلك ؟

پولنچيه : إن الفتاة فى ذاتها معجزة أو بعض معجزة ، ومهما يكن من أمرها فهى آخر سهم فى جعابنا ، فالخير فى إطلاقه لا فى حبسه والرضاء بالهزيمة [يمشى على غير هدى نحو البرج] .

روبـير : [يأخذ فى التردد] أحقاً تظن ذلك ؟

پولنچيه : [يدور نحوه] وهل أبقت لنا الحوادث شيئاً نظنه غير ذلك ؟

روبـير : [يذهب إليه] قل لى يا پولى ، لو كنت فى مكانى أكنت تأذن لفتاة كهذه أن تَخْتِلك عن ستة عشر فرنكا ثمناً لحصان ؟

پولنچيه : أنا أدفع ثمن الحصان .

روبـير : تدفعه حقاً ؟ !

پولنچيه : نعم أدفعه لأعزز رأيى فيها .

روبـير : أتقامر على أمل خائب كهذا ، بهذا القدر من المال ؟

پولنچيه : هذه ليست مقامرة .

روبير : فما هى إذن ؟

بولنچيه : إنها حقيقة واقعة كالفجر الطالع . إن كلماتها وحرارة إيمانها أوقدتْ فى القلب ناراً .

روبير : [يائساً منه] مجنونان استويتما فى الجنون والله .

بولنچيه : نحن الآن فى حاجة إلى طائفة من المجانين . ألا ترى أين أدَّى بنا العقلاء ؟

روبير : [عندئذ يكتسح عجزُه وضعفُ إرادته علنا كل ما ادّعاه من مظاهر العزم القوىّ] سأحس من نفسى السخف والتغفيل ، ومع هذا فإن كنتَ موقناً مما تقول . . ؟

بولنچيه : موقن يقيناً يدفعنى إلى أخذها لشينون Chinon إلاّ أن تمنعنى أنت .

روبير : ليس هـذا من العدل فى شىء . إنك تلقى التبعة علىّ .

بولنچيه : إنها عليك لا محالة ، بأىّ قضاء قضيت .

روبير : نعم ، نعم ، فهذا هو عين الحرج . فبأى قضاء أقضى ؟ إنك لا تدرى مقدار ما أنا فيه من ارتباك وخبلة [يخطو خطوة بطيئة وفى نفسه أمل خفىّ أن تأتى چان فتكوّن له رأيه] أما

تظن الخير أن أستدعى چان فأحدثها مرة أخرى ؟

پولنچيه : [ينهض] نعم [ثم يذهب إلى النافذة وينادى] چان !

صوت چان : هل سمح لنا بالذهاب ياپولى ؟

پولنچيه : اصعدى وتعالى هنا . [يلتفت إلى روبير] أأتركك وإياها ؟

روبير : لا ، بل ابْقَ هنا وشُدَّ أزرى .

[يجلس پولنچيه على الصندوق ، ويعود روبير إلى كرسىّ الإمرة والسلطة ؛ ولكنه لا يجلس عليه بل يظل واقفاً ليستطيع أن ينفخ نفسه فيزداد مهابة . ثم تدخل چان وهى تطفح بالأخبار السارة الكثيرة] .

چان : چاك رضى بأن يدفع نصف ثمن الحصان .

روبير : [يجلس وقد ذهب عنه انتفاخه] جميل جميل والله ! !

پولنچيه : [بصوت قوىّ حادّ وهو عابس زاجر] اجلسى ياچان.

چان : [تزدجر بعض الشيء ، ثم تنظر إلى روبير] هل لى أن أجلس ؟

روبير : افعلى ما تؤمرين .

[تثنى ركبتيها احتراماً ، ثم تجلس على المقعد بينهما . ويجاهد روبير فى الظهور بالقوة والجبروت ليخفى خبلته التى هو فيها] .

روبير : مااسمك ؟

چان : [تتحدث بلا كلفة] فى اللورين يسمونني دائماً چينى ، وهنا فى فرنسا يسمونني چان ، والجند يدعونني بالفتاة .

روبير : ما لقبك ؟

چان : لقبي ؟ ماهذا ؟ إن أبي يسمّى نفسه أحياناً دَرْك ، ولكنى لا أعلم عن هذا شيئاً . إنك لقيت أبى . إنه ...

روبير : نعم ، نعم ، أذكر ذلك . إنك تأتين على ما أظن من دُمْريمى Domrémy باللورين ؟

چان : ولكن ما خطرُ هذا والفرنسية لغتنا جميعاً ؟

روبير : لا تسألى الأسئلة وإنما أجيبيها . كم سنّك ؟

چان : سبع عشرة سنة . هكذا يقولون لى . وقد تكون تسع عشرة ، فأنا لا أدرى .

روبير : قلتِ إن القديسة كترينة والقديسة مرغريت تحدثان إليك كل يوم ، فماذا عَنَيت بهذا ؟

چان : إنهما تحدثان .

روبير : ما شكلهما ؟

چان : [يتولاها العناد بغتة] لن أخبرك شيئاً عن هذا ، فهما لم تأذنا لى

روبير : ولكن أرأيتِهما رأىَ العين ؟ أتحدثا إليك فملا كما أتحدث إليك الآن ؟

چان : لا . إن حديثهما ومرآهما يختلفان كل الاختلاف عن هذا . إنى لن أستطيع أن أحدثك فى ذلك ، فلا تحدثنى فى الذى أسمع من أصوات .

روبير : ماذا تعنين ؟ أصوات ؟

چان : إنى أسمع أصواتاً تأمرنى بما أفعل . إنها تجىء من عند الله .

روبير : إنها تجىء من خيالك .

چان : بالطبع ، فهكذا تأتى رسائل الله إلى خلقه .

پولنچيه : غلبتْكَ يا صاحبي .

روبير : لا ، أبداً . [إلى چان] فاللهُ إذن يأمرك برفع الحصار عن أُرْلين Orleans ؟

چان : وبتتويج الدُّوفين فى كتدرائية رانس Rheimes

روبير : [يستدرك أنفاسه] تتويج الدّو . . . ! والله عال !

چان : وبطرد الإنجليز من فرنسا .

روبير : [فى استهزاء] ثم ماذا بعد هذا ؟

چان : [في خفة روح جذابة] هذا يكفي الآن ، فشكراً لك ياسيدي .

روبير : أظنك تحسبين رفع الحصار سهلا كطرد بقرة من حقل ؟ أظنك تحسبين الجندية صناعة يتعاطاها كل إنسان ؟

چان : بل أحسب أن الأمر لا يصعب جداً إذا جاءك نصر الله ، وإذا أنت رضيت أن تضع حياتك في يد الله يفعل بها مايشاء . إن كثيراً من الجند سُذَّجٌ أغرار .

روبير : [يتجهم] أغرار ! أرأيتِ الإنجليز يقاتلون ؟

چان : إنهم ليسوا إلا رجالا ، خلقهم الله كما خلقنا ، وأعطاهم أرضا ولغة غير لغتنا وأرضنا ، وتأبى مشيئته أن يحتلوا أرضنا ويتكلموا لساننا .

روبير : ما الذي أدخل هذا الهُراء إلى رأسك ؟ ألست تعلمين أن الجند إنما هم أتباع لربّ الإقطاع ، وأنهم لا يعنيهم ولا يعنيكِ مَنْ يكون هذا الربّ ، وسواء عندهم أن يكون دوقَ بِرْجَنْدِي أو ملك فرنسا أو ملك الإنجليز . وما دخل اللغات في هذا ؟

چان : لا أفهم كلمة مما تقول . إن الله ربّ السموات

ربُّنا أجمعين ، وهو قد قسّم فينا الأرض والألْسُن فجعلنا أمماً وأقطاراً ، وقد شاء الله أن تُبقِيَ كلُّ أمة على قطرها ، ولولا هذا لـكان من الإثم قتل الرجل الإنجليزى فى الميدان وإهراقُ دمه وقد حرّمه الله ، ولولا هذا لـكنتَ ياسيدى على وشك أن تدخل النار . لا تفكر يا سيدى فى واجبك لربّ الإقطاع وإنما فكّر فى واجبك لربّ السماء .

بولنجيه : لافائدة من هذا يا روبير . إنها تُفْحمك وتُخرسك كلما فتحتَ فاك .

روبير : هى تفحمنى ! لا والله ، وسترى . [إلى جان] نحن لا نتحدث عن الله ولـكن عن الأمور الواقعة . إنى أسألك أيتها الفتاة مرةً أخرى : أرأيتِ الإنجليزىَّ يحارب ؟ ألم تَرَيْهُم أبداً يسلبون ويحرّقون ويقلبون الريف الأخضر خراباً يباباً ؟ ألم تسمعى القِصص تُرْوَى عن « أميرهم الأسود »(١) Black Prince

(١) الأمير الأسـود لقب جرى على إدوارد أمير الغال (١٣٣٠ — ١٣٧٦) أكبر أولاد إدورد الثالث ملك إنجلترا (١٣١٢ — ١٣٧٧) ، غزا الاثنان فرنسا أكثر من مرة وجرت لهما مع الفرنسـيين موقعتان شهيرتان طمعاً فى عرش فرنسا ، أولاهما موقعة كريسى Crécy فى ٢٥ أغسطس سنة ١٣٤٦ قاد فيها الأمير الأسـود بعض جيش أبيه وأبلى بلاء حسنا . وثانيتهما موقعة پواتييه Poitiers وفيها أسر الأمير ملك فرنسا وباروناته وحمل الملك أسيرا إلى إنجلترا

وقد كان أسود من الشيطان ؟ وملكهم[1] ، ألم تسمعى الحكايات تُحكَى عن أبيه[2] ؟

چان : يجب أن تنزع الخوف من قلبك يا روبير .

روبير : لعنة الله عليك ! ما أنا بخائف . ومن ذا الذى أذِنكِ أن تسمّينى روبير ؟

چان : هكذا سُمِّيتَ فى الكنيسة بإذن الله . وما لك من اسم آخر فهو اسم أبيك أو أخيك أو غيرهما .

روبير : صَهْ . صَهْ .

چان : أنصت إلىّ أيها السيد . فى بلدنا فى دُمْرِيمى Domrémy اضطرّنا الحالُ إلى الفرار من العسكر الإنجليزى إلى أقرب قرية ، وفى هذه القرية وجدناهم قد خلّفوا ثلاثة من جرحاهم . واتفق لى أن عرفت هؤلاء الثلاثة اللَّعّانين المساكين خير معرفة ، فلم أجد لهم من قوة الجسم نصف قوتى .

روبير : أتعرفين لماذا يُسْمَوْن اللعانين ؟

---

(٢) ملك الإنجليز المذكور هو هنرى السادس (١٤٢١ — ١٤٧١) توج فى لندن عام ١٤٢٩ وتتوج فى باريس ملكا على فرنسا فى عام ١٤٣٠

(٢) أبوه هو هنرى الخامس (١٣٨٧ — ١٤٢٢) ملك إنجلترا ، غزا فرنسا طمعاً فى عرشها ودخل باريس

چان : لا . كل الناس تسميهم لمانين[1] .

روبير : ذلك لأنهم دائماً يدعون الله بعضهم فى بعض بأن يلعنهم ويهلك أرواحهم . فهذا معنى الكلمة فى لغتهم ، فكيف تجدين ذلك ؟

چان : رحمهم الله . إنهم سيعودون إلى بلادهم ، إلى الأرض التى خلقها الله لهم وخلقهم لها ، وعندئذ يفعلون كما يفعل عباده الصالحون . لقد سمعت قصة أميرهم الأسود . إنه ما لبث أن وطئت قدماه أرض بلادنا حتى تقمّصه الشيطان فصار مارداً أسود شريراً . ولكنه فى بلاده ، فى الأرض التى خلقها الله له ، كان من عباد الله الصالحين . وهكذا شأن الناس . فأنا لو ذهبت إلى إنجلترا ضدّ مشيئة الله لأغزوها وأعيش فيها وأتكلم لغتها ، إذن لتقمصنى الشيطان . فإذا جاءتنى الشيخوخة أخذنى الفزع كلما تذكرت ما صنعت من السوء فى صباى .

روبير : قد يكون هذا . ولكن كلما ركبكِ الشيطان ازددْتِ مِراساً فى الحروب . ومن أجل هذا سيأخذ الإنجليز أُرْلين Orleans بما رَكِبَهُم الشيطان . وأنت لن تصديهم عنها ولا عشرة آلاف مثلك .

---

(١) أصل الكلمة جدداmز Godamns وهى تتركب من كلمتين جد God كلمة معناها الله ، ودام damn كلمة أخرى معناها يلعن . ومن الإنجليز من يغرم عند السباب باللعن كما يغرم بعض الشرقيين بالدعاء باللعنة.

چان : ألف واحد مثلى يصدونهم عنها . بل عشرة مثلى يصدونهم إذا كان الله معهم [تضيق بجلستها وسكونها فتقوم فجأة وتهجم عليه] إنك لا تفهم يا سيدى . إن جنودنا يُغلبون لأنهم يحاربون لخلاص رقابهم والإفلات من الموت . والهرب أقصر الطرق إلى النجاة . وفرساننا النبلاء Knights لا يفكرون إلا فى مال الفداء . فالحال معهم « ندفع أو تدفعون » لا « نُقتَل أو تُقتلون » . فسأعلّمهم كيف يقاتلون حتى تكون مشيئة الله فى هذا البلد الأمين ، وعندئذ يطردون الإنجليز من فرنسا طرداً ، ويسوقونهم كالخِراف سوقاً . وستعيش أنت ويعيش پولى لتريا أرض فرنسا وقد خلت منهم أجمعين ، فلا يكون فيها إلا ملكٌ واحد ، ليس هو الملكَ الإنجليزىّ الإقطاعىّ ، ولكن ملك الله الفرنسى .

روبير : [إلى پولنچيه] پولنچيه ، قد يكون كل هذا خرفاً ، ولكنّ الجند قد يصدقونه ، فإن هم صدّقوه هاجهم إلى القتال . على أنهم ما هاجهم إلى القتال شىء قلناه أبداً . والدوفين نفسه قد يؤمن به ، فإن هى استطاعت حمله على القتال حملت عليه كل الناس من ورائه .

پولنچيه : لا أرى فى التجربة ضرراً ؟ فهل ترى فيها شيئاً ؟ إن فى هذه الفتاة سرا . . . . .

روبير : [يلتفت إلى جان] والآن أنصتى إلىّ أيتها الفتاة ، [يضيق ذرعاً بقطعها الكلام عليه] لا تعجلى بمقاطعتى قبل أن أتمّ تفكيرى .

جان : [ترتمى فى ثِقَل على المقعد كتلميذة مدرسة طيّعة] سمعاً وطاعة ياسيدى .

روبير : إن أمرى إليك أن تذهبى إلى شينون Chinon بصحبة هذا الرجل السَّرِىّ وثلاثة من أصحابه .

جان : [يضىء وجهها فرحاً وقد شابكت بين يديها] أى سيدى الأكرم . إنى أرى هالة تدور حول رأسك كهالة القديسين .

پولنجيه : وكيف يكون دخولها إلى الحضرة الملكية ؟

روبير : [وقد كان ينظر فوق رأسه يبحث عن الهالة فى شىء من الخشية] لا أدرى . تدخل إلى حضرته بمثل ما دخلت إلى حضرتى . فإن استطاع الدوفين أن يمنعها من الدخول فهو من الرجولة فوق ما كنت أحسب . [يقوم] . سأبعث بها إلى شينون ولها أن تقول إنى بعثت بها ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون فهذا كل طوقى .

جان : والملابس ؟ تأذن لى فى ملابس الجند ، أليس كذلك ياسيدى ؟

روبير : البسى ما تشائين وعليك تبعته فليس لى شأن فيه .

چان : [تثور فرحاً بنجاحها] هيّا يا پولى هيّا ! [تخرج مندفعة] .

روبير : [يصافح پولنچيه] مع سلامة الله ياعزيزى . إنى مجازف فى الذى أتيت وقلّ من الرجال من يصنع مثل الذى صنعت ، ولكنى أرى كما ترى أن فى هذه الفتاة شيئاً خفيا .

پولنچيه : : نعم إن بها سرا . فى حفظ الله [يخرج]

[يعود روبير من الباب على مهل وهو يحك رأسه يفكّر فى الذى حدث ، وهو فى ريبة شديدة أن يكون قد تغفّلته أنثى مخبولة هى فوق خبلتها دونه فى المجتمع شأناً] .

[يدخل الخولى جارياً هالعاً يحمل سلّة]

روبير : ماذا عندك الآن ؟

الخولى : سيدى ! إن الدجاج يبيض بغير حساب . ستون بيضة يا سيدى .

روبير : [يتصلب فى ارتعاش . ثم يرسم علامة الصليب على نفسه ثم ينبس بالكلمات الآتية فى عسر من شفتين قد هرب الدم منهما] المجد لله فى السماء [ثم يقول فى صوت عال وهو يلهث لانقطاع أنفاسه] إن رسالتها من الله حقا .

المنظر الثانى

[فى بلدة شينون Chinon فى مقاطعة تورين Touraine . يظهر طرف من حجرة العرش وقد انفصل عن باقى الحجرة بستار فصار مدخلا لها. وقد وقف فيه رجلان ينتظران قدوم الدوفين ، أحدهما مطران مدينة رانس Rheims وهو رجل قارب الخمسين معلوفٌ بَدِين ليس له من مظهر كَنَسىّ غير الضخامة والوجاهة ، وله فى السياسة شأن . والرجل الثانى كبير أمناء الملك ، المنسنيور دى لَتْريمى ، de La Trémouile وهو رجل فظيع متعجرف ملىء كزق أفعم خمراً . وفى الحائط إلى يمين الرجلين باب . وتاريخ اليوم الثامنُ من مارس عام ١٤٢٩ . والوقت الأصيل] .

[يقف المطران وقفة وقار ، وإلى يساره كبير الأمناء يرغى ويزبد غاضباً عاصفاً] .

***

لَتْريمى : ماذا يعنى الدوفين بهذا ؟ ماذا يعنى بحبسنا فى انتظاره كل هذه المدة ؟ وأنت ما صبرُك ووقوفك هكذا كالصنم ؟

المطران : إنك تعلم أنى مطران ، والمطارنة بعض صنوف الأصنام . أو على الأقل فمن بعض عملنا أن نتعلم أن نحتمل

كالأصنام وقاحة البلهاء وجهل الأغبياء . وعدا هـذا ياعزيزى يا كبير الأمناء ، أليس من حق الدوفين أن يحبسك فى انتظاره ؟

لتريمى : لعنة الله على الدوفين ، وَعَدَتْكَ اللعنة ! أتدرى كم لى عليه من الدين ؟

المطران : أكثر كثيراً مما لى أنا عليه ، لا شك ، لأنك أغنى منى كثيراً . وهذا على فرض أنك أقرضته كل ما تستطيع إقراضه ، فهكذا فعلت أنا .

لتريمى : سبعة وعشرون ألفاً ! هذه آخر نشلة نشلها . سبعة وعشرون ألفاً !

المطران : وماذا صنع بها كلها ، فإنى لم أر قطُّ عليه كسوة تصلح أن أرمى بها لقسيس .

لتريمى : إنه يتغدّى بدُجَيجة أو بقطعة خسيسـة من الضأن . يقترض منى آخر درهم ومع هذا لاتجد عليه من آثار ذلك شيئاً . [يظهر حاجب فى الباب] أخيرا !

الحاجب : لا يا مولاى . ليس هذا بالملك ، وإنما هو السيد دى ريه de Rais .

لتريمى : الشاب ذو اللحية الزرقاء ! ولماذا تستأذن له ؟

الحاجب : الكبتن لاهير La Hire معـه . حدث حادث على ما أحسب .

[يدخل الـكبتن چِلْ دى ريه Gilles de Rais ، وهو فتى أنيق رزين ، يُزْهَى بلحيةٍ مُحوَّاة صغيرة صبغها بالأزرق ، وازدهاه منها أنه انفرد بها فأرسلها فى بلاط لا تُرسَل فيه اللحى . وهو رجل يدأب دائماً ليكون محبَّبا إلى النـاس ، ولـكن تعوزه البهجة المطبوعة ، وهو فى صميمه غير لطيف . ومصداق ذلك أنه تحدّى الـكنيسة بعد ذلك بإحدى عشرة سنة أو نحوها فاتهمته بأنه كان يبغى المتعة و يطلب اللذة من أفعال قاسية فظيعة ، ومن جرّاء هذا شنقوه(١) . أما الساعة فلم يكن قد أظلّه بعدُ ظلّ المشانق ، فهو يتقدم فى ابتهاج إلى المطران . عندئذ يخرج الحاجب] .

ذو اللحية الزرقاء : عبدك ووليك ياسيدى المطران . ونهارك سعيد يامولاى ، أتدرى ماحدث للاهير ؟

لتريمى : إنه سـبّاب بذىء فلعله انتابته نوبة من السب واللعن تركته صريعاً .

---

(١) چل دى ريه (١٤٠٤ — ١٤٤٠) ويلقب بذى اللحيـة الزرقاء حارب الانجليز ومنح لقب مارشال فرنسا فى عام ١٤٢٦ . وقدم شارل السابع ملك فرنسا وأنفق فى خدمته مالا كثيراً من ثروة كبيرة . ورعى الأدب والموسيقى وأولاهما عطفه وماله . ولـكن كانت به سوأة كبيرة لم يفطن لها رؤساؤه وأقرانه حتى اتهمه بهـا الفلاحون ، ذلك أنه كان يرسل خدمه تختطف له الأولاد ، فيسومهم العنف ثم يقتلهم . فلما خاصمته الـكنيسة على الزندقة والقتل كان عدد قتلاه قد بلغ المـائة والأربعين . واعترف بخطاياه فهرب بذلك من حكم الـكنيسة . ولم تستطع الحـكم عليه فى تهمة القتل فقام بمحاكمته رئيس برلمان بريتون فحـكم عليه بالشنق فشنق فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٤٤٠

ذو اللحية الزرقاء : لا ، فالأمر على نقيض ماتقول . فما هو بالصريع ، وإنما الصريع فِرَنْك ، ذلك السبّاب الوحيد فى تورين الذى يستطيع غلبة لاهير فى السِّباب ، وكان يَسُب ويُفْحش فقال له جندى ما يحمل بك السِّباب وأنت على باب الموت .

المطران : ولا على أى باب آخر . ولكن قل لى كيف كان فِرَنْك البذّاء على باب الموت ؟

ذو اللحية الزرقاء : سقط توًّا فى بئر وغرق فيه . ورآه لاهير فارتاع حتى فقد صوابه .

[يدخل الكبتن لاهير ، وهو جندى قديم ، لا يعرف من آداب البلاط والقصور شيئاً ، ولكنه يعرف الكثير النابى من أدب المعسكر والخيام] .

ذو اللحية الزرقاء : كنت أحدّث المطران وكبير الأمناء عنك ، فقال المطران إنك نفسٌ ضالّةٌ هالكة .

لاهير : [يمر أمام ذى اللحية الزرقاء بخطى واسعة ثقيلة إلى أن يزرع نفسه بين المطران وكبير الأمناء] ليس الأمر مزاحاً ، فقد كان الحال شرا مما ظننت . فالجندى لم يكن جنديا وإنما مَلَكا فى لباس جندىّ .

المطران والأمين وذو اللحية الزرقاء : [يصيحون معاً] مَلَكا !

لاهير : نعم مَلَـكا . إنها فتاة قامت من شمپانيا فى ستة من الرجال ، ونفذت بهم فى الكثيف من كل شىء ، فى بُرْجَنْديّين[1] وانجليز وفارّين من الجيش ولصوص نهّابين وغير ذلك مما يعلم الله ، ومع كل هذا لم تقع أبصارهم على أحد إلا أهل الريف . إنى أعرف أحد هؤلاء الرجال ، هو دى پولينى ، وهو يقول إنها ملك . ألاَ علىّ اللعنة بعد هذا إن نطق فمى بفاحشة أبداً .

المطران : فاتحةٌ فى التقوى مُبِينةٌ يا كبتن .

[يضحك لتريمى وذو اللحية الزرقاء . يعود الحاجب] .

الحاجب : جلالة الملك .

[يقفون فى انتظام يؤدون واجب البلاط كمن يؤدى واجباً ثقيلا . ثم يدخل الدوفين من خَلَل الستائر وفى يده ورقة . وهو فى الواقع قد أصبح الملكَ شارل السابع منذ مات أبوه ، ولـكنه لم يكن قد تتوج بعد ، وهو فى السادسة والعشرين ، وله جسم ضعيف حقير . وكانت تجرى العادة بالإلحاح فى حلق الرأس فلا تبدو من تحت غطائه بادية من شعر ، فزاد هذا فى منظره قبحاً . وكانت عادةً تجرى فى الرجال والنساء على السواء . وكانت له عينان صغيرتان ضيقتان متقاربتان ، وأنف متهدّل طويل يتدلّى من فوق شفة عليا سميكة قصيرة . وعلى وجهه سِمة الكلب الصغير الذى اعتاد الرفْسَ الـكثير فلم يؤدبه الرفْسُ ولم يصلح منه شيئا . ولـكن لم تـكن فيه جلافة

(١) برجندى مقاطعة بفرنسا .

أو غباوة . وكانت له فكاهة فى صفاقة أعانته على حسن الدفاع عن نفسه فى الأحاديث . وكان فى هذه الساعة مُهتاج المشاعر كالطفل وجد لُعبة جديدة . دخل واتجه إلى المطران عن يساره فتراجع لاهير وذو اللحية الزرقاء نحو الستائر] .

شارل : أتدرى يا مطران ما بعث لى روبير دى بُدْريكور من ڤوكولور ؟

المطران : [فى احتقار] أنا لا أحتفل بلُعباتك الجديدة .

شارل : [غاضباً] ليست هذه لُعبة . [بوجه عابس متجهم] . على كل حال أنا فى غنى عن احتفالك .

المطران : سموك يغضب من غير ضرورة .

شارل : متشكر ! إنك دائماً حاضرٌ بخطبة تعظ بها .

لاتريمى : [فى غير رقة] كفاك شكوى . ثم ما ذا بيدك ؟

شارل : وما شأنك فى هذا ؟

لاتريمى : إن من شأنى أن أعلم ما يجرى بينك وبين حامية ڤوكولور [يجذب الورقة من الدوفين ويبدأ يقرؤها فى صعوبة ويتتبّع كلماتها بأصبعه كلمةً كلمةً ، يتهجّى مقاطع الكلمات مقطعاً مقطعاً] .

شارل : [كسير النفس] إنكم جميعاً تحسبون أن لكم أن تعاملونى كما تشاؤون لأنى مَدِين لكم ، ولأنى لا أُحسن القتال .

ولـكن اعلموا أن فى هذه العروق يجرى دم الملوك .

المطران : حتى هذا مشكوك فيه يا صاحب السمو ، ولن يجد الناظر فيك شيئاً من مخايل جدك شارل الحكيم .

شـارل : دَعُوا جدى وذكره فما أكاد أُطيقه . إنه غلا فى الحكمة فلم يكتف بنصيبه منها ، وجار على أنصبة الأسْرة جميعها واستحوذ عليها كلها لخمسة أحقاب تأتى من بعده ، وخلَّفنى بينكم سخيفا ضعيفا تَمتهنوننى وتتوعّدوننى جميعاً .

المطران : اضبط نفسك يا سيدى فهذه الغضبات الصارخة لا تليق .

شـارل : أموعظة أخرى ! أشكرك . أليس من الأسف الكثير أن القديسين والملائكة لا تأتيك برغم أنك مطران ؟

المطران : ماذا تعنى ؟

شـارل : ها ، ها ! سلْ هذا المتغطرس الشرير [يشير إلى لتريمى] .

لتريمى : [وقد هاج غضباً] احبس لسانك ياهذا . أتسمعنى ؟

شـارل : بالطبع أسمعك فلا داعى للصراخ . إن كل من فى القلعة يسمعك . قل لى ، لماذا لا تذهب إلى الإنجليز وتصرخ فيهم هذا الصراخ ، وتهزمهم نيابة عنى ؟

لتريمى : [يرفع قبضة يده مهدِّداً] أنت أيها الـ . . .

شارل : [يجرى وراء المطران] إياك أن ترفع يدك علىّ . . إنها الخيانة العظمى .

لاهير : حلما أيها الدوق حلما .

المطران : [بقوة] لا ، لا . إن هذا لا يُجْدِى . سيدى الأمين الأكبر ، أرجوك ، أرجوك ، فلا بد من بعض النظام فينا . [إلى الدوفين] وأنت يا سيدى إن عجزت عن حكم مملكتك فلا أقلّ من أن تَبْغى حكم نفسك .

شارل : موعظة أخرى ! أشكرك

لتريمى : [يعطى الورقة للمطران] خذْ واقرأ لى هذه الورقة المنكودة . لقد أصعد الدمَ إلى رأسى فلم أَعُدْ أتبيّن من حروفها شيئا .

شارل : [يخرج من خلف المطران ويذهب وراء لتريمى ويُطلُّ من فوق كتفه اليسرى] أنا أقرؤها لك إن أحببت . أنا أعرف كيف أقرأ ، حقا لا كذبا .

لتريمى : [باحتقار شديد ، وبدون أن تؤثر فيه التعبيرة اللاذعة التى قصدها شارل] نعم تعرف أن تقرأ ، وهذا كل ما تصلح له . أقرأت ما بها يامطران ؟

المطران : كنت أحسب بدريكور أعقل من هـذا . إنه يبعث إلينا ببنت فلاحة معتوهة . .

شارل : [مقاطعاً] لا ، لا ، إنه بعث ملكا . إنه بعث قديسة . وهى تجىء إلىّ أنا ، نعم إلىّ أنا ، أنا الملك لا إليك أنت يا مطران ، برغم قداستك . فإن أنت جهلت الدمَ الملكىّ أين يكون فقد عرفتْهى مكانه [يمشى إلى الستائر من بين لاهير وذى اللحية الزرقاء رافعا أنفه نخوراً زاهيا] .

المطران : لن ترى هذه الفتاة البلهاء .

شارل : [ينفلت راجعاً] ولكنى أنا الملك وسوف أراها

لتريمى : [بقسوة] إذن فهى لن تراك ، فماذا عندك الآن ؟

شارل : قلت لك سأراها ، وفى هذه المرة سأعرف كيف يطاع أمرى .

ذو اللحية الزرقاء : [ضاحكا منه] ياصبىّ ياشقىّ ! ماذا كان جدك الحكيم يقول لو أنه سمع منك هذا ؟

شارل : سؤالك هذا دليل جهلك ياذا اللحية الزرقاء . إن جدى كانت له قديسة تعلو فى صلاتها فى الهواء وتخبره بكل ما يودّ علمه . وأبى المسكين كانت له قديستان ، مارى دى مَيَّا

Marie de Maillé وجسْك أفنيون Gasque of Avignon · إنْ هذا من تقاليد الأسرة ، فلست أبالى بالذى تقولون ، فلا بد لى من قديسة أنا أيضاً .

المطران : إن هذه المخلوقة ليست قديسة . وما هى حتى بالمرأة المحترمة . إنها لا تلبس ملابس النساء ، بل ملابسَ الجند ، وهى تركب مع الجند وتطوف الريف مع الجند ، فهل تحسب ياصاحب السمو أن امرأة كهذه خليقة بالدخول إلى بلاطك ؟

لاهير : صه ! [يذهب إلى المطران] أتقول إنها فتاة تلبس درعا كالجنود ؟

المطران : هكذا يصفها بدريكور .

لاهير : ولكن ، وحياة كل عفريت ، وعزة كل شيطان مريد — آه عفوك اللهم ماذا أقول ؟ — بل وحياة العذراء مريم وعزة القديسين أجمعين إنْ هذه إلا الملَك الذى صَعَق فرنكَ البذّاء وقتله لفحش لسانه .

شارل : [فرحا بنصره] ألا ترون ! إنها معجزة !

لاهير : أخشى أن تصعقنا جميعاً إذا نحن أسأناها ، فبربك يامطران إلاّ وزنت ما تقول وتفعل .

المطران : [بشدة] كلام فارغ ! من هذا الذى صُعِق ؟ إن هو إلا رجل سافل سكير لِيم ألف مرة على نخشه ، ثم ساقه القدر إلى بئر فسقط وغرق فيها . مصادفة من مصادفات الحوادث

لاهير : أنا لا أعرف المصادفات ما هى ، ولكنى أعرف أن الرجل مات ، وأنها قالت له إنه سيموت .

المطران : ولكننا سنموت جميعاً يا كبتن .

لاهير : [يصلّب على صدره] أعوذ بالله من الموت [يتراجع خشية الاستمرار فى الحديث]

ذو اللحية الزرقاء : من الميسور أن نكتشف إن كانت هذه الفتاة مَلَكا أو غير ملك . دعونا ندّعى إذا هى حضرت أنّى أنا الدوفين ، ثم ننظر ما سيكون منها ، أتعرفنى ، أم تجوز الحيلة عليها .

شارل : إنى موافق ، فإن هى لم تتبيّن أين يجرى الدم الملكى فلا عرفتُها ولا عرفتنى .

المطران : إن تنصيب القديسين من عمل الكنيسة ، فما بال بدريكور يدخل فيما لا يعنيه ، وما باله يغتصب القساوسةَ أعمالهم . لا والله ، لن تدخل هذه الفتاة هنا أبدا .

ذو اللحية الزرقاء : ولكنك يامطران . . .

المطران : [بصلابة] إنى أتكلم باسم الكنيسة [إلى الدوفين] فهل تجاسر أن تأذن لها فى الدخول ؟

شارل : [مرتاعاً ولكنه عابس] إذا كنت تنذرنى بقطعى من الكنيسة فبالطبع ليس لى ما أقوله . ولكنك لم تقرأ ذيل الكتاب . بدريكور يقول إنها ترفع لنا الحصار عن أُرلين ، وتهزم لنا الإنجليز .

لتريمى : كلامٌ هُراء .

شارل : إذن فهل تقوم أنت برفع الحصار بكل ما أوتيت من غلظة وطغيان .

لتريمى : لا تسبّنى فى وجهى ، أفسامع أنت ؟ إنى حاربت أكثر مما فعلتَ أنت أو تفعل أبداً ، ولكنى لا أستطيع تقطيع نفسى هنا وهنا .

شارل : لا بأس عليك ، ففى هذا بعض البلاغ .

ذو اللحية الزرقاء : [يأتى بين المطران والملك] أليس عندك جاك دُنْوَا Jack Dunois على رأس جيوشك فى أُرْلين ، دنوا الشجاع ، دنوا الوسيم القسيم ، دنوا البطل البارع الذى لا يُغلب ، دنوا

حبيب النساء جماء ، دنوا ابن الفاعلة ذو الملاحة والجمال ؟ أَفَيُعقَل أن فتاة من بنات الريف تقدر على ما لا يقدر عليه هذا الرجل ؟

شارل : إذن فلم لا يرفع الحصار عن أُرْلين ؟

لاهير : إن الرياح تهب على غير هواه .

ذو اللحية الزرقاء : أرلين ليست على بحر المنْش ، فما له وللرياح تهب على غير هواه ؟

لاهير : إن أرلين على نهر اللوار ، والإنجليز ممسكون برأس الجسر ، فلا بد له إن أراد أن يأخذهم من ورائهم أن يرسل رجاله عَبْرَ النهر وضدّ التيار . ولكن ريحاً قوية لعينة لا تفتأ تهب عكس اتجاهه . وقد أمر القساوسة أن يقيموا الصلوات ويدْعوا الدعوات عسى أن تتغير الريح دون جدوى ، ودفع لهم عن صلواتهم ودعواتهم أجراً كثيراً حتى أملّه الدفع . فالذى يحتاجه الآن معجزة تنزل عليه من السماء . إنكم تقولون لى إن الذى فعلته الفتاة لفرنك البذّاء لم يكن من المعجزات فى شىء . فهبوها لم تكن معجزة ، ولكنها قضت عليه قضاء مبرما . وهذه الفتاة لو أنها دَعَتْ للريح فتغيّرت وجهتها ، ففى وسعكم أيضاً أن لا تَعُدُّوا ما تصنع معجزة ، وهذا لا يضير شيئاً ، ولكنها قد تقضى

بذلك على الإنجليز قضاء مبرماً . فما ضير هـذا ، وما ضرر التجربة فيه ؟

المطران : [وقد جاء على قراءة الكتاب كله وأخذه التفكير] يظهر أن بدريكور لا شك تأثر بأمر هذه الفتاة تأثراً كبيراً .

لاهير : إن بدريكور جحش كبير ، ولكنه جندى مكين أيضاً ، فهو لو ظن أنه غالب الإنجليز ، لظن ذلك معه الجيشُ كله .

لتريمى : [إلى المطران وهو فى تردد] خـــذهم على هوامم وأعطهم ما يريدون . إن رجال دنوا مُسْلمون البلد لا محالة ، مسلموها على الرغم منه ، إذا هم لم يأتهم من يشدّ أزرهم ويُحيي أملهم ويبثّ الجرأة فى قلوبهم .

المطران : إن الكنيسة لا بد لها من امتحان الفتاة قبل أن يُقضَى بأمر فيها . وعلى هـذا ، فبما أن سموه يرغب فى حضورها ، فادْعوها تدخل إلى البلاط .

لاهير : سأجدها وأدعوها [يخرج] .

شارل : تعال معى يا ذا اللحية الزرقاء ، وهيا نهيئ أمرَيْنا حتى لا تستطيع الفتاة تمييزى . فكن أنت الملك [يخرج من خلال الستائر] .

ذو اللحية الزرقاء : أنا أكون هذا الشىء الحقير ! اللهم

عفوا يارب السماء ! [يخرج وراء الدوفين] .

لتريمى : أَتُرَى تستطيع الفتاة تمييز الدوفين ؟

المطران : بالطبع تميزه .

لتريمى : وكيف ؟ أنَّى لها عرفانه ؟

المطران : إنها تعرف ما يعرفه كل الناس فى شينون : أن الدوفين أحقر مَن فى البلاط منظراً وأخسهم ملبساً ، وأن الرجل ذا اللحية الزرقاء إنْ هو إلا چل دى ريه Gilles de Rais .

لتريمى : فاتنى أن أذكر هذا .

المطران : إنك لا تعلم من أمر المعجزات ما علمت أنا . إن علم المعجزات من بعض صناعتى .

لتريمى : [وقد اختلط فكره واستاء قليلا مما قال المطران] ولكن هذا لا يكون معجزة أبداً .

المطران : [فى هدوء] ولم لا ؟

لتريمى : خلّنا فى الجد وقل لى ما هى المعجزة ؟

المطران : إن المعجزة ياصديقى حادث يبعث فيك الثقة ويخلق الإيمان . فهذا طبيعة المعجزات ، وهذا مقصدها . والمعجزات قد تظهر غريبة جدا لمن يشهدونها ، وقد تظهر فى غاية البساطة لمن يأتونها . ولكن لا ضير من هذا ، فهى

معجزات حقًّا ما بعثت فى الناس الإيمان حقا .

لتريمى : حتى ولو كانت خداعا .

المطران : إن الخداع يَخدع ، ولكنّ الحادث الذى يبعث الإيمان لا يخدع ، فهو إذن معجزة لا خداع .

لتريمى : [يحك رقبته وقد اختلط عليه ما يسمع] إنك مطران فلا بد أنك على حق ، ولو أن الريبة تبدو لى بعضَ الشىء فيما تقول . على أنى لست رجلا من رجال الكنيسة ولهذا تتعمَّى علىّ هذه الأمور .

المطران : نعم لستَ رجلا من رجال الكنيسة ، ولكنك رجل من رجال السياسة وجندى من رجال الجيش ، فقل لى بالله أتستطيع جباية الضرائب من الناس أو إغراء الجند بالتضحية بأرواحهم إذا هم علموا بالواقع الجارى بدلا مما يتراءى لهم أنه الواقع الجارى .

لتريمى : لا وربّك ، إذن لهاجوا وماجوا وأحدثوا الأحداث قبل مغيب الشمس .

المطران : أليس من السهل أن تقول الحق لهم ؟

لتريمى : لن يصدقوه ورب العزة .

المطران : أصبت ! أصبت ! إذن فاعلم أن الكنيسة عليها حُكْم الرجال لخير أرواحهم كما عليكم حكمهم لخير أجسامهم . ولهذا وجب على الكنيسة أن تفعل ما تفعلوه : تَسْقى إيمانهم بماء الشِّعْر

لتريمى : شعر ! إنى أسميه غشا وخداعا .

المطران : تخطئ يا عزيزى إن أنت سمّيته هكذا . إن الأقاصيص تُحكى للعِبرة ، والأمثال تُضرَب فى الناس ، فلا تسمَّى أكاذيب من أجل أنها تصف أحداثا لم تقع فى الزمن أبدا . كذلك المعجزات ليست خُدَعات لأنها كثيراً — ولا أقول دائما — لا تكون إلا ابتكارات بسيطة بريئة يبتدعها القسيس ليحمى بها إيمان قطيعه . إن هذه الفتاة إذا دخلت علينا فعرَفَت الدوفين من بين رجال البلاط ، فإن هذا العرفان لا يقع عندى موقع المعجزة ، لأنى أعلم كيف جاء ، فهو لا يزيد فى إيمانى . ولكنه يكون عند غيرى معجزة ، ومعجزة مباركة أيضاً ، إذا هم أحسوا منها تلك الهزّة التى تهتزها الأنفس لخوارق الأمور ، وإذا هم نسوا أجسادهم وطينتها الخاطئة فيما غَشِيهم من شعور بمجد الله فاجئ . وستجد الفتاة نفسها قد تأثرت أكثر من كل أحد بالذى فَعَلتْ . وستجدها قد نسيتْ أىَّ السُّبُل سلكتْ لمعرفة

الدوفين . ولعلك أنت واجد من ذلك مثلَ ما وجدَتْ .

لتريمى : من لى ببصيرة نفَّاذة أنفذ بها فيك فأعرف أىَّ بَعْضَيْك أكبر ، بعضك الذى يسكنه مطران الله الورع التقىّ ، أم بعضك الذى يسكنه أخبث ثعلب فى تورين . ولكن هلمّ بنا وإلاّ فاتتنا النكتة الواقعة ، فإنى أريد أن أراها ، معجزة كانت أو غير معجزة .

المطران : [يتمهل عن الذهاب برهة] لا تظن أنى أحب السُّبل الضالة والطرقات المعوجّة . إن فى الناس روحا تنمو جديدة ، ونحن فى فجر عصر أوسع أفقا مما نحن فيه . ولو أنى كنت راهباً بسيطا ، ولم يكن من عملى حكم الرجال ، لطلبت السلام لروحى والطمأنينة لنفسى لدى أَرسطو وعند فيثاغورس مؤثراً إياهما على القديسين ومعجزات القديسين .

لتريمى : ويحك مَنْ فيثاغورس ؟

المطران : حكيم كان يرى أن الأرض كرة وأنها تجرى حول الشمس .

لتريمى : أىّ مغفَّل مُطْبِق الجهالة هذا ! ألم تكن له عينان تبصران ؟

[يخرج الرجلان معا من خلَل الستائر . وبعد برهة تعود الستائر فتنفرج فتكشف عن قاعة العرش كُلّها حتى أقصاها ، فتُرى وقد انعقدت بها هيئة البلاط . ويُرى فيها إلى اليمين كرسيان من كراسي الدولة مرفوعان على مِنَصّة ، وقد وقف على المنصة ذو اللحية الزرقاء يمثّل دور الملك . وكان ، كالبطانة كلّها ، يستمتع بالأضحوكة التي ائتمروا عليها استمتاعا لا يكاد يخفيه . وفي الجدار وراء المنصة باب خَفِيّ يحجبه ستار ، ولكن الباب الأكبر في الجانب الأيسر المقابل يخفره جند في السلاح . وبين البابين طريق خال اصطف على جانبيه أهل البلاط . ووقف شارل في الصف في وسط الحجرة . ووقف لاهير على يمينه ، ووقف المطران على يساره ، ولكنه اتخذ موقفه جنب المنصة . ووقف لتريمي في قبالته في الصف الآخر . وجلست دوقة لتريمي على كرسيّ الملكة مدعيةً أنها الملكة ، واجتمع حولها طائفة من النساء من بطانتها وقفْنَ خلف المطران]

[ويزيد لغط الأحاديث ويشتد ، فيظهر الحاجب على الباب فلا يراه أحد] .

الحاجب : إن دوق . . . [لا ينصت أحد] إن دوق . . . .

[يستمر اللغط ، فيغضب الحاجب لانصرافهم عنه وعجزه عن لفتهم إليه فينتزع من أقرب حارس رمحه ، وهو رمح له رأس بلطة ، فيضرب بزُجّه الأرض . عندئذ يذهب اللغط وينصت الجميع وتجتمع عيون القوم عليه] أنصتوا [ثم هو يعيد الرمح إلى الحارس] إن دوق فندوم Vendôme يقدّم الفتاة جان إلى الملك .

شارل : [يرفع سبّابته إلى شفته يحذّر من الكلام] صه [ثم هو يختفى وراء أقرب رجل من البطانة ولكنه يطاول برأسه من ورائه ليرى ما يجرى] .

ذو اللحية الزرقاء : خلُّوا لها السبيل إلى عرشنا .

[تدخل جان يقودها نبيل من النبلاء حيىّ صامت . وهى فى لباس الجند ، قد قصّت شعرها فقَصُر وتعلّق كثيفاً حول وجهها . وما تكاد تدخل حتى تتخلّص من يد النبيل وتقف تبحث فيمن حولها عن الدوفين] .

الدوقة : [تتحدث إلى أقرب الوصيفات] انظرى ! انظرى ! شعرها ! [عندئذ لا تطيق السيدات حبس الضحك فيُرسلْنه عالياً] .

ذو اللحية الزرقاء : [يحاول ألا يضحك ويشير إلى السيدات بيده غير راض عمّا هنّ فيه من حبور] لا . لا . سيداتى !

جان : [لا تنزعج مما جرى] إنى أفعل هذا بشعرى لأنى من الجند . أين الدوفين ؟

[تتوجه جان ناحية العرش فتجرى فى الحاضرين ضحكاتٌ محبوسات مسموعات] .

ذو اللحية الزرقاء : [فى تواضع] إنكِ فى حضرة الدوفين .

[فتنظر جان إليه فى ارتياب ساعة من الزمان ، وتأخذ تتفحّصه من رأسه إلى قدمه ، والقوم صُموتٌ ينظرون ما عسى أن تفعل . ثم ينبثق فى محياها سرور النكتة فتقول] .

جان : اطلعْ مما أنت فيه ياذا اللحية الزرقاء فما مِثْلك مَن يخدعنى . ثم قل لى أين الدوفين .

[تنطلق ضحكات عاليات فى البلاط إذ يشير ذو اللحية الزرقاء إشارة الخيبة والتسليم ، ثم يضحك مع الضاحكين وينط من المنصة إلى جانب لتريمى . أما جان فتنكص عن العرش ، وفى فمها ابتسامة عريضة ، تبحث فى الصفّين عن الدوفين ، وما هى إلا برهات حتى تغوص فى أحدهما فتمسك بذراع شارل وتخرجه إليها]

جان : [ترفع يدها عن شارل وتثنى له ركبتيها احتراماً] أيها الدوفين ، يا صغير ، يا رقيق ، يا رفيق ، إنى مرسَلةٌ لطرد الإنجليز عن أُرْلين وعن فرنسا ، ولتتويجك ملكا فى كتدرائية رانس ، ففيها يُتوّج كل ملك حقٍ من ملوك فرنسا الأصيلين .

شارل : [يتحدث إلى رجال البلاط مَزْهوًّا بنُصرته عليهم] أفرأيتم يا هؤلاء جميعاً كيف تعرّفت الفتاة فعرفتْ أين يوجد الدم الملكىّ . فالآن من منكم يجرؤ فيقول إنى لست ابن أبى ؟ [يتحدث إلى جان] أما أنتِ فإذا أردت تتويجى فى رانس فعليك بالتحدّث فى هذا إلى المطران لا إلىّ . وها هو [وكان المطران خلفها] .

جان : [تدور على قدميها فى سرعة إلى المطران وقد هيمنت عليها عاطفة شديدة] مولاى [تسقط أمامه على ركبتيها وتحنى رأسها وتخشع له

فلا تستطيع أن ترفع إليه بصرها] مولاى ، أنا لستُ إلا فتاة ريفية قليلة القدْر مسكينة ، وأنت رجل جليل الخطر ، قد حباك الله بالغَمْر الكثير من بركته ومجده ، فبالله عليك إلاّ مَسَسْتنى بيديك وباركْتنى بما باركك الله .

ذو اللحية الزرقاء : [يهمس إلى لتريمى] ان الثعلب الشيخ قد احمرّ خجلا .

لتريمى : تلك إذاً معجزة أخرى !

المطران : [يرقّ لما قالت الفتاة فيضع يده على رأسها ثم يقول] أى بنيتى ، إنك تخلصين لله الدين ، وتُحبّين الإيمان حب صدق ويقين .

جان : [تفزع وترفع بصرها إليه] أأنا هكذا ؟ إنى لم أفكّر قط فى هذا فهل فى حب الدين ضير ؟

المطران : ليس فى حب الدين أضرار يا بنيتى ولكن فيه أخطار .

جان : [تنهض وقد شعّ فى وجهها اغتباط ينمّ عن قلة تقدير للمخاطر] إن الأخطار فى كل شىء وفى كل مكان ، إلا الجنة . أى مولاى ، لقد مَنحتَ القوةَ نفسى ، وبثثت الجرأة والإقدام فى

قلبي . ألا ما أجمل وما أمتع أن يكون المرء مطرانا .

تفتر ثغور القوم عن ابتسامات عريضة ، تصل أحياناً إلى ضحكات مكتومة مسموعة] .

المطران : [يستقيم فى وقفته وقد رق حسه واضطرب اتزانه مما جرى] أيها السادة ، إن فى شدة إيمان هذه الفتاة لزجراً لكل ما بدا فيكم من خفة وطيش . إنى لست إلا رجلا ضعيفاً حقيراً ، وكان الله فى عونى ، ولكن هذه البسمات والضحكات خطيئاتٌ مُهلكات .

[تستقيم الوجوه ويسود السكون] .

ذو اللحية الزرقاء : مولاى ، ما كنا نضحك منك بل منها .

المطران : ماذا تقول ؟ انكم لا تضحكون منى أنا الضعيف العاجز ولكنكم تهزأون بإيمانها ! اسمع ياجل دى راى Gilles de Rais ، إن هذه الفتاة تنبأت بأن السبّاب الكفّار يغرق بخطيئته .

جان : [تجزع حتى تضيق عن السكوت] لا ! لا !

المطران : [يُسكتها بإشارة] وأنا الآن أتنبأ بأنكَ ستُشنَق بخطيئتك إذا أنت لم تتعلّمْ متى تضحك ومتى تصلى لله[1] .

---

(١) شنق ذو اللحية الزرقاء فعلا بعد ذلك وقد مر ذكر هذا .

ذو اللحية الزرقاء : مولاى . إنى خجلٌ وآسفٌ على ما كان فماذا أصنع فوق ذلك ؟ ولكنك إن تنبأتَ بأنى لابد مشنوق فهذه النبوءة ستقَرّ دائماً فى خاطرى وستغرينى بمدّ يدى إلى الحبال ، وسأقول لنفسى دائماً إن كان لا بد من الشنق ، فليكنْ موتى فى جَمَل ، لا فى حَمَل [1] .

[يتشجع القوم عند هذه ، ويعودون إلى الضحك كَبْتاً] .

چان : [وقد ساءها ما حدث سوءاً كبيراً] إنك ياذا اللحية الزرقاء رجل لا نفع فيه ولا رجاء . إن من الوقاحة الكبرى ردَّك القولَ على المطران .

لاهير : [يقول والضحك الشديد يغلبه] أحسنتِ أحسنتِ يا فتاة . أحسنتِ أحسنتِ والله .

الفتاة : [تقول للمطران فى ضجر وجزع] مولاى ، لِمَ لا تصرف هؤلاء السخفاء عنى حتى أستطيع أن أتحدث وحدى إلى الدوفين ؟

لا هير : [فى انبساط] أنا تكفينى الإشارة عن العبارة [ثم هو يرفع يده بالسلام ويدور على عقبيه ثم يخرج]

---

(١) يعنى ان كان لا بد من الشنق فليشنق فى ذنب كبير لا فى ذنب صغير . وفى القرون الوسطى كانوا يشنقون سارق الشاة .

المطران : هيّا بنا أيها السادة . إن الفتاة جاءت تحمل بركة الله فأطيعوها .

[يخرج الكل ، بعضهم من الباب الخفىّ ، و بعضهم من الجنب المقابل له . ويمشى المطران عَبْرَ القاعة إلى الباب يتبعه لتريمى وزوجته الدوقة . وعند ما يمر المطران بچان تسقط على ركبتيها وتقبّل طرف كسائه قُبُلاتٍ حِرار ، فيهز المطران رأسه بحكم الطبع رافضاً ما تفعل ، و يجذب كساءه منها ويذهب ، فتظل راكعة حيث هى ، فتسدّ بذلك الطريق على الدوقة إلاّ أن تَحِيد]

الدوقة : [فى برود] من فضلك خلّينى أُمُرّ .

چان : [تنهض سريعاً وتتراجع عن موضعها] طبعاً تفضلى يا سيدتى وتقبّلى معذرتى .

[تمر الدوقة وتظل چان تنظرها ، ثم تسأل الدوفين همساً] .

چان : أهذه ملكة ؟

شارل : لا ، ولكنها تحسب أنها ملكة .

چان : [تعود فتنظر الدوقة من ورائها] أُوه [وكانت الدوقة فى لباس فاخر قد حدّد خطوط جسمها ، فلما صاحت چان من العَجَب الذى أخذها لم تكن صيحتها كلها إعجاباً] .

لتريمى : [يقول للدوفين فى توكيد كثير] أرجوك ياصاحب

السمو أن تتكرم فلا تعود إلى السخرية بزوجتى [يخرج وقد سبقه الآخرون إلى الخروج]

چان : [إلى الدوفين] من هذا الرجل الفظ الغليظ ؟

شارل : هو دوق لتريمى .

چان : وما عمله ؟

شارل : يدّعى أنه يقود الجيش ، وكلما وجدتُ صديقاً عزيزاً علىّ قتله .

چان : ولِمَ تأذن له فى قتله ؟

شارل : [يضيق صدره ، فيتوجه من القاعة إلى ناحية العرش هرباً من جاذبيتها] كيف أمنعه ؟ إنه يتهدّدنى . إنهم يتهدّدونى جميعاً .

چان : أتخافهم ؟

شارل : نعم أخافهم ، ولا فائدة من وعظك إياى فى هـذا . إن العراك ليس من شيمتى ، وهو لا بأس به فى هؤلاء الرجال الضخام ، فهم يستطيعون لُبْسَ هـذه الدروع التى تثقل علىّ ، وحملَ هذه السيوف التى تنوء بها يدى ، ولهم عضل قوىّ ، وصوت صيّاح ، ومزاج غضوب مُنكَر . فهم يحبون القتال . فإن قعدوا عنه اشتغلوا بالسخافات وأزْرَوا بأنفسهم ما داموا عنه قاعدين . ولـكنى هادئ الطبع عاقل ، فلا أريد قتل الناس ، وإنما

أريد أن أُتْرك وحدى أستمتع بالحياة على نحو ما أهوى . إنى قطّ ما طلبت أن أكون ملكا وإنما غُصِبتُ على الولاية غصباً . فإن كنتِ حضرت إلىّ لتدعونى إلى القتال — إن كنت وفدتِ علىّ لتهتفى بى : « قمْ يا ابن سانت لويس فتقلّدْ سيفك وسرْ بنا قُدُماً إلى النصر » ، فرجائى إليك أن تَفِرى عليكِ أنفاسك لتبرّدى بها طعامك ، فما أنا بقادرٍ على ذلك . إنى لم أُخلَق لهذا وكفى .

چان : [تجيبه فى إمرة وبعزم قاطع] نحن كلنا مثلك عند البداية . ولكنى سأبُثّ الجرأة فيك .

شارل : ولكنى لا أريد أن تَبُثى الجرأة فىّ . إنى أودّ النوم فى فراش وثير تحوطه الطمأنينة والسلام ، وأكره العيش المضطرب والخوف الدائم من أن أُقتَل أو أجرَح . بُثّى الجرأة فى غيرى ، وأعطيهم من الحرب حتى يطيبوا ، ولكن دعينى وحدى فالوحدة هنائى .

چان : لا فائدة من كل هذا ياشارل . لابد أن تنهض لما اختارك الله له . إنك إن أخفقت فى المُلْك ، لم تجد وراءك غير الشّحاذة ، فما أنت بأهلٍ لصناعة غيرها . فهَلُمَّ ، هلمّ إلى العرش فاجلسْ عليه وأَرِنى كيف تكون فوقه ، فقد طالما اشتقت إلى رؤيتك فيه .

شارل : وماذا يُغنى جلوسى على العرش وغيرى ممن رأيت يأمر وينهى على هواه . ومع هذا [يجلس على العرش فلا يملؤه ولا يملأ العين ، ويستدر مرآه الرحمةَ من كل راء] فهذا هو الملكُ فانظريه ، واملئى عينك من هذا الزرىّ الحقير .

جان : إنك ياصبىّ لستَ بعدُ ملكا ، فأنت لا تزال الدوفين . احذرْ أن يَفُتّ فى عضدك ما تسمع من القوم حولك . إن الملابس الجميلة والكُسَى الفاخرة لا تملأ فراغ الرؤوس الخاوية . إن لى خبرة بالناس ، بالناس الأصيلين ، برجال الشعب الذين يصنعون لك خبزك ، فاعلمْ منّى أن هؤلاء لا يَعُدّون رجلا ملكا إلاّ أن يُصَبّ الزيت المقدّس على رأسه ، وإلا أن يُنصَّب ويُتوَّج فى كتدرائية رانس . إنك رثّ الثياب ياعزيزى شارل فما بال الملكة لا تُعنَى بك كما ينبغى ؟

شارل : نحن فقراء جدا ، والملكة فى حاجة إلى درهم تقتصده لتستر به ظهرها . وعدا هذا فإنى أحب أن أراها جميلة الثياب ، ولا أبالى ما ألبس أنا . على أن منظرى قبيح دائما لبستُ أو لم ألبس .

جان : أنا ألمح فيك بعض الخير ياشارل ، ولكنه لم يصل بعدُ أن يكون جديرا بملك .

شارل : سنرى ما تأتى به الأيام . إنى غبيّ المظهر ، ولـكن قلبى ليس فيه كل هذا الغباء . إن عينىّ مفتوحتان وقلبى بصير ، فصدّقينى إذا قلت لك إن معاهدةً واحدة طيّبة خيرٌ من عشر انتصارات فى الميدان . إن هؤلاء القوم الذين يحاربون يخسرون فى المعاهدات ما يكسبونه فى المحاربات ، فياليت لنا من الإنجليز معاهدة واحدة ، إذن لخسروا فيها كل الخسران ، لأنهم فى صراع الأجسام خير منهم فى صراع العقول .

چان : إنْ غَلَب الإنجليز فالمعاهدة منهم ولهم ، ولفرنسا رحمة الرحمن من بعد ذاك . لا بد من الحرب يا شارل فحاربْ راغباً أو مُرغَماً ، وسأتقدّمك لأقوّى قلبك . لم يبق لنا الآن إلا الإقدام ، فلنُمسك عليه بيدينا كلتيهما خشية أن يُفلِت منا ، ولْندعُ الله فى صلواتنا للمزيد منه بيدينا كلتيهما كذلك .

شارل : [ينزل عن العرش ويمشى عَبْرَ القاعة مرة أخرى هرباً من لجاجتها الغالية] أرجو أن تكُفّى عن ذكر الله والصلوات ، فإنى أضيق ذَرْعاً بمن يَدْعون دائماً ويصلّون . ألاَ يكفينا غمّاً أنّا نأتى الصلاة رغما فى أوقاتها .

چان : [ترقّ له وترثى] يا صبيّ يا صغير يا مسكين ، إنك لم

تصلِّ قط فى حياتك . إنى سأعلّمك الصلاة من البداية .

شارل : أنا لست صبيّا ، بل رجلا نامياً كاملا ، ووالدا ، وقد فُتُّ دور التعلّم فلن أتعلّم الآن شيئاً .

چان : أى نعم ، إن لك ولداً صغيراً سيكون من بعدك لويس الحادى عشر ، أفلا تحارب من أجله ؟

شارل : لا . إنه ولد قبيح . إنه يكرهنى . إنه يكره كل الناس ، ولا يحب البهيمُ الأنانىُّ إلا نفسه . إنى لا أريد أن أُعنَى بالأطفال . لا أريد أن أكون أبا ، ولا أريد أن أكون ابناً ، لا سيما ابنا لسانت لويس . إنى لا أريد أن أكون شيئاً من كل تلك الأشياء الجميلة الفاخرة التى تملأون بها رؤوسكم ، وإنما أريد أن أكون كما أنا . فلِمَ لا تقْصرون أنفسكم على أموركم ، وتدَعونى أُعْنَى كيف أُعنَى بأمر نفسى ؟

چان : [تعود إلى احتقاره] ما عنايتك بأمر نفسك إلا كعنايتك بأمر جسدك ، هى أخصر الطرق إلى العلة والسأم . وما أمر نفسك ؟ وما أمر نفسى ؟ أمرى أن اعين أمى فى البيت ، وأمرك أن تدلّل الكلاب وتمصّ عيدان الحلوى . إنى أسمّى هذا لغواً باطلا . فاعلم أننا هنا لإنفاذ أمر الله لا أمرنا . وعندى من الله رسالة إليك ، أنت لابد مُصغٍ اليها ولو طار قلبك منها هلعاً .

شارل : إنى لا أريد رسالة ، ولكن هل عندك علمُ الأسرار وإتيانُ الكرامات ؟ أتُبْرئين المريض وتُصحّين العليل ؟ أتستطيعين قلب الرصاص ذهباً أو شيئاً من هذا القبيل ؟

چان : إنى أستطيع قلبك ملكا ، فى كتدرائيـة رانس . وتلك معجزة ستكون على ما أرى غيرَ هيّنة .

شارل : إذا نحن ذهبنا إلى رانس ، وكان هناك تتويج ، فستحتاج آنْ[1] Anne إلى ملابس جديدة ليس فى وسعى شراؤها . أما أنا فيكفينى ما أنا عليه .

چان : ما أنت عليه ؟ وما هذا ؟ إنه دون ما عليه أحقر راعٍ فى خدمة والدى . إن لك أرضَ فرنسا إرثاً حلالا ، ولكنك فى حكم الشريعة لا تملكها حتى تُتَوَّج ملكا .

شارل : إنى فى حكم الشريعـة لن املَّـكَها على أية حال . فهل يدفع التتويج عنى ديونى ويفك عنى رهونى . إنى رهنت آخر فدان إلى المطران وإلى هذا الغِطريس السمين . إنى مدين حتى لذى اللحية الزرقاء .

چان : [فى غيرة و إخلاص] شارل . إنى من الأرض أتيت ،

(١) آن اسم زوجته .

وعلى الأرض عَمِلت ، ومن العمل فيها كسبت قوّتى . فاعلم أن الأرض لك لتحكمها بالعدل وتحفظ فيه سلام الله ، لا لترهنها كما ترهن أمّ سكّيرة ملابس أولادها . إعلم أنى جئتك من عند الله لآمرك بالركوع فى كتدرائية الله ، وأن تعلن فيها فى خشوع أنك تخرج عن ملكك لله إلى أبد الآبدين ، لتصبح بعد ذلك سيد الملوك على هذه الأرض بأنك عبد الله وجنديّه ورسول الله وخليفته . عندئذ يصبح كل الذى بفرنسا مقدّساً حتى ترابها ، ويصبح جندها جند الله ، وعُصاتها الدُّوقاتُ عصاةً لله . وعندئذ ترى الإنجليز عندك يَخِرّون إلى الأذقان خُشّعاً يرجونك الإذن لهم أن يعودوا فى سلام إلى بلادهم التى شرعها الله لهم . أفاعل أنت ما أرجوه ، أم تفعل بى ما فعل يهوذا فتخوننى وتخون من بعثنى ؟

شارل : [ينجح فيه الإغراء أخيراً] أوّاه ! من لى بالجرأة فأجيب إلى ما تطلبين !

چان : الجُرأة ! أنا أَجْرُؤ ، ثم أجرؤ ، ثم أجرؤ ، فى سبيل الله . أفمعى أنت أم علىّ ؟

شارل : سأخاطر وليكن ما يكون . إنى أحذّرك من الآن إنى قد تخور عزيمتى أثناء السبيل ، ولكنى على كل حال سأخاطر .

والآن انظرى ما أفعل [يجرى إلى الباب الكبير و يصيح] هلمّوا جميعاً ! عودوا إلىّ جميعاً ! [يرجع جارياً إلى الباب الخفىّ المقابل وهو يقول لچان] لا تتركينى ، والزمى جانبى ، وامنعيهم أن يتهدّدونى . [يصيح من الباب الخفىّ] تقدموا جميعاً ! كل البلاط ! [يجلس على كرسى الملك ، بينما هم جميعاً يسرعون إلى الوقوف فى أماكنهم حيث كانوا أولا ، وتشتد فيهم جلبة الأحاديث ويكثر بينهم التسآل والتعجب] . والآن جاء دورى لأصطليها ، ولكنى لا أبالى ، وهأنذا أرمى بنفسى فيها . [إلى الحاجب] أنت يا ابن البهيم صِحْ فيهم بالسكوت لا أبالك !

الحاجب : [يختطف رمحاً من حارس كما فعل أولا ، ويخبط بزُجّه الأرض مراراً] سكوتاً لجلالة الملك ! سكوتاً فالملك يتكلم ! [بإمرة] سكوتاً يا من هناك [يسود السكون] .

شارل : [ينهض] لقد أعطيت قيادة الجيش إلى الفتاة ، فالفتاة تتصرف بالجيش كيف تشاء [ينزل عن المنصة] .

[يسود على القوم العجب . ويُسَرّ لاهير وينتشى فرحا ويضرب بقفّازه على فخذ درعه ، وهى من الفولاذ] .

لتريمى : [يتجه إلى شارل مهدّداً] ما هذا ! إنى أنا قائد الجيش .

[يَهُمّ شارل بطبعه إلى التراجع ، فتسرع چان فتضع يدها على كتفه تطميناً وتثبيتاً . فيجتهد شارل فى جمع كل شجاعته وحشْد كل عزمه للظهور بالقوة ، فيسفر مجهوده عن إسراف كثير إذ يقصف بأصبعيه فى وجه كبير أمنائه] .

چان : حسبك هذا جواباً أيها الفظ الغليظ [ثم تَفْجؤها الخاطرة بأن ساعتها دَنَتْ ، فتَمتشق سيفها خَطْفَ البرق ثم تصيح] من منكم لله ولفتاته ؟ من معي إلى أرلين ؟

لاهير : [وقد أخذته صيحتُها فسلّ سيفه] لله ولفتاته ! إلى أرلين !

[تسقط چان على ركبتيها شكراً لله ، فيسقط الكل معها ، إلاّ المطران فإنه يبارك عليهم بإشارته ، وإلاّ لتريمى فتخور قواه ويسبّ ويلعن] .

المنظر الثالث

[فى أُرلين ، فى التاسع والعشرين من عام ١٤٢٩ . ودُنْوا Dunois ، وهو رجل فى السادسة والعشرين من عمره ، يذرع الأرض بخطاه يمنة ويسرة فى قطعة أرض على الجانب القبلى من نهر اللوار الفضىّ ، وقد أشرف منها على مسافات بعيدة على طول النهر من جهتيه . وكان قد ربط بأعلى رمحه راية قليلة العرض طويلةً مستدقّة الطرف ، وكانت تجرى ريح شرقية قوية ، فجرت الراية مجراها . وحمل دنوا فى يده عصا القيادة فى الجيش . وكان قوىّ البنية ، فحمل درعه على جسمه حملا سهلا . واستعرض جبينُه ، ورقّ ذقنه وتدبّب ، فبدأ وجهه كمثلث تساوت أضلاعه . وبالرغم من صغر سنه ظهرت فى هذا الوجه خطوط ، خطّها خدمة الجيش وتحمّل التبعات ، وبدت عليه سِمَاتٌ تُنبئ عن قلب طيب ونفس قديرة لا تعرف التصنع بالكذب ولا تتعلق بالأوهام . وكان تابعه الصبىّ جالساً على الأرض ، ومرفقاه على ركبتيه ، وخداه على جُمْع كفّيه ، وهو ينظر الماء مُتَلهيا . وكان الوقت مساء . وكان الرجل والصبى كلاهما متأثرين بجمال النهر]

***

دونوا : [ينقطع عن السّير برهة ويرفع فيها بصره إلى الراية وهى تجرى مع الريح فيهز رأسه سأما ثم يستأنف خطاه] ريح الدّبور !

ريح الدبور ! ريح الدبور ! ريحَ الغرب يافاجرة ، لَعوبٌ أنتِ عندما نريدك جادّة ، وجادةٌ أنت عندما نريدك لعوباً . ريحَ غربٍ فوق فضّةِ اللِّوارِ . . . ما القافية التى تنسجم مع اللوار ؟

[يعود فينظر إلى الراية ويَهُزّ بجُمْع كفّه إليها] تغيَّرى أيتها الريح عليك لعنة الله . أيتها الريح الإنجليزية العاهرة ، هُبّى من الغرب ، من الغرب هُبّى يافاجرة . ياريحا مؤنّثة ، ياريحا مخنّثة ، ياصليبة الرأس ياخائنة العهد ، ألَنْ تهبّى من وراء الماء أبداً ؟

الصبىّ : [ينهض فجأة] انظر ! انظر ! هناك ! هناك !

دنوا : [يقطع عليه الفزع أفكاره ويسأل فى شوق شديد] أين ؟ من ؟ الفتاة ؟

الصبىّ : لا ، بل الطائر السَّماك[1] يطير خطفاً كالبرق الأزرق . لقد دخل فى هذه الشُّجيرة الكثيفة .

دنوا : [وقد خاب رجاؤه فغضب] أهـذا كل ما عندك يا غبىّ بالعين . تُحدّثنى نفسى والله أن أرمى بك فى هذا النهر .

الصبى : [لايخاف من تهديد سيده ، لأنه يعلم أنه لن يفعل] إنه جميل

(١) طائر صغير جميل المنظر طويل المنقار قصير الرجلين والذنب أخضر الجناحين أزرق الظهر أحمر الصدر . ومن عادته السكون الشديد حتى إذا وجد صيده فى الماء انطلق إليه بغتة كانطلاق السهم .

فى زرقته الخاطفة . انظر ! فهذا طائر آخر !

دنوا : [يجرى فى رغبة إلى حافة النهر] أين ؟ أين ؟

الصبىّ : [يشير بيده] يَفُوت القَصَب (١)

دنوا : [فَرِحاً] نعم أراه أراه .

[يتبعان الفرخ الطائر حتى يدخل حيث لا يريانه] .

الصبى : إنك عنّفتنى بالأمس لمّا فاتك أن تراه .

دنوا : قد علمتَ أنى كنت أنتظر الفتاة لما أفزعتنى بصريخك . إنك إن فعلت هـذا مرة أخرى فسأريك كيف يكون الصريخ .

الصبىّ : ما أجمل هـذه الطيور ! ودِدت لو قَدَرتُ على صيدها .

دنوا : إن رأيتك تصيدها وضعتك فى قفص من حديد شهراً كاملا لأذيقك طعم الأسر . إنك غلام شرير بغيض .

الصبىّ : [يضحك ثم يعود إلى جِلسته الأولى] .

دنوا : [يعود إلى خُطاه] .

يا طـــائراً يا أزرقا دفعتُ عنـك الموبقا

فانصرْ صديقاً صادقاً جنّبـــك المزالقـا

وغـــيّر الريحَ لَهُ

(١) كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوباً .

تغيرت القافية . هذا لا يُغنِى .

ياطـــائراً ياأزرقا دفعت عنـك الموبقـا

فانصر صديقاً صادقاً جنّبــك المزالقـا

فصـار فَذْماً فاسقا

قافية طيبة ولكنّ الكلام هراء [يجد نفسه لِصْقَ الصبىّ] أيها الغلام اللعين [يرجع عنه ويسير] .

ياطائراً يامَلِك الطيورِ يا خير سمّاك على الغدير

أطلقْ لنا منافذ الدّبور

صوت حارس جهة الغرب : قف مكانك ! من أنت ؟

صوت چان : الفتاة

دنوا : دعها تمرّ . إلىّ هنا يافتاة ! إلىّ !

[تدخل چان مسرعة تتّقد غضباً ، وعليها درع فاخرة . عندئذ تسكن الريح وتتدلّى الراية على الرمح وتخفُق خفقاً هيّناً . ولا يلحظ دنوا ما حدث لاشتغاله بچان] .

چان : [فى غير تحرّج] أأنت ابن الفاعلة ، قائد أُرْلين ؟

دنوا : [يحتفظ بحلمه ، ويجيب فى شدة وقوة مشيراً إلى تُرسه] هذى شارة النُّغولة[1] أفَلا ترينْها ؟ وأنتِ ، أأنت چان الفتاة ؟

---

(١) فساد النسب . والنغيل ابن الزنا .

چان : نعم أنا هى .

دنوا : وأين جنودك ؟

چان : ورائى بأميال عـدّة . إنهم خدعونى فجاءوا بى إلى هذا الشاطئ وقد كنت أريد ذاك .

دنوا : إنى أوصيتهم بذلك .

چان : ولم هذا ؟ إن الإنجليز على الشاطئ الآخر .

دنوا : إن الإنجليز على الشاطئين جميعاً .

چان : ولـكن أرلين على الشـاطئ الآخر ، ونحن ننازلهم هناك . فقل لى كيف نعبر النهر .

دنوا : [فى عبوسة] إن على النهر جسراً .

چان : إذن فبالله إلاّ عبرنا النهر ووقعنا عليهم .

دنوا : هذا أمر ظاهره سهل ولـكنه محال .

چان : من يقول هذا ؟

دنوا : أنا أقول هذا . ويقول هذا رجالٌ أسنّ منى وأحكم .

چان : [فى صراحة وبغير مداراة] إذن فاعلم أنهم رجال أغبياء بُلَهاء ، ضحكوا عليك أوّلا ، وهم يريدون أن يضحكوا الآن علىّ فيأتوا بى إلى الجانب الخاطئ الأبعد من النهر : أتدرى أنى جئتك بِمَدَد لم يجئ مثله إلى قائد أو بلد أبداً ؟

دنوا : [يبتسم مصابرة] أهذا مدد منكِ أنت ؟

چان : لا ، ولـكن مدد من الله رب السموات والأرض . أين الطريق إلى الجسر ؟

دنوا : أنتِ قليلة الصبر يا فتاة .

چان : وهل هـذا أوان الصبر ؟ العدوّ على الأبواب ونحن هنا عاطلون لا نعمل شيئا . قل لى بالله لماذا لا تحاربون ؟ أخائف أنت ؟ إذن فدعنى أطرد الخوف من قلبك وأطهرك تطهيرا .

دنوا : [يضحك مِلْءَ فيه ويلوّح لها مُنكِرا] لا ، لا ، يا فتاتى . إنكِ إن نزعت الخوف من قلبي صرتُ فارسا بطلا كبعض فرسان الأقاصيص ، وصرت شر قائد للجيش . تعالى معى وتعلّمى أول درس فى الجنديّة . [يأخذها إلى حافة الماء] . أترين هاتين القلعتين فى آخر الجسر ؟ هاتين القلعتين الـكبيرتين ؟

چان : أهُمَا لنا أم للإنجليز ؟

دنوا : اسكتى وأنصتى ! إنى لو كنت فى قلعة منهما فى عشرة رجال لصمدتُ فيها لجيش كامل . والإنجليز لهم فيهما عشرات العشرات يحمونهما منا .

چان : ولـكنهم لن يحموهما من الله . إن الله لم يعطهم هذه الأرض التى عليها القلعتان . فهم سرقوها من الله بغيا وعدوانا .

إن هذه الأرض أعطاها لنا الله ، فلابد لى من أخذ هاتين القلعتين .

دنوا : وحدك ؟

چان : رجالنا يأخذونهما وأنا أقودهم .

دنوا : لن يتّبعك من الرجال أحد .

چان : لن أنظر ورائى لأرى هل اتّبعنى من الرجال أحد .

دنوا : [يدرك ما بها من شجاعة صادقة فيربّت على كتفها فى إعجاب كثير] هذا منكِ جميل . إنكِ قد سُوِّيت من طينة يُسوَّى منها الجنود . إنك تُغرَمين بالحرب .

چان : [تَجفِل] أوه ! ولكن المطران قال إنى أُغرَم بالدِّين .

دنوا : عفا الله عنى ، فأنا أيضا مغرم بعضَ الإغرام بالحرب على قبحها ودمامتها . إنى كرجل ذى امرأتين ، فهل تريدين أن تكونى كامرأة ذات بَعْلَين ؟

چان : [فى بساطة ساذجة] أنا لن يكون لى بعلٌ أبداً . إن رجلا فى تُول Toul قاضانى لأنى نقضت وعدى بزواجه ، وأنا ما وعدته أبداً . إنى جندىّ ، ولا أحب أن يرى الناس فىّ امرأة ، وسوف لا أتردَّى زىّ النساء أبداً . إنى لا أحب ما يحبه النساء . إنهن يحلمن بالرجال ويحلمن بالمال ، وأنا أحلم بالطِّراد أقوده ، وبالمِدفع الكبير أسدّده . إنكم أيها الجند لا تحسنون استخدام

المدافع الـكبيرة . إنكم تحسبون أنكم تنتصرون بأصواتها الداوية وأدختها الـكثيفة .

دنوا : [بهزة من كتفه] هذا حق . إن المدفعية فى الأكثرية لا تساوى همّها .

چان : ولـكنك يا غلامُ لن تقاتل حوائط الحجر بالخيل . لابد لك من مدافع ، ولابد لك من مدافع أكبر كثيراً مما تخال .

دنوا : [يبتسم لرفعها الـكلفة بينهما ، ويردّ عليها بأسلوبها] نعم يا غلامة ، ولـكنّ المرء بقلب مَكين ، وسُلّم متين ، يتسلّق أصلد الحوائط حجراً .

چان : وسأكون أولَ صاعدة على السُلّم وصاعد ، إذا نحن بلغنا القلعة ، وإنى أتحدّاك يا نَغْلُ [١] أن تَتْبعنى .

دنوا : ليس لكِ أن تتحدَّىْ ضابطا من أركان الحرب يا چان فضباط المشاة وحدهم هم المأذونون فى إظهار شجاعة ، أو إيغال فى جسارة [٢] . وعدا هذا ، فأنا أرحّب بك لقد استك لا لجنديتك فالجنـد المَرَدَة المغامرون لدىّ منهم كفايةٌ ، إذا دعوتُ لبُّوا . ولـكنهم لن يغنونى شيئاً .

چان : إنى لست ماردة ، بل جارية من جوارى الله .

---

(١) فاسد النسب .

(٢) ضباط أركان الحرب هم الموكلون بإدارتها من وراء الصفوف .

وسيفى مقدّس : وجدته وراء المذبح فى كنيسة القديسة كترينة ، فهناك خبّأه الله لى ، وليس لى أن أضرب به رقبة واحدة . إن قلبي ملئ شجاعةً لا غضباً . سأقود فيتبعنى رجالك وهذا كل ما أستطيعه ، وهو لابدّ واقع ، وأنت لا تستطيع ردّه .

دنوا : كل شيء موقوت بأوانه . إن رجالنا لا يستطيعون أخذ القلعتين بغارة يُغيرونها على الجسر فلا بد لهم من عبر النهر ، وعندئذ يأخذون الإنجليز من مؤخرتهم على هذا الشاطئ .

چان : [ينشط فيها حسها العسكرى] إذن فأقِمْ على النهر عوّامات ، وضع عليها المدافع الكبيرة ، ومُرْ رجالك أن يعبروا إلينا .

دنوا : العوّامات مُقامة ، والرجال عليها ، ولكنهم ينتظرون كلمة الله .

چان : ماذا تعنى ؟ إن الله فى انتظارهم .

دنوا : إذن فسليه أن يرسل إلينا ريحاً ، فسفائنى فى أسفل النهر لا تستطيع مغالبة الماء والهواء معاً ، فلا بد من الصبر حتى يغيّر الله الريح . هيّا أصحبك إلى الكنيسة .

چان : لا . إنى أحبّ الكنيسة ، ولكن الإنجليز لا يلينون للصلوات ، ولا يفهمون غير الدق الواجع والضرب اللاسع . فلن أذهب للكنيسة حتى يُغلَبوا .

دنوا : لا بد أن تأتى معى ، فلى لُبانة عندك تقضينها هناك .

چان : أىّ لُبانة ؟

دنوا : تدْعِين لنا الله أن يأتينا بريح غربية . إنى دعوته ، ووهبت الكنيسة شمعدانين من الفضة ، ولكن الله لم يجب دعوتى . أما دعوتك فلعلها تجاب ، لأنك صغيرة ، ولأنك بريئة .

چان : أى نعم صدقت ، فسأصلى وأطلب فى صلواتى الى القديسة كترينة أن تشفع لى عند الله فيأتينى بريح من الغرب ، فهيّا بنا وأسرع ، وأرنى الطريق إلى الكنيسة .

الصبىّ : [يعطس بشدة] اتْشُو ! !

چان : يرحمك الله ياصبى ! هلمّ يا نَغْلُ بنا !

[يخرجان وينهض الصبىّ لاتباعهما ، فيرفع الترس من الأرض ، ويعرّج على الرمح ليأخذه فيلحظ أن الراية فوقه تجرى الآن نحو الشرق] .

الصبى : [يُسقط الترس من يده وينادى وراءهما فى اهتياج] سيدى . سيدى . آنِستى . آنستى .

دنوا : [يعود جارياً] ماذا ؟ الطائر السّماك ؟ [ينظر صوب النهر عسى أن يجد الطائر] .

چان : [وقد لحقتْ بهما] أوه ! الطائر السَّمَّاك ؟ أين هو ؟

الصبى : لا . لا . بل الريح . الريح [وهو يشير إلى الراية] . إنه هو الذى عطّسنى .

دنوا : [ينظر إلى الراية] تغيّر الريح ! [يصلّب على نفسه] جاءت كلمة الله ! [ينزل على ركبته ويعطى عصاه إلى چان] إليك قيادة جيش الملك فقوديه ، وأنا جندى من جنودك .

الصبي : [ينظر أسفل النهر] تحرّكت السفائن ، وهى تمخر الماء مخراً .

دنوا : الآن إلى القلعة . لقد تحدَّيْتِنِى أن أتبع ، فأنا الآن أتحدَّاكِ أن تقودى ، فهل تَجْرُئِين ؟

چان : [تنفعل فتجرى دموعها غزاراً ، وترمى بذراعيها حول دنوا وتقبل خدّيه] . دنوا ! يا أخى فى السلاح ، أَعِنّى على ما أنا فيه . إن الدموع أعمت عينى ، فعلى السلَّم فضعْ قدمى ، وقلْ دونك فاصعدى يا چان .

دنوا : [يخرج ويجرّها معه] كَفْكِفِى الدّمْعَ وهيَّا إلى المِدفع رعدِه وبرقِه .

چان : [فى سَوْرة من الشجاعة] آه !

دنوا : [يجرّها معه] فى سبيل الله والقديس دُونِى Denis !

الصبي : [بصوت حاد رفيع] فى سبيل الفتاة ! فى سبيل الفتاة ! فى سبيل الله والفتاة ! [يختطف الترس والرمح ويقفز وراءهما ، وقد جُنّ اهتياجا] .

المنظر الرابع

[خيمة فى معسكر الإنجليز . وقسٌّ إنجليزى غليظ العنق شديده ، فى الخمسين من عمره ، قد جلس على مقعد إلى خوان ، وانهمك فى العمل انهماكا شديداً . وقُبالتَه فى الطرف الآخر من الخوان ، جلس رجل من الأشراف ذو بِزَّة ومهابة فى كرسى فخم ، وأخذ يقلّب صحائف كتاب للأدعية مزوّق . وهو فى عامه السادس والأربعين . وبينا كان الشريف فى تلهِّيه وتسلِّيه ، كان القس يعانى من العمل ما يعانى ، على نفسٍ غير راضية وغضبٍ مكبوت . وكان على يسار الشريف كرسى من الجلد لا يَشغله أحد . وكان على يمينه الخوان] .

* * *

الشريف : هذا والله الجمال ، جمال هذه الصَّنْعة ، فليس فى الدُّنيا أجمل من كتاب جميل . أسطرٌ من سوادٍ فاحم ، قد اصطفّت فى أعمدة متباعدة عن سعة ، أحاطتها أُطُر مليحة ذات حسن ورُواء . ثم صورٌ ملوّنة مزوّقة أُدخلت فى السطور مُخالسة . هكذا تكون الكتب متعةً للبصر . إن الناس اليوم لا ينظرون إلى الكتب ليستمتعوا بِرُوائها ، وإنما هم يقرأونها ،

حتى كاد الكتاب يصير توصيةً بشَرْوَة لحمٍ أو نُخالةٍ كالتى أنت قائم فى تثبيجها .

القس : لا مندوحة لى يا مولاى إلا أن أقول إنك تنظر إلى حالنا الحاضر ، وموقفنا الراهن ، ببرود قلب شديد — ببرود قاسٍ يا مولاى .

الشريف : [فى كبرياء وقلة اكتراث] ماذا جرى ؟

القس : جرى يا مولاى أنّا معشرَ الإنجليز قد هُزمنا .

الشريف : وما ضرّ هذا ؟ إن الهزيمة تقع أحياناً ، وأُعيذك أن تجهل هذا . إن العدوّ ينهزم وينتصر ، إلا فى كتب التاريخ وفى أغانى الشعوب ، فهو دائماً مهزوم .

القس : ولكننا هُزمنا مِراراً وتكراراً . أولا فى أُرلين .

الشريف : [يهزأ منه ويصغّر مما يقول] أوه . أوه . أرلين !

القس : أعلم ما تَنْوِى أن تقول يامولاى . ستقول إن الذى وقع فى أرلين كان سحراً وكهانة ، ولكنّا لا نزال نُهزم . فى چارجو Jargeau ، فى مان Meung ، فى بوچانسى Beaugency ، فى كل هذه هُزمنا كما هُزمنا فى أرلين . والآن ذُبِّحنا تذبيحاً فى پاتاى Patay ، والسير چون طَلْبُوت[1] Sir John Talbot أسروه

(١) أسرة طلبوت من أعرق الأسر الإنجليزية يمتد نسبها المعروف إلى الفتح النورماندى .

أسراً يا مولاى [يرمى بقلمه والدمع يكاد يغلبه] . إنى أتألم لهذا الحال يا مولاى وأتألم له كثيراً . إنى لا أستطيع أن أرى رجالنا وأبناء وطننا تهزمهم ثُلَّة من الأجانب صغيرة حقيرة .

الشريف : آه !؟ أأنت إذن ممَّن يقولون بالأوطان ؟! أأنت إنجليزى ؟

القس : لا يا مولاى ، بل أنا رجل كريم . ولكنى مِثْلُ مولاى ، وُلدت فى انجلترا ، وهذا له خطره .

الشريف : أنت إذن مربوط بالأرض ؟

القس : إنه يَلَذّ لك يا مولاى أن تهزأ بى ، وأنت رجل عظيم ، وفى عظمتك تستطيع أن تفعل ما تشاء من غير ما تحرّج أو خشية . ولكنك يا مولاى تعلم كلّ العلم أنى إذا ارتبطت بالأرض فعلى غير المعنى السيء والحال الحقيرة التى يرتبط عليها العبد القِنّ بأرضه ، فيتنقل معها من يد سيد مالك إلى يد سيد مالك . إن لى بالأرض هوى [يتزايد اضطرابه] لا يستحى منه قلبى [يقف هائجاً ثائراً] ، ووالله لو جرى الحال على هذا طويلا لنهضت فنزعت عن جسمى هذه الغَفَّارة[1] ورميت بها إلى الشيطان ، ثم عطفت

---

(١) رداء القس .

على السلاح أحمله بنفسى ، ولذهبت إلى تلك الساحرة اللعينة أخنقها خنقاً بيدىّ هذين .

الشريف : [يضحك منه عن نفس طيِّبة] ستفعل هـــذا ياعزيزى القس . ستفعل هذا إذا لم نستطعْ نحن أن نفعل خيراً من هذا . ولـكن أوان هذا لم يَحِنْ بعد . لم يحنْ تماما .

[يعود القس فيجلس على مقعده ووجهه عابس كئيب] .

الشريف : [فى انبساط] ما كان لى أن أُبالى كثيراً بالساحرة . إنى حججت إلى الديار المقدسة ، فالقدرة الإلٰهية حفظاً لسمعتها الطيِّبة لن تأذن بأن تهزمنى ساحرةٌ قروية . ولـكنّ ابنَ الحرام سيِّد أُرلين بندقةٌ أعصى مكسراً ، وهو قد حجّ مثلى إلى الديار المقدسة ، فنحن فى الشرف صِنْوان ، على الأقل فى هذا .

القس : كيف ؟ ! إنه فرنسىٌّ يا مولاى !

الشريف : فرنسى ! من أين جئت بهذا الاسم ؟ أبَدَاً هؤلاء البرْجَنْـديّون والبرِيتُونيّون والپيكَرْديّون والجسكونيون (١) يسمون أنفسهم فرنسيّين ، بمثل ما بدأ رجالنا يسمون أنفسهم إنجليز ؟ إنهم يتحدثون فعلا عن فرنسا وعن انجلترا بأنها أوطانهم . أوطانهم مِلْـكا ، فانظر ما يدّعون . فإن شاع هذا القول وجرت

(١) نسبة لمقاطعات تتكون منها الآن فرنسا .

فى الناس هذه الدعوى ، وصارت بدعة العصر ، وأسلوبه المختار ، فماذا يكون مصيرى ؟ وماذا يكون مصيرك ؟

القس : كيف يا مولاى ؟ كيف يضرّ هـذا مصيرَك أو مصيرى ؟

الشريف : إن الرجال لن تخـدم سيّدين معاً . والقوم يتحدّثون عن خدمة الوطن ، فإن ملك هذا الحديث الفاسد زمامهم ، فقل السلام على سلطة اللوردات الإقطاعيّين ، وقل السلام على سلطة الـكنيسة . فعنى هذا ضياعى وضياعك .

القس : أما عن الـكنيسة فآمُلُ أن أكون خادماً مخلصاً لهـا . وأما عن الإقطاع فلا يحجبنى عن بارونيّة إستوجَمْبَر التى أنشأها وليم الفاتح[1] غير ست من أبناء الأعمام . ولـكن أفى هذا أو هذا ما يجعلنى أقف مكتوف اليدين أرى رجالنا الإنجليز يهزمهم هذا الفرنسى ابن الزانية ، وهذه الساحرة التى جاءت من البلاد القذرة بلاد شمپانيا .

الشريف : هَوْناً يا رجل هونا . إنّا سنحرق الساحرة ، وسنهزم ابن الزانية ، كلاًّ فى أوانه . بل إنى الآن لفى انتظار

(١) ملك انجلترا المعروف ولد عام ١٠٢٧ ومات عام ١٠٧٨ م .

أسقف بوفيه Beauvais لِأُدبِّر معه حرقها ، فإن حزبها أخرجه من أبرشيّته .

القس : قبل أن تحرقها يتحتم عليك يامولاى أوّلا أن تأسرها .

الشريف : أو أن أشتريها . وسأجعل لها ثمناً لا يُشتَرى به إلا الملوك .

القس : ثمنُ مَلِكٍ لهذه اللّخناء القذرة ؟

الشريف : لا بد من بَحْبَحة فى الثمن ، فبعض رجال شارل سيبيعونها للبرجنديّين ، وهؤلاء سيبيعونها لنا : وسيكون بين هؤلاء وهؤلاء على الأرجح سماسرة ينتظرون لأنفسهم جُعْلاً يسيراً .

القس : هذا غَبْنٌ فاحش . إنهم أولئك اليهود الأوغاد الذين يتدخلون كلما انتقل مال من يد إلى يد ، ولو كان لى الأمر لما أبقيت على أحد منهم فى بلد من بلاد المسيح .

الشريف : ولِمَ هذا ، واليهود يعطونك عن مالك بضاعة طيبة ؟ إنهم يُغْلُون الثمن ، ولكنهم يعطونك السِّلْعة التى تريد . فى اختبارى أن الرجال الذين يريدون شيئاً لله هم دائماً مسيحيون .

[يدخل الحاجب] .

الحاجب : صاحب النيافة أسقف بوفيـــه ، المنسنيور كُوشُون Cauchon .

[يدخل كوشون ، وله من العمر نحو الستين . ويذهب الحاجب . ويقف الإنجليزيان احتراما للأسقف] .

الشريف : [في أدب جمّ فيّاض] عزيزي الأسقف ، مجيئك إلينا تكرُّمٌ كثير . اسمح لي أن أعرّفك بنفسي . أنا رِتْشَرْد دي بوشان Richard de Beauchanp ، إرل وَرِكْ Warwick ، عند أمرك .

كوشون : اسم اللورد شهير ذائع ، ولي به علم وافر .

وَرِك : وهذا القس المحترم السيد چون دي اسْتُوجَمْبر John de Stogumber.

القس : [في ذلاقة لسان] چون بُويَرْ إسبنسر نِيفِلْ دي استوجمبر ، عند أمرك يا مولاي . بكالوريوس في الفقه ، وحافظ الخاتم الخاص لفخامة كَرْدِنال وِنْشِسْتر Winchester .

ورك : [إلى كوشون] إنكم تدعونه كردنال انجلترا على ما أحسب . إنه عم ملكنا .

كوشون : يا سيِّد چون دي اسْتُوجَمْبر : إني صديق لفخامة الكردنال دائماً أبداً [يمد يده إلى القس فيقبل القس خاتمه] .

ورك : شرّفني بالجلوس [يقدم كرسيّه إلى كوشون بعد أن يضعه على رأس الخوان] .

[يتقبّل كوشون مجلس الشرف ، وينحنى شكراً فى تجِلّة ووقار . فيذهب ورك إلى الكرسى الجلد ، فيحمله فى غير اكتراث إلى مكان جلوسه الأول ، ويجلس عليه . أما القس فيعود إلى مقعده] .

[ترك وَرِكُ مجلس الرآسة لكوشون ، وهو يقصد إلى احترامه متعمّداً ، ولكنه مع هذا يبدأ الحديث آخذاً بزمامه ، كأن هذا هو الشىء المفروض المنتظَر الذى لا ريب فيه . ويظل على ودّه وتبسّطه . ولكن نغمة جديدة تظهر فى صوته تدل على أن الحديث سيخرج عن المباسطة إلى شأن ذى بال] .

ورِك : والآن يا مولاى الأسقف قد حضرتَ إلينا فى ساعة من ساعاتنا التى يغيب فيها الحظّ عنّا . إن شارل سيُتوّج فى رانس ، ستُتوّجه على الأقرب الأصح تلك الفتاةُ التى جاءت من لورين Lorraine . ولا أُريد أن أُكْذِبك ، أو أن أُحيِيَ فيك أملا خائبا ، فاعلمْ أنّا لا نستطيع منع هذا التتويج . وأحسبُ أن هذا التتويج سيُحْدث حَدَثاً كبيراً فى مكانة شارل ؟

كوشون : بالطبع . إنها رَمْيَةٌ من رامية ذات براعة ودهاء .

القس : [يعود إلى ثورته] إننا لم نُهْزَم بالحق والإنصاف أبداً . إن الإنجليزى ، أنّى وأين كان ، لا يُهْزَم بالحق والإنصاف أبداً .

[يرفع كوشون حاجبيه قليلا ، ولـكنه يعود سريعاً إلى امتلاك نفسه والتغلب على ملامح وجهه] .

ورك : إن صديقنا هذا يرى أن الفتاة ساحرة . فإن صحّ هذا ، كان واجب نخامتك على ما أحسب أن تُعلنها بالاتهام لدى محكمة التفتيش تمهيداً لإحراقها على هذه الخطيئة .

كوشون : نعم ، إذا نحن قبضنا عليها فى أبرشيّتى .

ورك : [وقد أحس بتوفيق كبير فيما جرى بينه و بين الأسقف] بالطبع . بالطبع . والآن أحسب أنه لا يوجد شك معقول فى أنها ساحرة ؟

القس : لا شـك أبداً . إنها ساحرة من قمّة رأسها إلى أَخْمُص قدمها .

ورك : [يعاتب القس فى رفق على تدخّـله] إنّا نطلب رأى الأسقف يا سيد چون .

كوشون : إنّا مضطرُّون أن نعتبر فوق آرائنا التى نبديها هنا ، آراء المحـكمة — أو إن شئت فميولها وأهواءها — وهى محكمة فرنسية .

ورك : [مصحِّحاً] محكمة كاثوليكيّة يا مولاى .

كوشون : إن المحاكم الـكاثوليكية ، مهما تقدّس عملها

وتبارك وحيها ، ككل المحاكم تتألف من رجال آدميين . فإذا هم كانوا فرنسيين ، على نحو ما يدعوهم لسان العصر الجديد ، فهم لن يقتنعوا أبداً بأن سحراً وقع بناء على حادثة فريدة واحدة ، هي أن جيشاً إنجليزيا هزمه جيش فرنسي .

القس : كيف تقول ! ألا يقتنعون بعد أن هُزِم الرجل الأشهر السير چون طَلْبُوت John Talbot نفسُه ، وبعد أن أُخِذ فعلا أسيراً ، أسرته امرأة قَحبة قذرة ، جاءت من مزابل لورين .

كوشون : إن السير چون طلبوت جندى كاسر عنيف مخيف ، ونعلم عنه ذلك يا حضرة القس ، ولكنى لا زلت أجهل أنه قائد قدير . وإنه ليروقك أن تقول إن الفتاة قهرته ، ولكنّ فينا من يميل إلى إعطاء دُنْوا Dunois بعضاً قليلا من هذا الفضل .

القس : [بازدراء] ابن زانية أُرلين ؟!

كوشون : دعنى أذكّرك ...

ورك : [يتدخّل] أَعلمُ ما ستقول يا مولاى . ستقول إن دُنْوا غلبنى فى مُنْتَرچى Montargis .

كوشون : [ينحنى] إنى أتخذ هـذا دليلاً على أن دُنْوا قائد قدير جدا .

ورك : مولاى مثال الفضل والكرم . أما من جانبنا فإنى

أقر بأن تلبوت ليس إلا وحشا محاربا ، لا عقل له ولا حيلة ، ولعله نال جزاءه بوقوعه أسيراً فى پاتاى Patay .

القس : [يأخذ فى الاحتداد] مولاى ، إن هذه المرأة جُرِحت فى أُرلين ، أصابها سهم إنجليزى فى حلقها ، ورآها القوم تصرخ كالطفل من ألمه . فهذا جرح كان لا شك مميتاً ، ومع هذا لم تمت ، بل ظلّت تحارب به طول يومها . وردّ رجالنا كل حملة حملتها كما يفعل الإنجليز الصميمون ، ولكنها بعد كل ذلك سارت وحدها إلى حائط قلعتنا ترفع علمًا أبيض فى يدها . عندئذ تخدّر رجالنا ، وجَمدوا فى أماكنهم ، لا يستطيعون رميًا أو ضربًا . فحمل عليهم الفرنسيون وطردوهم إلى الجسر ، فلما حلّوه اشتعل ناراً ، وسقط فرمى بهم فى النهر فغرقوا فيه كتلا كتلا . فهل كان هذا عن حذق فى القيادة أتاه صاحبك ابن الفاعلة ، أم هذه النار من لهيب جهنم ، جاء بها عمل السحر وأفانين الشياطين ؟

ورك : أرجوك أن تغفر للقس چون حدّته يا مولاى . ومع هذا فهو قد عرض قضيتنا عرضاً موفَّقاً . إن دنوا قائد كبير ، ولسنا ننكر ذلك ، ولكن قلْ لى بالله لماذا لم يستطع شيئًا حتى جاءته هذه الساحرة .

كوشون : أنا لا أقول إن هذه الفتاة ليست بها قوًى

خارقة . ولكنّ العلَم الأبيض كان عليه اسم الربّ واسم أمه الطاهرة ، تقدّسَ اسماهما ، ولم يكن عليه اسم الشيطان . وأمير جيشك الذى غرق ، أظنكم تسمونه كلَزْدَه ...

وِرِك : جلَسْدِيل . السير وليم جلَسْدِيل Glasdale .

كوشون : جلسديل . أشكرك . فهذا لم يكن قديسًا ، وكثير من قومنا يظنون أنه غرق لسبّه الفتاة ، ولكفره بالطعن فيها .

وِرِك : [يبدو كأن الشك بدأ يداخله] فما الذى نستنتجه من كل هذا يا مولاى . أنستنتج أن الفتاة حوّلتك إلى دينها ؟

كوشون : لو كانت فعلتْ هذا ياعزيزى اللورد ، لما أَمِنْتُ على نفسى أَنْ أُسْلمها إليكم كما أسلمْتُها الآن .

وِرِك : [يستعيذ فى لطف] لا ! لا ! وعفواً يا مولاى !

كوشون : إذا كان الشيطان قد تقمّص هذه الفتاة ، واتّخذها حقا أداة — وأظنّه قد فعل —

وِرِك : [يعود إليه اطمئنانه] آه ! أنصتْ إلى هذا يا قسّ چون . إنى يا مولاى الأسقف قد علمت فى قرارة نفسى أنك لن تخذلنا أبداً . لا تؤاخذْنى فى المقاطعة ، وتفضلْ بالحديث .

كوشون : إذا كان الشيطان قد اتّخَذ هذه الفتاة أداة ، فإن

له والله نظرةً أثقبَ مما نحسب وأبعد مدًى مما نقدّر له .

ورك : وكيف كان ذلك بالله . أنصتْ إلى هذه ياقس چون .

كوشون : أَتُرى لو أراد الشيطان أن يقضى باللعنة على فتاة ريفية ، أَتُراه يكلّف نفسه فى سبيل هذا الغرض الهيّن كسبَ عشر وقائع وعناء حربها ؟ لا يا عزيزى اللورد . إنه غرض هيّن يستطيعه أى عفريت صغير حقير ما قَبِلَتْ الفتاةُ الضلال . أما أمير الظلام شيخ الشياطين فلا يتنزّل فى سبيل ذلك إلى كل هذا العناء . إنه إن ضرب فإنما يضرب فى قلب الكنيسة ، فى قلب الكثلكة ، فى ولاية يشمل سلطانها الرّوحىّ العالم أجمع . وهو إن لعن وأهلك فإنما يلعن ويهلك أنْفُس البشر جميعاً . فهذه خُطّته الجُلّى وغرضه الأسمى ، والكنيسة تعرف ذلك منه ، وتحذَرُه دائماً أبدا . وهـذه الفتاة أراها أداة للشيطان فى بلوغ أرَبه ، فهى ذات وَحْى ، ولكنه وَحْى الشيطان .

القس : ألم أقل لك إنها ساحرة ؟

كوشون : [فى غضب شديد] إنها ليست ساحرة ، إنها زنديقة ضالّة ، ذات بدعة ، خارجة .

القس : وما الفرق بين هذا وذاك ؟

كوشون : أنت أيها القس تسألنى عن فرق ما بين هذا

وذاك ؟ يُدهشنى معشرَ الإنجليز أن أرى فيكم هذا الغباء . إن كل هذا الذى تُسْمونه سحرا تفسيره مستطاع قريب لا تعسّر فيه ولا التواء . إن معجزات هذه المرأة لا تجوز على حمار ، وهى نفسها لا تدعوها معجزات . وانتصاراتها إن دلّت على شىء فهى تدل على أنها تحمل فوق عاتقها رأساً خيراً مما يحمله صاحبكم السبّاب جلَسْديل ، وثوركم الكاسر المجنون طَلبُوت ، وهى إن دلت على شىء آخر فهى تدل على أن قوة الإيمان فوق قوة الغضب ، ولو كان الإيمان إيمانا مكذوبا .

القس [لا يكاد يصدّق أذنيه] أتشبّه يا مولاى السير چون طلبوت ، وارثَ إرْليّة اشرُوزْبِرِى Shrewsbury ، بثور مجنون ؟ !

ورك : لا يليق بك يا سيد چون — وبينك وبين البارونية ستة يحجبونك عنها — أن تتدخل فى هذا الشأن قبولا أو رفضا . أما أنا فإرْل ، وبما أن تلبوت لم يكن إلا « سير » Sir ، فنى وسعى أن أقبل التشبيه الذى قد يسوءك [إلى الأسقف] : مولاى ، عفا الله عما قلناه فى أمر السحر والساحرة ، فاعتبر أن شيئاً من هذا لم يكن ، ولكن يبقى أن هذه المرأة لا بد من حرقها .

كوشون : إنى لا أستطيع حرقها ، إن الكنيسة لا تقتل

الأنفس التى حرّمها الله ، فواجبى الأول سعيى فى خلاص هذه الفتاة وتطهيرها .

ورك : لا شك أبدا فى هذا ، ولكنكم قد تحرقون الناس أحيانا .

كوشون : لا ، إن الكنيسة إذا أعجزها زنديق كافر عنيد ، قطعته من شجرة الإيمان كما يُقطَع الغصن إذا ذهب عنه الماء والخضرة ، وعندئذ تُسْلمه إلى السلطة الزمنية ، وهذه تفعل به ما تشاء دون أن تحمل الكنيسة من تَبِعة ذلك شيئا .

ورك : هذا بالضبط ما أعنى . وفى هذه الحالة سأكون أنا السلطة الزمنية ، فأسلمْ إلىّ يا مولاى هذا الغصن الجاف الذى فقد الخضرةَ والماء ، وأنا أهيئ له النار . تكفّلْ أنت بنصيب الكنيسة ، وأنا أتكفّل بنصيب السلطة الزمنية .

كوشون : [فى غضب مكظوم] إنى لن أتكفّل بشىء . إنكم أيها اللوردات العظام تميلون دائما إلى اتخاذ الكنيسة أداة سياسية هيّنة فى سبيل أغراضكم .

ورك : [فى ابتسام واستعطاف] لا نفعل هذا فى انجلترا ، فكن بذلك واثقا .

كوشون : فى انجلترا أكثر من كل مكان آخر .

لا يا سيدى اللورد . إن نفس هذه الفتاة الريفية تَعْدِل فى الميزان نفسك و نفسَ ملـكك عند الله . وأول واجبى خلاصها . ولن آذن لك أن تبتسم لما أقول كأنى إنما أقول خرَفا ، أو كأنما كان مفهوماً بيننا أنى سأخون أمانة هذه الفتاة . إنى لست أسقفا سياسيا فحسب ، وإن إيمانى منى فى الموضع الذى فيه شرفك منك . فأنا لو لمحت خُرقا صغيراً تُفلت منه هذه الفتاةُ بنتُ الله ، المعمّدةُ طفلةً باسم الله ، لما قعدتُ عن هدايتها إليه لتنفذ منه ولو زحفاً إلى النجاة .

القس : [ينهض فى اهتياج] أنت خائن .

كوشون : [يقفز على قدميه] إنك يا قس تكذب . [يرتعد غضباً] إنك إذا فعلتَ ما فعلتْ هذه المرأة ، فوضعتَ بلادك فوق الكنيسة الكاثوليكيّة المقدسة ، فستذهب معها إلى النار .

القس : مولاى . إنى ، إنى أنا قد جاوزت الحدّ [يجلس ويشير إشارة المستسلم] .

ورك : [يكون قد توقع شرا فوقف] مولاى ، إنى أعتذر إليك عن الكلمة التى قالها القس چون دى استوجمبر . إن معناها فى انجلترا غيرُ معناها فى فرنسا ، فلفظة خائن فى لغتكم معناها رجل خدّاع غدّار لا يحفظ عهداً ولا يرعى ذمة ، أما فى بلدنا

فهى تعنى فى كل بساطة رجلا لا يُخلص كل الإخلاص لمصالحنا الإنجليزية .

كوشون : إنى متأسف ، فقد كنت أجهل هذا [يهبط فى كرسيه فى وقار] .

ورك : [يعود فيجلس مغتبطاً بانفراج الأزمة] وفيما يخصنى أنا ، أودّ أن أعتذر إن كنتُ استهنتُ بحرق هذه الفتاة المسكينة . إن قلب الجندىّ منّا يقسو ويتصلّد عندما يرى مناطق من الأرض كاملة تُحَرَّق المرَّةَ بعد المرَّةَ ، فى برود قلب واطمئنان بال ، على أنها جزء عادى من واجبات حربية وخُطَط يوميّة دورية لا بد من نفاذها . ولولا قسوة القلب هذه ، ولولا تصلّده ، لجنّ المرء منّا جنونًا ، أو على الأقل لجننتُ أنا . فهل لى أن أتجرّأ فأفرض أن مولاى أيضاً حاله كحالى ، وأنه من كثرة ما اضطُرَّ إلى شهوده من حرق الزنادقة حيناً بعد حين ، أصبح مضطرًّا إلى النظر إلى هذه الحوادث البشعة نظرة المرء إلى واجب معتاد هيّن مألوف .

كوشون : نعم إنه واجب أليم ، بل هو كما تصف بشيع ، ولكنه لا يُقارَن ببشاعة الزندقة . والذى يَهُمّنى من الفتاة ليس جسمها ، فالجسم يتألم بُرُهات ، وهو مهما امتدّ به الأجل صائرٌ

إلى الموت على حال فيها ألم قد يَزيد وقد يَنقص ، ولكن الذى يَهُمّنى روحُها ، فهى قد تتعذّب إلى أبد الآبدين .

ورك : هذا حق لا مِرَاء فيه ، فَلْنَدْعُ الله أن تنجوَ وتخْلُص روحها . ولكنى إخال أن العقدة التى تتطلب منا حلًّا ممكناً مستطاعا عاجلا هى كيف نفعل لنخلّص روحها دون تخليص جسمها ، فلا بد يا مولاى من مواجهة الحقيقة المنذِرة ، فالدين الذى ابتدعته هذه الفتاة لو انتشر لَضِقْتُمْ به وضِقْنا .

القس : [يتكلم فينفلق صوته كأنما كان يبكى] أتأذن لى فى الكلام يا مولاى ؟

ورك : الحقُّ يا قسّ چون أنى أفضّل أن لا تتكلم ، إلا إذا استطعت كظم غضبك .

القس : لا أريد أن أقول إلا هذه الكلمة ، وإن أنا أخطأت فصحِّحونى . إن هذه الفتاة يملؤها الغرور ، وهى تدّعى الصلاح والتقوى ، وهى تُكثر الصلوات وتُقرّ بالخطيئات حتى لا نهاية لصلواتها واعترافاتها ، فكيف تستطيعون اتهامها بالزندقة وهى تقوم بجميع فروضها ، كما تفعل ابنة صالحة من بنات الكنيسة . ؟

كوشون : [يأخذ فى الحدّة] ابنة صالحة من بنات

الـكنيسة ! إن البابا فى أكثر الساعات إعجاباً بنفسه لا يجرؤ على ادّعاء ما تدعيه هـذه المرأة . إنها تفعل كأنها هى الـكنيسة ذاتُها ، وتأتى برسالة الله إلى شارل . والـكنيسة يجب أن تفسح لها الطريق . وهى ستتوجه فى كتدرائية رانس . هى هى التى تتوجه لا الـكنيسة . وهى تبعث بالـكتب إلى ملك الإنجليز بأن يصدع بأمر الله الذى أُوحِىَ إليهـا ، فيعود إلى جزيرته وإلّا حاق به غضبُ الله . وهى هى التى ستحيق به غضب الله . ألا فاعلموا أن إرسال هذه الـكتب هكذا عادةٌ جرى عليها قديمًا محمد عدوّ المسيح . واذكروا أنها فى كل ما تقول لا تذكر الـكنيسة بكلمة ، فقولها دائمًا فى نفسها وفى الله .

ورك : وماذا تنتظر غير هذا من شحّاذة إذا هى امتطتْ جوادا ؟ إن رأسها دارت كأنما سُقِيَتْ خمرا .

كوشون : إنه الشيطان دار برأسها ، ولسببٍ جَلَلٍ فعل هذا . إن الشيطان يبذر بذور الزندقة فى كل مكان ، فمنذ ثلاث عشرة سنة قام رجل اسمه هوس[1] Hus فى بوهيميا فأعدى الناس

---

(١) مصلح دينى ولد فى بوهيميا حول عام ١٣٧٥ م ، وأحرق حيا من أجل تعاليمه فى ٦ يوليه عام ١٤١٥ . كان عميدا لـكلية الفلسفة فى پراج ، ثم رئيساً للجامعة كلها . واشتد انتقاده للبابا فطرده من الـكنيسة مرتين . وكان يرى الرجوع فى الدين إلى الإنجيل وحده .

بهـا فأُحرِق من أجلها . وفى انجلترا قام رجل قس مرسومٌ اسمه وكليف[١] Wcleef ، فنشر الوباء فيها ، فتركتموه يموت فى فراشه حَتْفَ أنفِه فكسبتم بذلك عارا . وهنا فى فرنسا قوم من هؤلاء أعرفهم من سيماهم ، وأتبين جنسهم من لُقياهم . إنهم كالسرطان إذا هو لم يُقطع ، إذا هو لم يُقلع ، إذا هو لم يُدعَق ويُحرَق ، فإنه يتمدّد ثم يتمدّد حتى يملأ جسم المجتمع الإنسانى كله بالخطيئة والفسـاد ، بالوبال والخراب . وبمثل هذا قام عربىّ جمّال فطارد المسيح وكنيسة المسيح ، حتى طردهما جميعًا من أورشليم ، ثم مضى يضرب فى الأرض فيبث الفزع والخراب فيها ، حتى إذا بلغ مغربها قام جبل الأبواب[٢] دونه وقامت رحمة الله ، وحيل بين فرنسا وبينه ، فنجت من لعنة الله . فماذا صنَع هذا الجمّال العربى فى بداية أمره أكثر مما صنعت

---

(١) يقصد لا شك بهذا الاسم ويكلف Wycliffe ، وإنما أورده على صورة خاطئة جريا مع لسان المتحدث وهو فرنسى . أما الرجل فهو چون ويكلف ، ولد فى انجلترا عام ١٣٢٠ ومات عام ١٣٨٤ . وتعلم فى أكسفورد ، واختير رئيساً لـكلية بليول فيها ، ودرس اللاهوت وعلّمه . ولما قامت الخصومة بين ادوارد الثالث ملك انجلترا والبابا ، ناصر ملـكه على البابا . وكتب كتباً شديدة فى البابا وانتقد الأساليب الدينية الجارية فى ذلك العصر انتقادا مرا ، وشاعت تعاليمه فى أوربا وقامت بنصيبها فى إحداث الثورة الإصلاحية الدينية العامة ، وحاكمه البابا مرتين فحمته الملـكية الانجليزية ومات حتف أنفه ، إلا أنه فى عام ١٤٢٨ ، أى بعد وفاته بأربعة عشر عاما ، حوكم ميتا ، وحكم على تعاليمه بالفساد ، ثم نبش قبره وأحرقت رفاته .

(٢) هى جبال البرينيه Pyrenees فهكذا كانت تسميها العرب .

هذه الفتاة ؟ جاءه الوحى من جبريل ، وجاءها من القديسة كترينة والقديسة مرغريت والمبارك ميخائيل . وأذّن فى الناس بأنه رسول الله ، وكتب الكتب إلى ملوك الأرض باسم الله . وكُتُبها لا تفتأ تصدر للملوك كل يوم ، وإليها يجب أن نتوجه نحن بالشفاعة الآن ، إلى العذراء چان ، لأن العذراء أم الله . إن بالكنيسة ذخيرةً من علم وحكمة وخبرة تجمعتْ على السنين والقرون ، وبها مجالس من حكماء علماء بررة أتقياء ، فماذا يكون حال هذه الدنيا إذا التقى بكل هذا التراث فى المزارب والمزابل ، كلما قام عامل أجير جاهل ، أو قامت فلاّحة حلاّبة للبقر نَفَخَها الشيطان بالغرور الفادح فألهمها أنها يوحَى إليها من السماء ؟ عندئذ تصبح الدنيا معتركا تتناطح فيه الرؤوس الغاضبة ، وتسيل فيه الدماء سا كبة ، فكل رجل وما تقدر عليه يداه . ثم تصبح الدنيا خرابا يبابا . وتحل البربرية محل المدنية . إنّا والحمد لله الآن بخير ، فليس فى الدنيا إلا محمد ومخدوعوه ، وإلا الفتاة چان ومخدوعوها ؛ ولكن كيف يكون الحال إذا خالت كل فتاة أنها چان ، وخال كل رجل أنه محمد . إنها حال تُفزعنى فزعا لا فزع فوقه ؛ حال حاربت كل حياتى لاتقائها ، وسأحارب لاتقائها ما بقى من أيامى . إنا نغفر لهذه المرأة كل خطاياها إلا هذه ، فهى

خطيئة فى حق الرّوح القُدُس . إنها إذا لم تتنصّلْ من دعواها ، وإذا هى لم تستغفر منها على الملأ وأنفُها راغم ، وإذا هى لم تخرج عن كل قيراط من روحها الى الكنيسة ، اذا هى لم تفعل كل هذا فإلى النار مأواها لو وقعتْ يوماً فى يدى .

ورك : [لا يتأثر بالذى قيل] أنت شديد التأثر من هذا الأمر بطبيعة الحال .

كوشون : ألستَ كذلك ؟

ورك : أنا رجل حرب لا رجل دين . وقد حججت إلى بيت الله المقدّس ، ورأيت بعضاً من أتباع محمد ، فلم أجدهم من سوء الأدب بالمكانة التى أفهمونيها قبلا ، بل وجدت لهم أدبا لا يقل من بعض الوجوه عن أدبنا .

كوشون : [يستاء مما قيل] لقد لاحظتُ هذا من قبل : أنّ رجالا يذهبون إلى الشرق لينصّروا الكفار ، فلا يلبثون أن ينقلبوا هم كفاراً . إن الجندى الصليبيّ يعود من الشرق وهو نصف شرقىّ مسلم . دعْ أن الإنجليز جميعاً زنادقة من يوم يولدون .

القس : الإنجليز زنادقة !!؟ [يستغيث بورك] مولاى ، كيف نصبر على هذا ؟! إن مولاى الأسقف ضاع عقله . كيف يكون ما يعتقده الإنجليزى زندقة . إنه تناقض فى اللفظ .

كوشون : إنى أعفو عنك ياقس بناء على جهالةٍ فيك مُطْبِقة . إن جو بلادك الكثيف لا يُنَشِّئ الفقهاء .

ورك : إنك ما كنت لتقول هذا لو أنك شَهِدْتنا نتجادل فى الدين يا مولاى . وإنه ليعرونى الأسف أن تظن بى إما الزندقة وإما الغباء ، لا لسبب سوى أنى طوّفتُ فى البلدان فعرفتُ فيما عرفتُ أن أتباع محمد يحترمون المسيح احتراماً ظاهراً شديداً ، وأنهم فى تسامحهم أقرب أن يغفروا لبطرس القديس أنه كان سمّاكا ، من أن تغفر أنت يا مولاى لمحمد أنه كان جمّالاً . أكثيرٌ ياسيدى أن أطلب منك أن نأخذ على الأقل فيما نحن فيه الآن بغير تعصّب وضيق ذهن .

كوشون : إن الرجل إذا سمّى غيرتى الكنسيّة وحَميّتى المسيحية تعصباً فقد تحلّلْتُ فى أمره وظننتُ فيه الظنون .

ورك : إنْ هُمَا إلا رأيان فى شىء واحد ، أحدهما شرقىّ ، والآخر غربىّ .

كوشون : [يتهكم فى مرارة] شرقى وغربى ! ليس إلا !

ورك : يا مولاى الأسقف ، إنى لا أناقض ما تقول . إن الكنيسة لا شك ستتبعك ، ولكن لا بد لك أن يتبعك الأشراف

أيضًا ، وفى رأيى أن فى الإمكان اتهامَ الفتاة تهمةً هى أشد من التهمة التى شرحتَها هذا الشرح القوىّ . إنى أُفضِى لك بقول صريح : إنى لا أخشى أن تنقلب هذه الفتاة محمداً ، أو أن تَحُلَّ محل الكنيسة بسبب زندقة كبرى . إنك تبالغ فى خطرها . ولكن قل لى هل وجدتَ فيما تبعث الفتاة به من الكتب إلى ملوك أوروبا أنها تعرض عليهم صفقة سبق أن عرضتْها وفرضتْها على شارل ، صفقةً لو أنها تمت لهدّتْ كِيان المجتمع فى كل بلد من بلاد المسيح .

كوشون : لهدّت كيان الكنيسة . وهذا ما أقوله لك .

ورك : [وقد بدأ ينفَدَ صبره] مولاى ، أتوسل إليك أن تُخرج الكنيسة من رأسك وأن تنساها ساعة من الزمان ، وأن تذكر أنه إلى جانب المؤسّسات الروحية الدينية ، توجد مؤسّسات زمنية دنيوية . إنّى أنا وأشرافى نمثّل الارستقراطية الإقطاعية بقدر ما تمثل أنت الكنيسة . نحن السلطةُ الزمنية . أفلا ترى كيف أن الفتاة تضرب فى الصميم منا ؟

كوشون : لا أدرى كيف تضرب فى الصميم منكم ، إلا بمقدار ما تضرب فى الصميم منا جميعاً بضربها الكنيسة .

ورك : إنها ترى أن يُعطِى الملوك مُلكهم لله ، وأن يحكموا

من بعد ذلك فى هذا المُلْك خلفاء لله .

كوشون [فى غير اهتمام] : هذا فى الفقه صحيح يا مولاى ، ولكن الملوك لا تكاد تهتم لشيء أو تتورّع عن أمر ما حكمتْ . إنها فكرةٌ نظرية بحتة ، أسلوبٌ من أساليب الكلام .

ورك : لا ، لا ، أبدا . إنها حيلة ماكرة مؤدّاها خلع الارستقراطية وإحلال الملوك محلها يحكمون مُطلَقين كما يشاءون . فبدل أن يكون الملكُ الشريفَ الأولَ بين أشراف ، يصبح سيّدَهم ومالكَ أمرهم . فهذا لا نقِرّه نحن معاشر الأشراف ، ولن ندعو رجلا سيّدا فينا أبدا . إننا نتسلم أراضينا ومراتبنا من الملك ، ولكن بالاسم لا فى الواقع . وذلك لأنه لا بد لكل حَنيّة من حجر أوسطَ تستند إليه ، وتجتمع حَجَراتها كلُّها عليه ، والملك الحجر الأوسط للمجتمع الإنسانى . ولكنا نملك أراضينا بأيدينا ، ونحميها بسيوفنا وسيوف مؤاجرينا . وتعاليم الفتاة تقضى بأن يأخذ الملِك أرضنا ، يأخُذُ أرضاً نحن أصحابها ، فيَهبُها لله ، والله يعود بعد ذلك فيهبها جميعاً للملِك .

كوشون : وهل أنتم تخشَوْن هذا ؟ إنكم أنتم تخلقون الملوك : يورك York ، أو لنكستر Lancaster فى انجلترا ، لنكستر أو فَلْوَا Valois بفرنسا ، كلها تحكم على هواكم .

ورك : نم هذا حق ما تَبِـعَ الناس أشرافهم الإقطاعيّين ، وما ظل الناس لا يعرفون من مَلِـكهم إلا تلك المظاهر التى يُطوّف بها بينهم حينا بعـد حين ، لا يسألهم حقا أو خراجا إلا تلك الطرقَ السلطانية التى يعتلـكها الناس أجمعين . أما إذا اتجهت أفكار الناس إلى الملك ، واجتمعت قلوبهم عليه ، وأصبح لُورداتهم فى أعينهم للملك خُدّاما ، استطاع الملك عندئذ أن يكسرنا على ركبته واحدا واحدا ، فلا يكون منا إلّا وُصَفاء فى بلاطه ، نَلْبَس الـكُسَى ونقف فى الردهات مستجيبين لدعواته .

كوشون : لا أزال أقول إنه لا داعى للخشية يا مولاى ، فمن الناس من يولدون ملوكا ، ومن الناس من يولدون ساسة ، وقلّ أن يجتمع المَلِك والسائس فى فرد واحد . فأين يجد الملِك ساسة ناصحين ، يخطّطون له وينفّذون ، إلا فيكم ؟

ورك : [يبتسم ابتسامة ليست كلها ودّا] لعـــله واجدهم فى الـكنيسة يا مولاى .

[يبتسم كوشون ابتسامة مُرّة كابتسامة صاحبه ، وهو يهز كتفيه ولا يناقضه] .

ورك : اقصموا ظهور البارونات ، يَخْلُ الجوُّ للكردنالات .

كوشون : [يعود للترضى فيخفض من صوته فى المناقشة] مولاى ،

إنّا لن نَقهر الفتاة إذا نحن تخاصمنا فيما بيننا ، وعمِلْنا على مناوأة بعضنا بعضا . إنى أعلم كل العلم أن الدنيا بها كَلَبٌ على السلطان ، وأعلم أنه ما دام هذا فلا مندوحة عن نزاع بين الإمبراطور والبابا ، ونزاع بين الدوقات والساسة من الكردنالات ، ونزاع بين الملوك والبارونات . إن الشيطان يفرّق بيننا ، ثم هو يحكم من دوننا . إنى أراك للكنيسة غيرَ صديق ؛ أنت إرْل أوّلا وآخرا ، بمثل ما أنا كَنَسِىٌّ أولا وآخرا . ولكن أفى هذا ما يمنع أن ننسى ما يفرّقنا ، وأن نجتمع كلانا على عدوّ واحد ، هو عدوّ لنا وعدوّ لكم . أرى الآن أنه لم يكن فى نفسك أنّ الفتاة لم تذكر الكنيسة وذكرتْ نفسها والله ، بل كان فى نفسك وأمضّها أنّ الفتاة لم تذكر الأشراف بل ذكرت نفسها والملك .

ورك : نعم هذا ما كان بنفسى . ولكنّ الفكرتين إن اختلفتا فرعا ، فقد اتحدتا أصلا . وهذا أصل يضرب فى الأصول إلى حد بعيد يا مولاى . وهذا الأصل هو رفْضُ روحِ الفردِ واحتجاجُها أن يتدخل بينها وبين الله شريف أو قس . ولو أنى صُغْتُ له اسما لقلت الرافضيّة أو البروتستانية .

كوشون : [يرشقه بنظره] إنك تفهمها فهماً مدهشاً فى جَودته يا مولاى . حُكَّ رأس الإنجليزى ينكشفْ لك عن بروتستانى .

ورك : [يقول متصنعا غاية التأدب واللطافة] لا أظنك تخلو كل الخلو من عطف على الفتاة فيما ابتدعته من زندقة تمس السلطة الزمنية ، فأنا أترك لك أن تجد لها اسما أكثر توفيقاً يا مولاى .

كوشون : قد أسأتَ فهماً يا مولاى . فما بى عطف على ما ادعته الفتاة صلفاً من دعاوى سياسية ؛ ولكنى قسّ عرف فى سبيل مهنته شيئاً عن عقول العامة وكيف تعمل . وإنك لواجد فى هذه العقول فكرة أخرى غاية فى الخطورة ، لا أدرى كيف أعبّر لك عنها . فكرة تجد معناها فى قولهم : فرنسا للفرنسيين ، وانجلترا للإنجليز ، وإيطاليا للإيطاليين . إنها فكرة توجد فى الريف ، يتمسك بها الريفيون فى تعصب وضيق ذهن شديد يبلغ أحياناً حد الخصومة المرة بين القرية والقرية . من أجل هذا يدهشنى أن تستطيع هذه الفتاة القروية أن تسمو عن مبدإ القرية : أنّ القرية للقَرَويين . فإنها حقا تستطيع أن تسمو ، بل هى قد فعلت . فهى لمّا تهدّد بطرد الإنجليز من أرض فرنسا تقصد لا شك بذلك كل الأرض التى ينطقون فيها بلسانها . فعندها أن جميع من يتكلمون اللغة الفرنسية يؤلّفون ما يسميه الإنجيل شعبا أو أمة واحدة . فلك أن تسمى هذا الجانب من زندقتها قومية إن شئت ، فأنا لا أستطيع أن أجد لك كلمة خيرا

منها . ولكنى أستطيع أن أؤكد لك أنها فكرة يناقض جوهرها الكاثوليكية ، ويناقض المسيحية ؛ فالكنيسة الكاثوليكية لا تعرف إلا أمة واحدة هى أمة المسيح ، وإلا دولة واحدة هى دولة المسيح . فإن أنت قسمتها أمما وشعوبا فقد خلعت المسيح . وإن أنت خلعت المسيح ، فمن ذا يحول بين السيوف والرقاب ؟ إذن لوقعت الحروب واختلطتْ ، وحقَّ على الدنيا الفناء .

ورك : إذن هان الأمر بيننا ، فاحرقْ أنت البروتستانيين ، أحرقْ أنا القوميين . ولو أن القس چون قد لا يوافقنى على هذه الأخيرة ، فانجلترا للإنجليز تجدُ هوى فى قلبه .

القس : بالطبع انجلترا للانجليز ، إنها من البداهة بمكان . إنها قانون الطبيعة الأبسط . ولكن هذه المرأة تجحد انجلترا فتوحاتها الشرعية التى منحها الله إياها لِمَا خصّها الله به من القدرة على حكم شعوب دونها مدنية . وهى إنما تحكمهم لخيرهم . إنى لا أفهم يا سيدى ما تعنيان ببروتستانى وقومى ، فعلمكم لا يدركه قس صغير مثلى . ولكنى أعلم حقيقة بسيطة واقعة يفهمها كل الناس ، هى أن هذه الفتاة ثائرة خارجة ، وكفى بذلك عندى علما . فهى قد ثارت على الطبيعة فلبست ملابس الرجال ، وحاربت كما يحارب الرجال . وهى قد ثارت على الكنيسة فاستلبتْ من البابا

سلطته الربانيّة استلابا . وهي قد ثارت على الله لمّا عاهدت الشيطان ومن اتبعه من أرواح خبيثة على هزيمة جيشنا . وهي قد اتّخذت من كل هذه الثورات سبباً يؤدى بها إلى ثورتها الكبرى ضد انجلترا . فهذا لايمكن احتماله ، فأَعْدِموها ، وحرّقوها ، ولاتدعوها تنال بالوباء سائر القطيع . إن من الحكمة قتلَ امرأة لخلاص الناس .

ورك : [ينهض] مولاى ، يظهر أننا قد اتفقنا .

كوشون : [ينهض أيضا ولكن فى احتجاج] إنى لن أُورد روحى موارد الهلاك . إنى سأقضى بما يقضى به عدل الكنيسة ، وسأفرغ جهدى لنجاة هذه المرأة .

ورك : إنى أعطف على الفتاة المسكينة . إنى أكره القسوة ، وسأصرف عنها السوء إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

القس : [وقد بقى على غضبه] إنى لو استطعت لحرقتها بيدىّ هاتين .

كوشون : [يباركه] جهالة قسيس ، أو حماقة قديس ، فاغفرْها له يا رحمن .

المنظر الخامس

[ممشى فى كتدرائية رانس ، بجوار الحجرة التى يغيّر فيها رجال الكهنوت ثيابهم . وبالممشى عمود عليه صورة من آلام المسيح يصلى عندها المصلون . والأرغون يعزف حتى يخرج الناس جميعاً من صحن الكنيسة بعد أن تُوِّج الملك . وتكون جان عاكفة على صلاتها أمام العمود وهى فى لباس فاخر جميل ، ولكنه لباس رجل لا أنثى . ثم يخرج دُنْوَا من حجرة الثياب إلى الممشى فى زى فخم جميل أيضاً . عندئذ يسكت الأرغون] .

* * *

دُنْوا : هيّا بنا ياجان ، فقد كفاك صلاة . إن البرد لا شك مصيبك إذا أنت لَبِثتِ طويلاً هنا بعد هذا البكاء الشديد . قُضِى الأمر كله الآن . فرغت الكنيسة من الناس ، وامتلأت بهم الشوارع ، وهم يَدْعون الفتاة أن تظهر فيهم . لقد قلنا لهم إنك باقية هنا وحدك للصلاة ، ولكنهم يصرون على أن يروك مرة أخرى .

جان : لا . دعوا الملك يقطف ثمَرَ هذا المجدِ كله .

دنوا : عفا الله عنه ، إنه مسكين ضعيف ، وظهوره يفسد هـذا المنظر الجميل . لا يا چان ، أنت توّجْتِه ، فلا مندوحة لك عن بلوغ الغاية من ذلك .

چان : [تهز رأسها فى تردد] .

دنوا : [يرفعها من ركبتها] هيّا بنا هيّا . إن كل شىء ينتهى فى ساعتين . حدّثينى ، أليس هـذا خيراً مما وقع على الجسر فى أرلين ؟

چان : أى عزيزى دُنْوا ، كم وَدِدتُ لو عاد الجسر وعادت ساعة الجسر مرة أخرى . فعلى هذا الجسر ذقنا الحياة .

دنوا : أى والله ، وعليه ذقنا الموت أيضاً — ذاقه بعضنا .

چان : إنى أعجبُ لحالى يا چاك : أجبن كل الجبن وأمتلئُ بالذعر قبل الواقعة ، حتى إذا خمدت نارها ، وانقشع غبارها ، وتولّت عن الدنيا مخاطرها ، سئمتْ نفسى العيش وعِفت الحياة .

دنوا : إنك تُقِلّين الطعامَ والشراب ، فتعلّمِى الإقلالَ من الحرب أيضاً يا قدّيستى الصغيرة .

چان : عزيزى چاك ، أحسب أنك تحبنى كما يحب الجندىّ رفيقه .

دنوا : أنت فى حاجة إلى محبتى يا مسكينة ، يا بنت الله ، يا ساذجة . فليس لك فى البلاط أحباب كثيرون .

جان : لا أدرى لماذا تُبغضنى بطانة الملك ، وكل هؤلاء الفوارس الأشراف ، ورجالُ الكنيسة . ماذا صنعتُ لهم ؟ وماذا سألتُ لنفسى منهم ؟ ما سألت إلا أن تُعفَى قريتى من ضرائب الحرب ، لأننا فقراء لا نُطيقها . لقد جئتُهم بالنصر بعد الهزيمة ، وأطلعتُ لهم نجم السعد بعد أفوله . وقوّمت أمورهم بعد أن جاءوا من الأعمال بكل مُعْوجّ سخيف . وتوّجتُ شارلَ فصار مَلِكا صِدْقا . وأعْطَى الرتبَ ، وفرّق الألقاب ، فذهبت كلها فيهم . فلماذا لا يحبوننى ؟

دنوا : [يحاول أن يَذهب بالقنوط عنها] يا بلهاء ! أتحسبين أن رجالاً أغبياء بُلَداء يحبونك لأنك كشفت الغطاء عن مناقصهم ؟ أيحب ضبّاطُ حربٍ شيوخٌ خاوون خطّاؤون ، ضباطاً أحداثاً موفّقين ، حلّوا من الجيش حيث كانوا يَحُلّون ؟ أيحب رجالٌ سياسيون قدماء أمّالون ، رجالاً سياسيين مُحْدَثين ، نافسوهم فى مقاعدهم الأولى فى البرلمان فنفسوهم ؟ والمطارنة ، أتحسبينهم يقفون صامتين راضين مغتبطين إذا خادعهم مخادع

عن مذابحهم فى كنائسهم ، ولو كانوا أطهاراً قديسين ؟ ولِمَ نذهب بعيداً ، فهذا أنا ، ما كان أحقّنى بالغيرة منكِ لو كنت مِطماعا أمّالا .

چان : إنك يا چاك فى هذه السلّة كلّها خيرُ ما فيها . إنك صديقى الأوحد من بين هؤلاء الأشراف جميعاً . إن أمك لا بد قد جاءت من الريف . إنى إلى الريف سأعود بعد أخذ باريس .

دنوا : لست موقناً إيقانَك بأنهم سيأذنون لك فى أخذ باريس .

چان : [مرتاعة] كيف تقول !؟

دنوا : لقد كنتُ أخذت باريس أنا نفسى من قبلُ ، لو كان الكلّ فى أخذها صادقين مخلصين . أكبر ظنى أن فئةً منهم تجد أحبَّ إلى نفسها أن تأخذك باريس . فاحذرى ، ثم احذرى .

چان : چاك ، إن الدنيا هذه خبيثةٌ خبثاً لا أطيقه . فإذا لم يهلكنى الإنجليزُ والبرجَنْدِيُّون ، أهلكنى الفرنسيون . إنى لولا أصواتى التى أسمع لَضَعُفَ قلبى وملأه القنوط . ومن أجل هذا تسلّلتُ خُفيةً إلى هنا بعد التتويج أهرع بصلاتى إلى الله

وحدى . أنصتْ إلىّ يا چاكُ أُخبرْكَ خبراً . إنى فى هذه الأجراس أجراسِ الكنيسة أسمعُ أصواتى . إنى لم أسمعها اليوم لمّا دقت الأجراس كلها معاً ، فما كان هذا إلا صَخَبًا صاخباً . ولكنى أسمع أصواتى فى العادة هنا فى هذه الزاوية إذا دقت الأجراس وجَلْجلتْ ، وتنزّلتْ أصداؤها علىّ من السماء فلجّتْ وترنّمت . وقد أسمعها فى الحقول تأتى من بعيد ، تخترق إلىّ هواءها المديد ، وهدوءها الصامت الشديد [تدق ساعة الكنيسة ربع الساعة] صهْ ! [يعتريها ذهول] أتسمع ؟ « عزيد . . . زَتى . . . يا بذ . . . تَ الله » . بالضبط كما دعوتَنى . فإذا دقت نصف الساعة قالت الأصداء : « سيـ . . . رى . . . قُدُ . . . ما » . فإذا جاءت ثلاثة الأرباع قالت : « أنا . . . فى . . . عَوْ . . . نِكِ » . ولكنها عند تمام الساعة عندما يدق الجرس الأكبر تقول : « فَـ . . . رَنسا . . . يُنْجيـ . . . ها الله » . وعندها تأتى القديسة مرغريت ، وأحياناً القديسة كترينة — حتى المبارك ميخائيل يأتى أحياناً — فيقولون لى أشياء لا أستطيع أن أتنبأ بها . وعندها ، أىْ وعندها . . .

دنوا : [يقاطعها بحنوّ ، ولكنه لا يشاركها شعورها] وعندها يا چان يستمع الإنسان فى جلجلة الأجراس ما يخال . إنى أخاف عليكِ كلما سمعتك تحدثين عن هذه الأصوات . ولقد كدت أظن

فيك مسًّا من خَبَل لولا أنى أراك تأتينى بعلل معقولة مقبولة لـكل ما تصنعين . ومع هذا أسمعك تقولين لغيرى إنك فى الذى تصنعينه إنما تطيعين السيدة القديسة كترينة .

چان : [تقول وهى غَضْبَى] إنى أصطنع لك العلل اصطناعا ، لأنك لا تؤمن بأصواتى . ولـكن الأصوات تجيئنى أولاً ، والعلل تجىء بعدها ، فصدّق ما بدا لك .

دنوا : أغضبت يا چان ؟

چان : نعم . [تبتسم] لا ، لن أغضب منك . لَوَدِدْتُ أنكَ صبىّ رضيع من صبية القرية .

دنوا : لمـاذا ؟

چان : إذن لاستطعت أن أحضنك وأناغيك ساعة .

دنوا : فأنتِ إذن لا يزال بك شىء من أنوثة المرأة .

چان : لا . لا شىء مطلقاً . فأنا جنديّة محاربة ليس إلاّ . والجنود يحتضنون الأطفال كلما أمكنتْ فرصة .

دنوا : هذا حق [يضحك] .

[يخرج الملك شارل من حجرة الملابس بعد أن بدّل زيه ، ويكون لاهير على يمينه وذو اللحية الزرقاء على يساره . عندئذ تتوارى چان فى سرعة خلف العمود ، ويبقى دنوا فيقع بين شارل ولاهير] .

دنوا : ها قد أصبحتَ يا صاحب الجلالة بعد دهان الزيت ملكا متوَّجًا ، فكيف تجد حالك الآن ؟

شارل : ما أودّ أن يعود ما كان ، ولو صرتُ به إلى عرش الشمس والقمر . ألَا ما أثقل هاتيك الكُسَى والحُلَل ! لقد وضعوا على رأسى ذلك التاج فكدت أنوء تحته . والزيت المقدس الشهير الذى تحدثوا عنه كل هذه الأحاديث ، كان زَنِخًا فاسداً . أُف . والمطران لا شك أنه مات الآن إعياء ، فحُلَلُه لا شك وَزَنَت طنًا . لقد تركته فى حجرة الملابس يتعثّر فيها .

دنوا : [فى جفاء] عليك يا صاحب الجلالة أن تكثر من لُبس الدروع ، فعندها تَخِفّ عليك الكُسَى الثقيلة .

شارل : نعم . نعم . هاتِ من تلك الغمَزات القديمة . ولكنى لن ألبس الدروع فالحرب ليست شيمتى . أين الفتاة ؟

چان : [تخرج من خلف العمود إلى ما بين شارل وذى اللحية الزرقاء ، ثم تركع على] مولاى . قد نصّبْتُك ملكا فاكْتملَ واجبى ، فأنا عائدة إلى حقل أبى .

شارل : [يندهش ، ولكن يحس كأن أزمة قد تفرّجت] آه ! أحقًّا تذهبين ؟ إذن تحسنين صنعاً .

[تنهض چان وقد ملأها اليأس] .

شارل : [يتمادى غير عابىء] إن حياة الحقل حياة فيها الصحة والعافية .

چان : ولكن فيها السآمة والوخامة أيضاً .

ذو اللحية الزرقاء : وتعودين إلى أثواب النساء ، غلائلهن ومجاسدهن ، فتتعثرين فيها بعد ترك طويل .

لاهير : وسيشوقك القتال ، وهو عادة قبيحة ، ولكنّه متعة كبرى ، وهو فى العادات أشدّها تأصّلاً فى النفس وأصعبها استئصالاً .

شارل : [يأخذه القلق] ومع هذا فنحن لا نودّ أن نُبقيك معنا ، إذا أنتِ رغبت حقًّا فى الذهاب إلى أبيك .

چان : [فى ألم] أنا أعلم حق العلم أنه ليس فيكم من يأسف على ذهابى [تعطى ظهرها لشارل ، وتخطو أمامه ذاهبة إلى المكان الأرحب الأحنّ : إلى جيرة دنوا ولاهير] .

لاهير : أما أنا ، ففى غيبتكِ أستطيع السبّ إذا أردته . ولو أنى سأفتقدك وأشتاقك أحياناً .

چان : لاهير ، أنت برغم ما تقترفه من سبّ وخطيئة ستلقانى فى الجنة ، فأنا أحبك كحبى كلبى العجوز حارسِ غنمى پيتو . إن پيتو يقتل الذئب لو أراد . وأنت تظل تقتل الذئاب

الإنجليزية بإذن الله حتى يعودوا إلى بلدهم فيصبحوا كلاباً خيّرين من كلاب الله . أأنت فاعل ؟

لاهير : نعم ، إذا كنتِ معى .

چان : لن أكون معك . فلم يبق لى من العمر إلا عام واحد ، بدأ باشتراكى فى هذه الحرب .

الكل معاً : كيف تقولين ؟

چان : أقول ليس لى فى الحياة غير عام . هكذا يحس قلبى .

دنوا : هذا لغو باطل .

چان : قل لى يا چاك ، أتستطيع طردهم من أرضنا ؟

دنوا : [يقول فى هدوء المتمكّن المقتنع بالذى يقول] نعم . سأستطيع طردهم . إنهم غلبونا لمّا عَدَدْنا الحربَ ملعبة ، ومَيْدانَ الحرب سوقا نكسب فيها الفِدَى ، ولمّا اتخذنا الحرب هزلاً واتخذوها جِدّا . ولكنى أفدتُ من درسى ، وتعلّمت من تجاربى . وذَرَعت القومَ وشَبَرْتُهم ، فعلمت أنهم شجرات لا تضرب أصولها فى الأرض بعيداً . لقد هزمتُهم من قبل ، وإنى لقمين أن أهزمهم مرة أخرى .

چان : ولا تكن قاسياً عليهم يا چاك .

دنوا : إنهم لن يلينوا فى اليد الناعمة . وهذا شرٌ هُمْ بدأوه والبادى أظلم .

چان : [بغتة] چاك . هيّا بنا نأخذ باريس قبـل أن أعود إلى أبى .

شـارل : [وقد ذُعِر] لا . لا . إننـا إنْ فعلنا ، خَسِرنا ما كسبنا . فدعوا القتال ، فنى مقدورنا الآن أن نحظى من دوق بِرجندى بمعاهدة طيبة جدا .

چان : معاهدة ! [تضرب الأرض بقدمها] .

شـارل : نعم . ولم لا ؟ وقد صرت الآن ملكا مرسوماً ؟ أفٍّ من هذا الزيت !

[يخرج المطران من حجرة الملابس إلى الجماعة ، فيقف بين شارل وذى اللحية الزرقاء]

شـارل : أيها المطران ، إن الفتاة تريد أن تبدأ القتال من جديد .

المطران : وهل سكتنا عن القتال ؟ هل نحن الآن فى سلام ؟

شـارل : لا . أظنّ لا . ولكنْ حَسْبُنا ما فعلنا ، فعلينا الآن

بالمعاهدة ، والحظُّ معنا ، فهو حظٌّ جميل جداً لا أحسبه يدوم طويلا ، فقِفوا القتال قبل أن يتبدّل .

چان : حظ ! إن الله حارب دوننا . أفتسمّى هـذا حظا وتقِفُ القتال ولا يزال الإنجليز على هذه الأرض المقدسة ، أرضِ فرنسا الغالية ؟

المطران : [فى قوة وجفاء] يا فتاة . إن الملك توجّهَ بخطابه إلىّ لا إليك . إنك تنسَين مقدار نفسك فتتركين لها العنان فتَجمحين . إنك تنسين فتجمحين كثيراً .

چان : [لا تخجل ، وترد فى شىء من الخشونة] إذن فتكلمْ أنت وقل إن الله لا يرى له أن يرفع يده عن المحراث .

المطران : إن لسانك ذَلِق باسم الله تردّدينـه فى كل آن . فإن لم تكن بلسانى مثل هـذه الذلاقة ، فذلك لأنى إذا نطقت بمشيئة الله فإنما أنطق بها بلسان الـكنيسة وما لها من سلطان ، وباسم منصبي وما لَهُ من قداسة . إنكِ كنت تحترمين سلطان الـكنيسة وسلطان هذا المنصب لما جئتِنا أوّلا . عندئذ لم تكونى تَجرُئين على الحديث بمثل ما تحدثين . وعندها كنت تحلّين بفضيلة التواضع الجميل . ولكنْ لمّا كافأكِ الله عليها بالتوفيق دخل

العُجبُ نفسَك وهو بئس الخطيئة . إنها المأساة الإغريقية القديمة تعود فتتمثَّل فينا . إنه الغرور ينحدر بصاحبه إلى عاقبته المحتومة .

شارل : نعم . إنها تخال أنها تعلم خيراً مما يعلم الناس جميعاً .

چان : [تضيق نفساً . ولكنها فى سذاجتها لا تدرك أثر ما تقوله فى الناس] ، ولكنى أعلم خيراً مما يتراءى لى أنكم تعلمون . إنى لا أنطق عن عُجب . إنى لا أنطق إلا أن أقول حقا .

ذو اللحية الزرقاء وشارل : [يصيحان معاً] ها . ها . بالطبع ! بالطبع . !

المطران : وما أدراكِ أنه الحق ؟

چان : أنا دائماً أدرى . إن أصواتى ...

شارل : أصواتك ، أصواتك ، دائماً أبداً . لِمَ لا تجيئنى هذه الأصوات ، وأنا لا أنتِ الملك ؟

چان : إنها تجيئك أيضاً ، ولكنك لا تسمعها . إنك لا تجلس أبداً فى الحقول فى الأمساء تتسمَّع لها . وإذا دقَّتْ الأجراس تؤَذِّن بالصلاة فأنت تُصَلِّب على نفسك وتكتفى . أمَا لو أنك صلّيت من قلبك ، وأصغيت لجلجلة الأجراس بعد سكونها ، لسمعتها كما أسمعها . [تُشيح عنه بغلظة] ولكن ما حاجتُك إلى أصوات تقول لك ما يستطيع الحدّاد أن يقوله : إضربْ

والحديدة حامية ؟ إنى أقول لك لا بد من هجمة على كُمْپين Compiégne تَخْلُصُ بها لنا كما خَلَصَتْ أُرلين . عندها تفتحُ باريسُ لنا أبوابها ، فإن هى لم تُفْتَحْ مَرَقْنا مُروق السهام فيها . ما غَناء تاج من غير عاصمة ؟

لاهير : هذا رأيى . وسنمرق من أبوابها مروق الرصاصة الساخنة فى رطل من زُبْدة باردة . فماذا ترى يا ابن الفاعلة .

دنوا : لو كانت قنابلنا فى سخونة رأسك ، وكان لدينا العدد الوفير منها ، لم يبق موضع فى الأرض إلا فتحناه . إن الشجاعة والعنف خَصْلتان جميلتان يخدمان الإنسان فى الحرب ما مَلَكهما ، فإن هما تملكاه ضيَّعاه . ولقد ضيَّعانا وأوقعانا فى يد الإنجليز كلما ركَنَّا إليهما . إن عيبنا الأكبر هو أنَّا لا ندرك الهزيمة أبداً إذا هُزِمنا .

چان : بل أنتم لا تدركون النصر أبداً إذا ما انتصرتم ، وهذا عيبٌ شرّ وأفضح . لكأنى والله بكم ، وقد حَمَلْتُكم فى الحرب مرايا تؤكِّد لكم أن العدوَّ لم يَجْدَع بعدُ كلَّ أنوفكم . إنى لولا حملى إياكم على الهجوم لكنتم الآن لا تزالون محصورين فى أرلين أنتم ومجالس حربكم . احملوا يا قومُ دائماً ، وهاجموا دائماً ، وصابروا العدوَّ فهو لا شك نافذٌ صبرُه . إنكم لا تعرفون

كيف تبدأون الواقعة ، ولا تحسنون ضرب المدافع . وأنا أعرف هذا وهذا .

[تقول هذا وتجلس ، متربّعةً على بلاط الأرض ، عبوسةَ الوجه ممدودة الشفتين غضبى] .

دنوا : أعلَمُ رأيك فينا ، يا چنرال چان .

چان : بل قل لهم ما رأيك فيّ يا چاك .

دنوا : رأيى أن الله أعانك يا چان ، فلست بناسٍ كيف تغيّرت الريح ، ولا كيف تغيرت بكِ قلوبنا ، وبحق إيمانى لن أنكر أنا إنما انتصرنا تحت لوائك . ولكنى أقولها لك قولةَ جندىّ : إن الله ليس بالعبد المملوك لأى مخلوق ، رجلا كان أو امرأة ، فتُنتظَر منه الخدمة فى كل آن . إن الذى يصنعه الله لكِ أن ينتشلكِ أحيانًا من بين بَراثِن الموت إن كنتِ أهلا لذلك . فإذا هو أقالك من عثرتك ، ووَقفَك على قدَمِك ، تركك لنفسك ، وعندها يجب عليك القتال بكل ما فيك من حول وكل ما فيك من دهاء . واذكرى أن الله لا بد له أن يرعى الأعداء كما يرعانا على السواء . وقد أقال الله عثرتنا ووَقفَنا على أرجلنا فى أُرلين . وقد جاءنا النصر فيها . والنصر إذا وقع لا تنقطع أسبابه وشيكا ، فبقوة النصر الأول كسبنا نصراً فنصراً فى

ملاحم عدّة تناهت بتتويج الملك . فإذا نحن ركنّا بعد ذلك إلى المجد الذى كسبنا ، واتّكلنا على الله أن يصنع لنا ما يجب أن نصنعه لأنفسنا ، فقد حقّت علينا الهزيمة جزاء وِفاقا .

چان : ولكن ...

دنوا : صهٍ فإنى لم أفرُغ . فلا يظننّ أحدكم أن الذى كُسِب من نصر كُسِب من غير قيادة وإحسان إمرة . شارل أيها الملك ! إنك لم تُشِر فى خطبة التتويج إلى نصيبى من هذه الحروب ، ولا أشكو من هذا ، فالناس تجرى وراء الفتاة وما أتت من معجزات ، لا وراء ابن الفاعلة وما عانى لها فى جمع الجيوش وإطعامهم . ولكنى أعلم بالدقة كم صنع الله لنا على يد الفتاة ، وكم ترك ليتحقق على يدىّ بفطنتى وحيلتى . إنى أُنذركم أن ساعة الكرامات فاتت ، وشمسَ المعجزات أفلتْ ، وأن النصر لن يكون إلا لأكثر المتحاربَين فطنة وأبرعهما حيلة ، لو كان الحظ فى جانبه .

چان : آه . لو . لو . لو . ما أكثر لوّاتكم وما أقل غَناءها [تنهض بغتة فى عنف] إنى أقول لك يابن الفاعلة إنّه لا نفع لفنّك فى الحرب ، لأن فرسانك ورجالك لا يُغْنون شيئاً فى

الحرب الصادقة . فالحرب عندهم لُعبة كالتنس وسائر اللُّعَب . وهم يصنعون لها كاللُّعبات قواعد وقوانين ، فهذا يجوز وهذا لا يجوز ، وهذا يَحِقّ ، وهذا يبْطل . وهم يُهيلون الدروع على أنفسهم ، وعلى خيولهم المسكينة ، ليتّقوا بها السهام ، فإن هم وقعوا تحت ثقلها عزّ عليهم القيام ، فيظلون مكانهم حتى يأتى سيدهم يدفع الفدية عنهم للرجل الذى وَكَزهم فأطاحهم من فوق سروجهم . ألا تدركون أن وقت هذا مضى وانقضى ؟ ما نفع الدروع لِقاء البارود ؟ وإن كانت تنفع ، فهل تحسبون أنّ رجالاً يقاتلون عن فرنسا ، ويحاربون فى سبيل الله ، يَكفون عن القتال ورحى الحرب قائمة ليساوموا فى الفِداء . فهكذا يصنع النصف من رجالكم ، ومن هذا يرتزقون . لا . لا ، إن الواجب أن يُحاربوا ليَغلِبوا ، وإن هم دخلوا الميدان دخلوه بعد أن يخرجوا مثلى عن أرواحهم فى سبيل الله . إن عامة الناس وطَغامهم يفقهون هذا . إنهم فقراء لا يستطيعون شراء الدروع ولا يُطيقون دفع الفِدَى ، ولكنهم يتّبعوننى ، عرايا أو يكادون ، فى خندق الماء ، فإلى السلّم ، فإلى الحائط ، فَمِنْ فوقِه . عندهم : حياتى أو حياتُك يا عدوّ الله ، والله ينصر الحق من بعد ذاك . هُزّ رأسك ما شئت يا جاك . وأنت يا ذا اللحية الزرقاء افتُلْ لحيتك لِحْية الجَدْى

ما حَلَا لك ، وتتطاول بأنفك عنى توقحاً ما بدالك ، ولـكن تذكّروا جميعاً يوم أردتُ أن أحمل على الإنجليز فى أُرلين ، فرفضتْ فرسانكم وقوّادكم أن يتّبعونى ، فعندما غَلَّقتُمْ الأبواب دونى لتمنعونى ، كان الذى اتبعنى أهل المدينـة وطَغام العامة ، فهجموا على الحصون وكبسوا الأبوابَ فَوَلجوها ، فعلّموكم كيف يكون القتال .

ذو اللحية الزرقاء : [وقد أُسِئَ] أما كفاكِ أن تكونى البابا يا چان ، فتريدين أن تكونى قيصر والإسكندر أيضاً .

المطران : إن المعجَب بنفسه لا يأمن الزلل يا چان . وفى العُجْب التردّى .

چان : لا تحتفلْ بالذى بى ، مُعْجباً كان أو غير مُعْجب ، ولـكن قل لى أحقٌّ ما أقول ؟ أمنطقٌ بسيط كمنطق الخَلْق ما أحكى ؟

لاهير : نعم إنه الحق . إن نصفنا يخشى أن يَجْدَع أنفه الجميل ، والنصف الآخر همُّه الفِدَى ليفكّ الرهون وما عليه من ديون . خلِّها تفعل ما تريد يا دُنْوا . إنها لا تعـلم كل شىء ، ولـكنها فى هذا الأمر تعرف ما تأخذ منه وما تَدَع . إن القتال اليوم غيرُه بالأمس ، وقد يكون أقل الناس به علماً أكثرهم فيه إحساناً .

دنوا : أنا أعلم كل هذا ، ولست أقاتل على الأسلوب القديم . لقد تعلّمتُ من درسي في أجنكور Agincourt وفي بواتييه Poitiers. وفي كريسي Crecy . فكل حركة آتيها أقدّر لها عدد الأنفس التي تضيع فيها ، فإن كان الثمن عِدْلا لها دفعته فيها . أما چان فلا تقدّر لحركاتها أبداً ، وإنما تسير قُدُما وتعتمد على الله كأن الله شيء في جيبها ، فهو لا يستطيع الخروج على أمرها . وإلى الآن كان العدد العديد إلى جانبها فربحَت القتال . ولكني أعرف چان ، وأتوقع أنها ستسير يوما إلى القتال في عشرة رجال لتقوم بما يقوم به المائة ، وعندها ستعلم أن الله قد فارقها إلى حيث تُوجَد الفِرَقُ الكبيرة ، والأعداد الكثيرة ، وعندها تقع في الأسر ، يأسرها رجلٌ مُبخَت محظوظ يتقاضى على فعلته ستة عشر ألفاً من الجنيهات يدفعها إياه الإرل وَرِك Warick .

چان : [يداخلها العُجب والسرور] ستة عشر ألفاً ! أَعَرضُوا كلّ هذه الآلاف لأسرى ؟ أفي الدنيا كلُّ هذا المال ؟

دنوا : نعم ، في انجلترا . والآن حدّثوني جميعاً : مَنْ منكم يرفع عند ذاك إصبعاً لخلاص چان من الإنجليز إذا هم أسروها ؟ وقبل أن تجيبوا دعوني أجيبكم نيابةً عن الجيش . في اليوم الذي فيه يُمسك بها ويَشدّها عن جوادها انجليزي أو برجندي ثم

لا يُصعَق صعقاً ، فى اليوم الذى تُلقَى فيه فى غيابة الجبّ فلا يبعث لها بطرس الرسول مَلَكا يفتح لها أبوابه ويطيّر مزاليجه وقضبانه بمَسّةٍ من يده ، فى اليوم الذى يتبين فيه للعدوّ أنها كمثلى تماما تُغلب وتقهر ، فى هذا اليوم لن تساوى حياتها لدى الجيش حياة جندى واحد ، ولن أخاطر لخلاصها بحياة هذا الجندى الواحد ، برغم مابى من ضنٍّ بصحبتها وإعزاز لِزَمالتها فى القتال .

چان : إنى لا ألومك على ما تقول يا چاك ، فأنت إنما تقول الحق . نعم لن تعدل حياتى حياةَ جندىّ واحد إذا خذلنى الله . ولكنْ عندها قد ترانى بلادى جديرةً بالفداء بعد الذى صنعه الله لها على يدىّ .

شارل : اعلمى أنه لا مال عندى ، فهذا التتويج الذى جَنَيتِ به علىّ قد بذلتُ فيه آخر درهم أمكننى اقتراضه .

چان : إن الكنيسة أغنى منك ، فعلى الكنيسة اعتمادى .

المطران : أيتها المرأة : إنهم عندها يسحبونك فى الطرقات ثم يحرقونك حرق الساحرات .

چان : [تجرى إليه] أى مولاى ، لا تقلْ هـذا . إن هذا محال . أنا ساحرة ؟

المطران : إن بطرس كوشون قديرٌ فى صناعته ، جديرٌ

بوظيفته . لقد قالت امرأةٌ إنكِ أحسنتِ فيما أتيتِ ، وإنكِ أطعتِ مشيئةَ الله في الذي فعلت ، فأحرقتْها جامعةُ باريس بما قالت .

چان : [مرتبكة متحيرة] ولكن لِمَ هذا ؟ وكيف يُعقَل هذا ؟ إنّ ما فعلتُ كان بمشيئة الله ، فكيف يحرقون امرأة تقول الحق ؟

المطران : إنهم أحرقوها .

چان : ولكنك تعلم أنها قالت حقا ، فأنت لن تدعهم يحرقوني .

المطران : كيف السبيل إلى منعهم ؟

چان : تتكلّمُ باسم الكنيسة ، فأنت عينٌ جليل من أعيانها .
فإنْ أنتَ حميْتَني وباركتني فلن ينالني في الدنيا أذى أينما ذهبت .

المطران : لا أبارك لكِ وأنتِ على عُجبك وعصيانك .

چان : أوّاه ! لماذا تظلّ تؤلمني بهذا القول . أنا لستُ مُعجَبة بنفسي ، ولست عاصية . أنا بنت فقيرة جاهلة ، لا أعرف الألف من الباء ، فكيف أكون بنفسي مُعجَبة . وكيف تقول إني عاصية ، وأنا دائما أطيع ما أسمع من أصواتي لأنها تجيء من الله .

المطران : إن صوت الله في الأرض هو صوت الكنيسة ، أمّا ما تسمعين من أصوات فهي أصداء لفكرك وعنادك .

چان : هذا غير صحيح .

المطران : [يحمر غضبا] تقولين لمطران كتدرائيّة إنه يكذب

ثم تقولين بعد ذلك إنك غير مُعجَبةٍ ولا عاصية .

جان : أنا لم أقل أبداً إنك كذبت ، بل أنت الذى قلت ما يكاد يكون معناه أن أصواتى كَذَبَتْ . فمتى كَذَبتْ أصواتى ؟ وإنْ أنت لم تؤمن بها ، وحتى إنْ هى لم تكن إلاّ أصداء لفكرِىَ البسيط ومنطقى الساذج ، فهل هى أخطأتْ يوما ؟ ونصائحكم ، ومأتاها من الأرض ، هل هى أصابت يوما ؟

المطران : [فى غضب] مضيعةٌ للوقت إنذارُك وتحذيرك !

شارل : إنها تدور ، ثم تعود دائما إلى الشىء الواحد : أنها دائما مصيبة وغيرها مخطئ .

المطران : أنصتى إلى هذا ، فهو آخر النُّذُر . إنك إن حقّ عليكِ الهلاك لاستمساكك بآراء نفسك دون آراء أوليائك الروحانيين ، فسوف تتبرأ منك الكنيسة ، وسوف تدعك لما يجرّه عليك كبرياؤكِ وادعاؤكِ من بلاء . وقد قال لك ابن الفاعلة إنك إنْ ألححتِ فاستمسكتِ فى القتال بآراء يُمليها عليك الغرور دون آراء نصحائك ورؤسائك فى الجيش ...

دنوا : [يتدخّل] بل دعنى أعبّر أنا عن مرادى بالدقة . إنك يا جان إنْ حاولتِ فكّ الحصار عن حامية كمبين Compiègne بعدد من الرجال دون العدد الأوفر الذى كان معك فى أرلين ...

المطران : إذنْ لتبرّأ منك الجيش ولقعـد عن خلاصك . وقد قال لك جلالة الملك أن ليس لديه المال لفدائك .

شارل : ولا قرش واحد .

المطران : فأنتِ الآن وحدك ، فلا نصير ولا معين . أنت فى الدنيا فى وحدةٍ مُوحشة ، أوحدك ارتـكانك إلى غرورك ، وإلى جهلك ، وإلى غطرستك وعنادك ، وأنّك سترْتِ كل هذه الخطايا بستار التقوى فى الله فزدت بذلك بعداً عن تقوى الله . إنك ستخرجين الآن من هـذه الأبواب إلى ضوء الشمس ، وعندها تتلقاك الجماهير الحاشدة بالهتافات الصارخة . وسيأتونك بالمرضى منهم والأطفال لتشفيهم ولتباركيهم . وسيقبّل السّذّجُ المساكين يديك ورجليك ، ويفعلون كل ما يطيقون ليَزيدوا رأسك اختلالا ، ويملأوا نفسك ثقةً هى جائحةٌ بك لا محالة . فتذكّرى ، وأنت فى وسط هـــذه الجماهير ، أنّكِ وحيدةٌ كوحدتك هنا . فهذا الجمّ الغَفيرُ من الناس لا يستطيع لك الخلاص . نحن ، لا غيرُنا ، نستطيع لك الخلاص . نحن لا غيرنا ، نقدر أن نحول بينك وبين هـذا الجذع الذى أقامه أعادؤك لامرأة باريس المسكينة ، وإليه شدّوها ، ثم أحرقوها .

جان : [ترفع بصرها مشيرةً إلى السماء] لى هنالك أصدقاء ، ولى هنالك أولياء نصحاء خيرٌ منكم يا هؤلاء .

المطران : عبثاً أتحدّث إلى قلب مُغلَق وأُذُن صمّاء . إنك ترفضين حمايتنا ، وتعملين جاهدةً على كسب خصومتنا ، فمن الآن فادفعى أنت بنفسك عن نفسك ، فإن أخفقتِ فعليك رحمة الله .

دنوا : إن الحق ما قيل يا جان فاتّبعيه .

جان : لو أنى اتّبعت مثل هذا الحق بالأمس ، فإلى أىّ حال كنتم تصيرون . إنكم لا عَوْنَ فيكم ولا نصيحة . نعم أنا فى هذه الدنيا وحيدةٌ . وقد كنت فيها أبداً وحيدة . تركتُ أبى لاسعِف بلادى ، فطلب إلى إخوتى أن يُغرقونى فى البحر إذا لم أطعه فأرعى غنمه ، بينا فرنسا تجرى دماؤها على الأرض سفحاً . وما ضَرَّه أن تجرى دماها ، إذا عاشت خِرافه ناعمةً فى مهتوك حماها . وحسبتُ أنى أرى نُصَرَاء خلصاء لبلادى فى بلاط مَلِكها ، فلم أجد إلا ذئاباً يتنازعون على قِطَعٍ من أشلاء وطنٍ ممزّق . وحسبت أن لله أحباباً فى كل مكان ، لأن الله محبٌّ لكل إنسان . واعتقدت فى سذاجتى أنى سأجد فيكم قلاعاً رواسخ تدفع الأذى عنى ، فإذا بى أجدكم تخلعونى خلع النعال البالية . ولكنى الآن

لقد تكشّفتْ لى حقيقتكم فعرفتُها عِيانا ، ورأيتُ الحق فى أمركم عُريانا ، ولن يكسب أحد من معرفة الحق خسرانا . وتهدّدونى بوَحْدتى ، وما بى والله ذعرٌ منها . إن فرنسا وحيدة . وإنّ ربِّى لوحيد . فما وَحْدتى إلى جانب وَحْدة قومى ووحدة الله ربِّى . لقد تعلّمتُ الآن أن وَحْدة الله هى سرّ قوّته . ألا ما كان حال الله لو أنه أصغى لنصائح منكم حقيرة ، تصدر عن قلوب مريضة غيورة . قوة الله فى وحدته ، وكذلك قوتى ستكون فى وحدتى بجوار الله ، فلن تخوننى صداقته ، ولن تُعْوزنى محبته ، ولن تَخذِلنى نصيحته . وسأستمدّ مَدَداً من مَدَده ، فأقتحم المهالك ، وأركب الأخطار حتى أموت . والآن أخرجُ إلى الشعب ، إلى عامة الناس ودهمائهم ، فلعل الحب الذى أجده فى عيونهم يفرِّج عنى كَرْبة البغضاء التى أجدها فى عيونكم . إنكم ستفرحون جميعاً لحرقى ، ولكنى إنْ سِرْتُ إلى النار ، فإنما أسير عَبْرَها إلى الخلود فى قلوب الناس ، ففى هذه القلوب سأحيي أبد الآباد . والآن تداركْنى بلطفك يا رحمن .

[تخرج عنهم ، فيمعنون النظر وراءها برهة فى سكون كئيب ، ثم يأخذ ذو اللحية الزرقاء فى فتل لحيته] .

ذو اللحية الزرقاء : إن المرأة لا تطاق . أنا فى الواقع

لا أبغضها ، ولكن ما الحيلة فى هذا الطبع الغريب ؟

دنوا : أشْهِدُ الله لو أنها سقطت فى اللِّوار لقفزت وراءها فى كامل سلاحى أنقذها من الماء ، ولكنها إن فعلت فى كُمين قَتَلة المجانين ، فأخذها العدوُّ ، فإنى لتاركها للأقدار تفعل بها ما تشاء .

لاهير : إذن فقيدونى إن أردتم أن تمنعونى ، فإنى أحسّ أنى تابِعُها ، ولو إلى جهنم ، كلما سمعتها تتحدث بهذه القوة وهذه الحرارة .

المطران : إنها كذلك تعكّر علىَّ بصيرتى وتزعزع حكمى . إنها تنفجر انفجارات قوية تحمل الخطر فى قوتها . إن الحفرة فاغرةٌ فاها عند قدمها ، وستتردَّى فيها ، ولن نستطيع منعها . ولسنا ندرى ألِخَيْرٍ هذا أم لِشَرٍّ يكون ؟

شارل : لو أنها حبست لسانها أو قبَعت فى بيتها !

[يخرجون وراءها مغمومين كئيبين]

المنظر السادس

[فى مدينة رُوان Rouen ، فى الثلاثين من مايو عام ١٩٣١ . ردهة كبرى من الحَجَر فى القلعة ، وقد رُتِّبَتْ لمحاكمة فى محكمة بغير مُحَلَّفين ، فالمحكمة محكمة الأسقف يشترك فيها ديوان التحقيق Inquisition : لهذا وُضِع فى المكان كرسيان وَرُفعا على مِنَصَّة جنباً إلى جنب ، أحدهما للأسقف والآخر للمحقِّق مندوب الديوان ، وهما القاضيان فى هذه المحاكمة . ووُضع على جانبيهما طائفتان من الكراسى ، صُفَّت على خطوط تَشِعّ من مركز القاضيين بحيث تصنع يمنى الطائفتين مع يسراها زاوية منفرجة . فهذه الكراسى للقساوسة ودكاترة القانون واللاهوت والرهبان الدومينيكيين Dominican Monks ، وهؤلاء جميعاً خبراء ينصحون المحكمة كلٌّ فى اختصاصه . وفى قلب الزاوية المنفرجة منضدة للكتّاب ومقاعد لهم غير ذات ظهور . وكذلك كرسى غير ذى ظهر مصنوعٌ من خشب خَشِنِ المظهر ثقيل ، فهذا للمتّهمة . وكل هـذا فى الطرف الداخلىّ من الردهة . أما الطرف الخارجىُّ منها فينفتح على صحن القلعة بصف من حنيّات . والمحكمة محفوظة من تقلبات الجوّ بحُجُب وستائر] .

[والناظر إلى الردهة من أوسط طرفها الداخلىّ يجد كراسىّ القضاء والكتّاب إلى يمينه ، وكرسىّ المتّهمة إلى يساره . ويجد إلى يمينه و يساره أبواباً معطوفة الأعالى] .

[هـذا عن المـكان . أما عن الزمان فالوقت صباحٌ ضاحٍ من أصباح مايو] .

[يدخل ورك Warwick ، يتبعه وصيفه ، من الباب المعطوفِ أعلاه بجوار مِنَصَّة القضاء] .

* * *

الوصيف : [فى قِحة] أظنك يا صاحب السعادة تدرك أنه لا وجه لنا فى البقاء هنا ، فهذه المحكمة محكمة إكليرية ، أما نحن فقوة التنفيذ المدنية .

وَرِك : أنا مدرك ذلك ، فهل تتفضل يا صاحب الوقاحة فتبحث لى عن أسقف بوفيه ، وتُفهمه بالتلميح أنه إنْ شاء استطاع أن يتحدث إلىّ هنا قبل أن تبدأ المحاكمة .

الوصيف : [وهو ذاهب] نعم يا مولاى اللورد .

وَرِك : وانظر ما أنت صانع ، فلا تناده بصاحب القداسة ولا رب التُّقَى .

الوصيف : لا يا مولاى اللورد . ولكنى سأتلطف به وأرعاه ، فربُّ التُّقَى والقداسة سيأكل مِلْءَ فِيه من الفلفل الحرّاق عندما تدخل الفتاة إلى المحكمة .

[يدخل كوشون من نفس الباب الذى دخل منه ورك ، ومعه راهب دومينيكى ، وكاهن يحمل أوراق القضية] .

الوصيف : صاحب النيافة الأكبر مولاى أسقف بوفيه ، واثنان آخران من أصحاب النيافة .

وَرِك : اخرجْ واخفُر الباب فلن يدخل علينا أحد فيقطعَ علينا ما نحن فيه .

الوصيف : نعم يا مولاى [يخرج خفيفاً مرحاً] .

كوشون : نَعِمْتَ صباحاً يا مولاى .

وَرِك : ونعمت صباحاً يا مولاى . هل سبق أنى حَظِيتُ بلقاء إخوانك من قبل ؟ لا أظن ذلك .

كوشون : [يعرّفه بالراهب ، وهو على يمينه] هـذا يا مولاى الأخ چون لامِتْر John Lamâitre ، من الدومينيكيين ، وهو ينوب عن المحقق الأعظم فى أمور البدع وشرورها بفرنسا . وهذا هو إرل وَرِك يا أخى چون .

ورك : نيافتكم على الرحب والسعة . فى انجلترا بلادِنا لا يوجد عندنا مع الأسف محقق كما يوجد لديكم ، وكثيراً ما نفتقده ، لا سيما فى ملابسات كهذه .

[يبتسم المحقق فى بطء وهدوء وينحنى احتراماً . وهو رجل مسنّ ، ولكن به بقية ظاهرة من السلطة والصلابة] .

كوشون : [يُعرِّف بالراهب وهو على يساره] وهذا السيد هو

الكاهن جون دستيفيه Canon John D'estivet ، عضوٌ بمجلس أسقفية بايُو Bayeux ، وهو قائم فينا بعمل المُدّعِى .

ورك : المدّعِى ؟

كوشون : نعم . هو النائب على ما تسمّونه فى القانون المدنى .

ورك : أى نعم . نائب . نائب . لى السرور الكثير بالتعرّف بك يا كاهن دستيفيه .

[دستيفيه ينحنى له . وهو رجل يتجه بسنّه إلى ذروة الكهولة ، لطيف الأدب ، ولكن من تحت ديباجته الناعمة مكر الثعالب] .

ورك : هل لى أن أتساءل إلى أى حدّ بلغت الإجراءات ؟ إنه قد مضى الآن تسعةُ أشهر منذ أَسَر البرجنديون الفتاةَ فى كُمبين ، ومضى أربعة أشهر كاملة منذ ابتعتُها منهم بمبلغ جمّ من المال ، لا لغرض سوى أن يَقضى فيها العدلُ ما يقضى . ومضى ما يقرب من ثلاثة أشهر من يوم أن أسلمتها إليك ياسيدى الأسقف إسلامَ امرأة متّهمة بالزندقة . فهل لى أن أعرض عليكم فكرةً لى خاطرة : إنّكم تَقضون زمناً طويلاً غير معقول فى تلمّس الحكم فى قضية يسيرة واضحة ؟ أمَا لهذه المحاكمة من آخر ؟

قاضى التحقيق : [مبتسما] إنها لم تبدأ بعد أيها اللورد .

ورك : لم تبدأ بعد ! كيف ، وأنتم تعملون فيها من أحد عشر أسبوعاً ؟

كوشون : لقد واصلنا العمل فيها أيها اللورد فعقدنا للتحقيق مع الفتاة خمس عشرة جلسة : ستًّا منها علنية ، وتسعاً سريّة .

قاضي التحقيق : [وهو مُصابرٌ مبتسم دائماً] اعلمْ يا مولاى أنى لم أحضر غير جلستين من هذه الجلسات . فهى جلسات كانت من إجراءات محكمة الأسقف لا ديوان التحقيق . وقد قضيتُ قريبا فقط بضرورة تدخّلى فيها ، أى تدخّلِ ديوان التحقيق فيها جنبا إلى جنب مع محكمة الأسقف . ذلك أنى فى بادئ الأمر لم أكن أحسب أن القضيةَ قضيةُ زندقة أبداً ، بل عَدَدْتُها قضيةً سياسية ، واعتبرْتُ الفتاةَ أسيرة حرب . ولكن بعد حضورى جلستين من جلسات التحقيق لم يَعُدْ بدٌّ من اعترافى بأنها قضيةٌ من أخطر قضايا الزندقة التى عرفتُها فى حياتى . والسبيل الآن ممهّدةٌ كلّ التمهيد ، وسنبدأ بالمحاكمة هـذا الصباح [يسير آخذاً سَمْتَه نحو مِنَصّة القضاء] .

كوشون : نعم فى هـذه اللحظة إذا لم يكن لديك مانع أيها اللورد .

ورك : [فى لطف] هذه أخبار طيبة يا سيِّداى . ولكنى لن أحاول أن أخفى عنكم أن قوس الصبر لدينا كاد ينقطع .

كوشون : لقد عرفتُ هذا عندما سمعتُ جنودكم يتهدّدون بالإغراق كلّ من يعطف على الفتاة من أهل بلادنا .

ورك : يا لَلخبر ! أبهذا القدر يتهدّدونهم ! وعلى كل حال فهم لا يضمرون لك أنت إلا الودّ يا مولاى .

كوشون : [فى شدة] أرجو أن لا يضمروا لى ودّا ، فإنى عازم أن أقضى بالعدل فى أمر هذه الفتاة . إن عدل الكنيسة لا سخريةَ فيه يامولاى .

المحقق : [وهو يعود] لا أذكر يامولاى أن تحقيقا أعدل من هذا وقع فى حياتى . إن الفتاة فى غَناء عن محامين يدافعون عنها ، فالذين يحاكمونها أخلص الناس صداقةً لها ، وهم جميعا يرجون أحرّ الرجاء أن تنجو بروحها من هلاك مقيم .

دستيفيه : سيدى ، إنى أنا المدّعِى ، فكان من واجباتى الأليمة أن أقوم بعرض الدعوى ضد الفتاة ، ولكن صدّقنى لقد والله وَدِدْتُ أن أُلقِى بالتهمة جانبا وأهرع إلى جانب الفتاة أدفع عنها وأحميها ، لولا علمى أن رجالا أكثرَ منى علما وأرفعَ درجات فى التُّقَى والفصاحة والإغراء قد ذهبوا إليها يحاجّونها ، ويجادلونها ،

ويبصّرونها بالخطر الذى هى مقبلة عليه ، وبالطريق السهلة التى تسلكها لاجتنابه [ينفجر بغتة فى فصاحة خَطابيّة يستاء منها كوشون والمحقق أشد استياء ، وكانا قد بقيا إلى عندئذ يُنصتان إلى ما يقول فى موافقة رضيّة ورعاية أبوية] . لقد تجرّأ قوم فقالوا إننا نُصدر فيما نعمل عن كراهة وبُغض . ولكن الله شهيد إنهم لكاذبون . فليسائلوا أنفسهم : أعذّبناها ؟ كلا . وليسائلوا أنفسهم : هل انقطعنا أبداً عن أن نترجّاها ونتعطّفها ونتوسّلَ إليها أن تأخذها الرحمةُ بنفسها فتعودَ إلى كَنَف الكنيسة عودة فتاة ضالّة إلى كنف أمّ تحبها ؟ هل نحن ...

كوشون : [يقاطعه فى جفاء] تبصّر أيها الكاهن فى الذى تقول . إن ما تقول حق كلُّه ، ولكنك إن أنت نجحتَ فأقنعت اللورد به ، فلستُ بضامن لك الحياة ، ولا لنفسى .

ورك : [يخالف كوشون فيما يخشى ، ولكنه أبعد ما يكون عن إنكاره] مهلا ، مهلا ، يامولاى . إنكم قساة جدا علينا نحن الإنجليز المساكين . ومع هذا فلا شك أننا لا نشاركلكم رغبتكم فى تخليص الفتاة ، وهى رغبة لا شك مصدرها الورع والتقوى . بل أزيد فأقول لك قولًا واضحاً قاطعاً إن موتها ضرورةٌ سياسية

آسَفُ لها ، ولكنّى لا أجد مندوحة عنها . فإذا أطلقَتِ الكنيسةُ سراحها ..

كوشون : [يخرج عن طوقه فيتهدّد فى شراسة وزهو] إذا أطلقتِ الكنيسةُ سراحها ، فالويل كل الويل لمن يضع عليها إصبعاً ، ولو كان الإمبراطورُ نفسُه ربَّ هذا الإصبع . إن الكنيسة أيها اللورد لا تخضع للضرورات السياسية .

المحقق : [يتدخل بينهما فى نعومة] لا يَقْلق بالُك على النتيجة أيها اللورد ، فإن لك فى هذا الأمر حليفاً لا يُغلب ، يُصرّ على أن تحْرَق الفتاة أشدَّ من إصرارك .

ورك : هذا حليف نحن فى شديد الحاجة إليه ، فمن يكون ؟

المحقق : الفتاة نفسها ، فإنك إن لم تَسُدَّ فمها بقطنة ، فستفتحه ، وكلَّ مرّة تفتحه تُثبت التهمةَ على نفسها عشراتِ المرّات .

دستيفيه : هذا حق أيها اللورد . إن شَعرى يستقيم على رأسى كلما سمعتُ فتاةً فى هذا السن تنطق بكل هذا الكُفر .

ورك : على كل حال قُوموا لها بكل ما تستطيعون من معونة مادمتم توقنون أنها غير نافعة [يحدّد النظر فى كوشون] إنى ليَعْرونى الأسفُ إذا أنا اضطُرِرْت إلى العمل بغير رضاء الكنيسة .

كوشون : [يخلط ، فى تهكم ، بين إعجاب باللورد واحتقار له] أفبعد هذا يقولون إن الإنجليز منافقون ؟ إنك أيها اللورد تعمل لحزبك حتى بما فيه هلاك نفسك . فأنا أمام هذا الإخلاص لا أمتلك إلا الإعجاب . ولو أنى أنا لا أستطيع أن أذهب بنفسى إلى الحد الذى ذهبتَ إليه ، فإنى أخاف عليها اللعنة .

ورك : إننا إن خفنا شيئاً لم نستطع أن نحكم انجلترا يا مولاى. والآن هل آذَنُ لأهل بلدك أن يدخلوا إليك .

كوشون : نعم . تحسن صُنعا أن تَخرج لتستطيع المحكمة أن تنعقد .

[يدور ورك على عقبيه ويخرج عن طريق الصحن ، ويأخذ كوشون مجلسه على أحد كرسيّىْ القضاء ، ويجلس دستيفيه إلى منضدة الكتّاب يفحص ملخّص الدعوى] .

كوشون : [يقول عفواً وهو يتطامن فى مجلسه] هؤلاء الأشراف من الإنجليز أوغاد أىُّ أوغاد .

المحقق : [وهو يأخذ مجلسه على كرسىّ القضاء الثانى ، إلى يسار كوشون] إن السلطة الزمنية تجعل من الرجال أوغاداً . فهم غير متدرّبين على واجباتهم ، وهم لم ينحدروا عن الحواريّين فليس فيهم تراثهم ، وأشرافنا لا يقلّون عن أشرافهم سوءاً .

[يسرع خبراء الأسقف بالدخول إلى الردهة ، وعلى رأسهم القس دِي اسْتُوجَمْبر De Stogumber ، والراهب دى كُور سل ، وهو قسيس شاب فى الثلاثين من عمره . ويجلس الـكُتّاب إلى المنضدة ، ويتركون كرسيا خاليا فى قبالة دستيفيه D'Estivet . ويجلس بعض الخبراء ، ويظل بعضهم واقفين يتحدثون ينتظرون افتتاح الجلسة افتتاحا رسميا . ويظهر الغضب والعناد على القس دى اسْتُوجَمْبر ، فهو من أجل هذا لا يأخذ مجلسه . وكذلك الراهب لا يريد أن يجلس فيقف إلى يمينه] .

كوشون : صباح الخير ياسيد دى اسْتُوجَمْبر [يخاطب المحقق] هذا قسيس كردنال انجلترا .

القس : [يصحح ما قيل] كردنال ونشستر يا مولاى . إن لدىّ احتجاجاً أريد أن أتقدّم به يامولاى .

كوشون : لقد تقدّمتَ بالـكثير من أمثاله .

القس : أنا فى احتجاجى لى زميل يا مولاى . هذا السـيد دى كُور سل يَشْرِكنى فى احتجاجى .

كوشون : على كل حال ماذا عندك ؟

القس : [معبِّساً] تـكلَّمْ أنت ياسيد دى كورسل ، إذْ يلوح لى أن نيافته لا يطمئن إلى قولى [يجلس فى حنق إلى يمين كوشون] .

كورسل : مولاى ، لقد جَهِدْنا جُهداً كبيراً فاستخلصنا

أربعاً وستين خطيئة يدور عليها اتهام الفتاة . والآن علمنا أنّها خفّضت من دون استشارتنا .

المحقق : يا سيد كورسل ، أنا الذى خفّضتها . وإنى لمعجَب أشدّ الإعجاب بغيرتك التى أظهرتَها فى استخلاصك لهذه الخطايا الأربع والستين . ولكن فى اتهام الزنادقة ، كما فى أى أمر من أمور الحياة الأخرى ، يوجد حدّ للكفاية من كل شىء . وعدا هذا فعليك أن تذكر أن أعضاء المحكمة ليس لهم جميعاً مثل ذكائك ودهائك وتبحّرك ، وأن بعض ما تُظهِر أنت من علم عظيم جدا قد يتراءى لهم سخافة عظيمة جدا . فمن أجل هذا رأيت أن أخفّض التُّهَم الأربع والستين إلى اثنتى عشرة .

كورسل : [يُصعَق] اثنتى عشرة !!!

المحقق : صدّقنى إن فى الاثنتى عشرة كفايةً لما تريد .

القس : ولكن بعض التُّهَم الخطيرة قد اختُصِرَتْ حتى انعدمت أو كادت . مثال هذا أن الفتاة اعترفت فعلاً بأن القدّيستين المباركتين مرغريت وكترينة ، وكذلك الملك الأعظم ميكائيل ، كلّموها بالفرنسية . وهذا اعتراف له خطورته .

المحقق : لا شك أنك تحسب أن خطابهم إياها كان لا بد أن يكون باللاتينية ؟

كوشون : لا ، بل هو يرى أنه يجب أن يكون بالإنجليزية .

القس : بالطبع يا مولاى .

المحقق : ولـكن بما أننا جميعاً على ما أظن متفقون على أن الأصوات التى تسمعها الفتاة ليست سوى أصوات لشياطين يُغرونها باللعنة ، فلن يكون من التأدّب فى حقك ، أو حق ملك الإنجليز ، أن نزعم أن الإنجليزية لغة الشياطين . وعلى هذا فاصرف النظر عما قلت . وعلى كل حال فالمسألة لم تُحْذَف كل الحذف من التُّهَم الاثنتى عشرة . والآن يا سادة اجلسوا جميعاً لنفتتح الأعمـال .

[يجلس كل من لم يكن جلس] .

القس : على كل حال أنا أحتج وكفى .

كورسل : إنه لَيَصْعُب علينا أن يذهب جهدنا هباء . إن هذا مثل جديد لما لهذه الفتاة على المحـكمة من مؤثرات شيطانية

[يجلس على كرسيه ، وهو على يمين القس] .

كوشون : أتزعم أنى واقع تحت مؤثرات شيطانية ؟

كورسل : أنا لا أزعم شيئاً يا مولاى ، ولـكن يظهر لى أن مؤامرةً دُبِّرت لـكتمان واقعة لا بد من إفشائها ، هى أن الفتاة سرقت حصان أسقف سِنْليس Senlis .

كوشون : [يجاهد فى كظم غيظه] ليست هذه محكمة للشُرْطة . وبعد ، أفى مثل هذه السخافات تُنْفَق أوقاتنا ؟

كورسل : [ينهض وقد هزّه ما سمع] مولاى ، أتسمى حصان الأسقف سخافة ؟

المحقق : [فى لطف] يا سيد كورسل ، إن الفتاة تزعم أنها دفعت فى هذا الحصان ثمنًا طيبًا ، وأن هذا الثمن إذا لم يكن وصل إلى الأسقف ، فالذنب ليس ذنبها . وبما أن هذا الزعم قد يكون حقا فى هذه التهمة ، فقد يجوز جدا تبرئة الفتاة منها .

كورسل : هذا حق إذا كان الحصان حصانا عاديًّا كبعض الأحصنة . ولكن حصان الأسقف كيف يمكن تبرئتها فيه ؟

[يعود فيجلس ، وقد أذهله العَجَب وفتّ فيه اليأس] .

المحقق : أقول لك ، فى احترام شديد ، إننا إذا تشبّثنا بمحاكمة الفتاة فى ذنوب توافه ، ثم اضطُررنا إلى تبرئتها منها ، فتحنا لها الباب إلى الإفلات من جريمة الزندقة الكبرى ، وهى على ما أرى لا تزال تُقِرّ باجترامها . فمن أجل هذا أسألك ، إذا أُحْضِرَتْ الفتاة أمامنا ، أن لا تذكر شيئًا عن أحصنةٍ سرقتْها ، أو رقصةٍ حول شجرة للجنّ مع أطفال القرية رقصتْها ، أو صلاةٍ على بئر مسكونةٍ صلتْها ، أو أن تذكر شيئًا من تلك الأشياء العَشَرات

التافهات التى بذلْتَ فيها هذا المجهود الكبير فى استنباطها قبل حضورى . إن فرنسا كلها ليس فيها قرية لا تستطيع أن تُتهم بناتها بمثل هذه التُّهم ، فكلهنّ يرقصْن حول أشجار مسكونة ، وكلهن يصلّين عند آبار مسحورة ، ومنهنّ من لا تتحرَّج من سرقة حصان البابا لو وجدتْ إليه سبيلا . فالزندقةُ الزندقةُ يا سادتى هى التهمة التى نحاكِم من أجلها . إن اكتشاف الزندقة والتطهيرَ منها عملٌ تخصَّصتُ له وتوفّرت عليه ، وأنا بينكم أمثّل ديوان التحقيق ، فلستُ قاضياً عاديا . فتمسكوا بتهمة الزندقة يا سادة وانصرفوا عما عداها .

كوشون : أودّ أن أذكر أننا بعثنا إلى قرية الفتاة نستخبر عنها ، وأننا لم نجد شيئاً خطيراً نكاد نأخذه عليها .

القس	[ينهضان	لم تجد شيئاً خطيراً يامولاى !
وكورسل	ويصرخان معاً]	فالشجرة المسحورة ليست ...

كوشون : [يخرج عن صبره] السكوت ، السكوت ! وإذن تكلمتما فواحداً بعد واحد .

[يسقط كورسل فى كرسيّه مرتاعا] .

القس : [يجلس وهو عابس غضبان] هذا ما قالته لنا الفتاة يوم الجمعة الفائت .

كوشون : وَدِدْتُ يا سيدىّ لو عملتما بنصيحتها . إنى عندما قلت أمراً خطيراً قصدت أمراً يبلغ حدَّ الخطورة عند قوم رِجاحِ العقول ثِقالِ الأحلام كالذين هم أهل للقيام بأمر مثل هذه المحاكمة التى نحن فيها . إنى أوافق زميلى المحقق على أن المحاكمة يجب أن تجرى على تهمة الزندقة وحدها .

لدڤينو Ladvenu : [وهو شاب من الدومينيكيين مدَّ التنسكُ فى قوامه فكان جميلا . وكان جالسا بجانب كورسل إلى يمينه] . ولكن حدّثونى ، أفى زندقة الفتاة ضرر كبير ؟ أليست زندقتُها محضَ سذاجة منها ؟ إن القديسين قالوا قَدْرَ ما قالت چان .

المحقق : [تذهب رقّته ويتكلم فى جدٍّ ظاهر] أخى مرتان Martin ، لو أنك رأيتَ من الزندقة ما رأيتُه ، إذن لما استخففتَ بها ولو صدرتْ عن أصول هى أبعد ما تكون عن مظاهر السوء والريبة ، حتى ولو صدرتْ عن أصول حبيبة من التقوى والصلاح . إن الزندقة تظهر أوَّلَ ما تظهر فى أُناس يتراءون فى كل مظهر من مظاهرهم خيراً من جيرانهم : فى فتاةٍ رقيقة صالحة ، أو فى فتى أطاع الله فيما أوصاه ، نخرج للفقراء عن كل

ماله ، ولبس رداء الفقر ، وعاش عيشة الزهد ، وأذلَّ من نفسه ، وسخا بما فى يده . فهذه الفتاة أو الفتى قد يُحدثا بدعة ، إذا هى لم تُدْمَغ بلا رحمة فى حينها هزّت أركان الكنيسة هزًّا ، وقوّضت قواعد الإمبراطورية تقويضاً . إن سجلات ديوان التحقيق مليئةٌ بِقِصَص لا نجرؤ أن نحكيها للعالم ، لأنها فوق تصديق كل رجل طيب وكل امرأة طاهرة . ومع هذا فهذه القصص تبدأ أولَ ما تبدأ كلُّها بقوم بلهاء ، فيهم طِيبةٌ وعليهم قداسة . لقد شاهدتُ هذا يقع المرة بعد المرة . أَنصِتوا لما أقول واذكروه . إن المرأة التى لا ترضى عن لباس المرأة فتلبس لباس الرجل مِثْلُ الرجل الذى يخلع رداء الفرو ليلبس كما كان يلبس حنّا المعمدان . كلاهما يجرّان وراءهما حتما — كما يجرّ النّهارُ الليل — جماعاتٍ من ثائرين وثائرات يرفضون أن يلبسوا لباسا أصلا . إن الفتيات إذا هنّ أَبَيْن الزواج ورفضْن أخذ العهود المعروفة ، والفتيانَ إذا هم رفضوا الزواج وعمدوا إلى شهواتهم فرفعوها فصيّروها إلهامات ربّانية ، فقد بدأوا عهداً يَتْبعه لا محالة — كما يَتْبع الصيفُ الربيع — عهدٌ تتعدد فيه الأزواج والزوجات ، يتلوه عهد تُستحَلُّ فيه مضاجعة المحارم . إن الزندقة تتراءى فى أولها بريئةً ، أو فوق ذلك محمودةً ، ولكنّها تجرّ فى

أعقابها أهوالا فظيعة من خبائث تمجهـا الطبيعة . فلو أنـكم رأيتم الزندقة كما رأيتُها تفعل فى الناس أفاعيلها لقام أرحمكم قلباً يُنحى باللائمة على الـكنيسة أنها تأخذ الزنادقة بمثل هذه الرحمة التى تأخذهم بها . إن ديوان التحقيق قضى قرنين يناهض صنوفاً من هذا الجنون الشيطانىّ . وقد تبيّن له أن هذا الجنون يبدؤه دائماً قومٌ جهلاء مغرورون ، يعارضون بآرائهم آراء الـكنيسة ، وينتحلون لأنفسهم تفسير مشـيئة الله . على أنى أحذّركم أن تقعوا فى الخطأ الذى يقع فيه الناس كثيراً ، فتحسبوا أن هؤلاء البلهاء كذّابون منافقون . فهم يعتقدون صدقاً وإخلاصاً أن وحى شياطينهم وحىٌ من الله . لذلك أسألكم أن تَحْذَروا أن يَغْلب عليكم ما أودعه الله فى قلوبكم من رحمة . نحن جميعاً قومٌ رُحَمـاء ، أو هكذا أرجو أن نكون ، وإلا فـكيف تأتّى لـكم أن تخصصوا حياتكم لخدمة عيسى الحنون ؟ أيها السادة ، بعد هنيهة تقع عيونكم على بُنَيّةٍ صغيرة تقيَّةٍ عفيفة . نعم هى كذلك ، فالأشـياء التى يتحدّث بها أصدقاؤنا الإنجليز لا يَدْعَمها دليل ، بينما الأدلة كثيرة على أن غلوّها الذى غَلَتْ فيه كان غلوّاً فى الدين والمـكرُمات لا فى الدنيـا والدنيّات . وهى ليست من الفتيات التى تدل خشونة تقاطيعهن على جمود قلوبهن . وليست من اللاتى تقضى عليهن

الصفاقة الظاهرة فى وجوههن والقِحَة البادية فى سلوكهن ، قبل محاكمتهن . والعُجْب الذى بثّه الشيطان فيها فانساقت به إلى الموقف الخطير الذى هى فيه لم يترك أثراً على محيّاها . وقد تستغربون إذا قلت لكم إنه لم يترك أثراً حتى على طباعها ، فيما سوى الأمور الخاصة التى تُعجَب بنفسها فيها . لذلك ستجدون فيها عُجْباً شيطانياً ، وتواضعاً طبيعياً ، قد جلسا من نفسها مَجلساً سوِيّا . فإلى هذا فتنبهوا ، ومنه فاحذروا . ومعاذ الله أن أدعُوَكم إلى تقسية قلوبكم ، فإن عقابها — إن نحن قضينا عليها — عقابٌ غاية فى القسوة يُفقدنا الأملَ فى رحمة الله إنْ نحن قضينا به وفى قلوبنا ذرّة من ضغن عليها . إنكم تكرهون القسوة ، وإن كان منكم رجل لا يكرهها فأنا آمره بأن ينجو بنفسه ويفرّ من لعنة الله بترك هذه المحكمة المقدسة توّا . ولكن إنْ أنتم كَرِهتم القسوةَ فاعلموا أن أقسى القساوات أعقاباً تسامحٌ فى زندقة . واذكروا كذلك أن أقسى المحاكم على متّهَم محكمةُ الغوغاء من الناس إذا تجمهروا حول من يظنّونه زنديقاً . أما الزنديق فى محكمة التحقيق ففى مأمن من سخط العامّة ، وهو ضامن محاكمةً عادلة ، وإذا قُضى باتهامه فهو لا يموت إذا هو تاب وأناب من بعد ذلك . كم من زنديق نجا بحياته لأن ديوان التحقيق انتشله من أيدى

العامة . وكم من زنديق نجا بحياته لأن الناس أسلموه طَواعِيةً إلى ديوان التحقيق لينظر فى أمره . وقبل إنشاء الديوان ، وحتى فى هذه الأيام فى المناطق البعيدة عن الديوان ، يشتبه المشتبهون فى الرجل فيتهمونه بالزندقة ، وقد يكون اتهاماً ظالماً جاهلا ، فيُرجَم المسكين بالحجر ، أو يُقطَّع إرَبا ، أو يُقتَل غرَقاً ، أو يحْرَق فى داره هو وأولاده حرقا ، دون محاكمة ، ودون اعتراف يُطهّر نفسه ، ثم هو لا يدفن بعد ذلك إلا كما تُدفَن الكلاب ، وكل هذه أفعال لها من الله كراهةٌ شديدة ، وللانسان منها قسوة متناهية . أيها السادة ، إنى رحيمٌ بطبعى ، رحيمٌ بمنصبى . والعمل الذى يفرضه علىّ منصبى قد يظهر قاسياً عند من لا يدرك أن القساوة الكبرى هى فى الواقع فى رفض هذا العمل . إنى أفضّل الحرق لنفسى على القيام بهذا العمل ، لولا أنى مقتنع بأن العدل بيّنٌ فيه ، والضرورةَ مُلِحَّةٌ به ، وأن الرحمة متغلغلةٌ فى جوهره . فاصْدُروا فى هذه القضية إذا ما صدرتم عن مِثْل هذا الاقتناع . واعلموا أن الغضب بئس الناصحُ فاطّرحوه ، وأن الشفقة قد تذهب بكم مذهباً شراً مما يذهب بكم الغضب ، فاطّرحوا الشفقة . ولكن لا تطّرحوا الرحمة . وغاية الأمر أنْ تذكروا

أن العدالة لها المكان الأول . والآن أعند أحدكم يا سادتى قولٌ قبل أن نستفتح المحاكمة ؟

كوشون : لقد نطقتَ بالذى كان فى نفسى ، وعبَّرت عنه أحسن من تعبيرى . ولا أعلم أن رجلا برأسه عقل يستطيع أن يجادل فى أية كلمة سقطت من فِيك . ولكن عندى كلمة أريد أن أُضيفها إلى كلماتك . إن صنوف الزندقة التى ذكرتموها فيها اخْشِيشان وقلة تهذُّب ، وهى مُفظِعةٌ مُروِّعة ، ولكنّ إفظاعَها وإراعتها كإفظاع الوباء الأسود وإراعته : تثور حيناً ثم تخمد وتموت ، لأن العقلاء الأصائل لن يُغريهم شىء بمضاجعة المحارم ، ولن يحبِّب شىء إليهم تعدُّدَ الأزواج والزوجات وما شابهها من سائر الموبقات . ولكنْ هناك صنفٌ آخر من صنوف الزندقة يواجه المرء حيثما توجَّه فى أوروبا . هى بدعة جديدة تنتشر بين رجالٍ عقولُهم ليست بالضعيفة ولا بالمريضة . بل على النقيض من ذلك ، هى بدعة يزيد العقل استمساكا بها كلما زاد رجاحة وقوة . وهى ليست من البِدَع التى يُضعفها فى رأى الناس تطرّفُ أصحابها فى الخيالات وغلوّهم فى الخزعبلات ، فهى خِلْوٌ من هذا وذاك . وهى ليست من البدع التى يفسدها فى رأى الناس ما تتضمنه من شهوات اللحم المعروفة . ولكنها مع هذا ،

كغيرها من البِدَع ، تَأْذَن للفرد الخاطئ الفانى أن يناهض برأيه الخاص رأى الكنيسة ، وهو رأى وليد الحكمة ونِتاج التجربة الطويلة . إنّ كِيان الكنيسة الكاثوليكية كيانٌ ضخم ثابت ركين ، فهو لن يتزعزع بسبب رجال عُزْىٍ مجانين ، ولا بسبب خطايا كخطايا مُؤاب وعَمُّون(١) . ولكنه كيان قد يُؤْتَى من داخله ، ويخان من جوفه ، ويُنْقَض ويُقَوَّض حتى يكون خرابا يَبابا بمثل هـذه البدعة الكبرى التى يسميها القائد الإنجليزى پروتستنتية Protestantism .

الخبراء : [يتهامسون] پروتستنتية ! ما هـــذا ؟ ماذا يعنى الأسقف بهذه ؟ أهى بدعة جديدة ؟ إنه ذكر القائد الإنجليزى . أَسَمِعْتَ قطّ بالپروتستنتيَّة ؟ ... وهلم جرا .

كوشون : [يستمر فى حديثه] وعلى ذكر القائد الإنجليزى ، أرجو أن أعرف ماذا أعدَّ الإرْل وَرِكْ للدفاع عن السلطة الزمنية إذا ظهر أن الفتاة شديدة المراس صليبة الرأس ، ثم تحرَّك الشعب إلى الرحمة بها .

القس : لا تخش شيئاً من هذه الناحية يامولاى . فالإرل النبيل له على أبواب المدينة ثمانمائة رجل فى السلاح . ففتاتكم لن تُفلت

(١) هما ولدا لوط . انظر نهاية الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين بالتوراة .

من بين أصابعنا الإنجليزية ولو ناصرها أهل المدينة أجمعين .

كوشون : [وقد تضايق فغضب] ألا يجمُل بك ، وقد قلتَ ماقلت ، أن تدعو الله أن يعينها على توبتها والتكفيرِ عن خطيئتها .

القس : يُخيَّل إلىَّ أنى إذا دعوتُ جمعتُ بين النقيضين . ولكن برغم هذا فأنا أوافق سيادتكم على ما تقولون .

كوشون : [يهز كتفيه يأساً منه واحتقاراً له] افتُتحت الجلسة.

المحقق : أحضِروا المتهمة .

لدڤينو : [ينادى] المتهمة . أحضروها .

[تدخل جان من الباب المقبوّ من خلف مقعد المتهمة ، فى حراسة جند من الإنجليز ، وفى رجليها القيد ، ويدخل معها الجلّاد وأعوانه ، ثم هم يسوقونها إلى مقعدها ويحلون القيد عنها ثم يقفون وراءها . وهى فى رداء أسود كأردية الوصفاء والحجاب . وقد ظهرت عليها آثار التعب من طول حبسها ومن جهود التحقيقات التى سبقت هـذه المحاكمة ، ولكنها لا تزل تحتفظ بحيويّتها . وتَلْقَى الحكمةَ بنفسٍ لم تُكْسَر وعزّة لم تُذَلّ ، ولا يظهر عليها أى ارتجاف من هذا الجمع الحاشد فى روعته وهيبته وعبوسته فتُضيِّع عليه بذلك عنصرا جوهريا كان لا بد منه ليبلغ به حدّ المهابة والإخافة] .

المحقق : [فى حُنُوّ] اجلسى يا جان [تجلس على مقعدها] لو نك اليوم متغير يا جان ، فهل أنت مريضة ؟

چان : أشكرك شكرا جميلا . عندى من الصحة الكفاية ، ولكن الأسقف بعث لى شَبُّوطا فأكلت منه فأحدث لى سوءا .

كوشون : أنا آسف ، لقد أمرتهم أن يرسلوه صابحاً .

چان : لقد أردتَ الاحسان إلىّ ، وأعلم هذا ، ولكن هذا السمك لا يوافقنى ، وقد ظن الانجليز أنك أردت سَمِّى .

كوشون } [معاً] ماذا !
والقس } لا ، يا مولاى .

چان : [تستمر فى حديثها] إن الانجليز مصممون على أن احْرَق كما تُحْرَق الساحرات ، لذلك بعثوا إلىّ طبيبهم ليُصِحَّنى . ولكنه أُمِر أن لا يُدمِيَنى ، لأن القوم السفهاء يحسبون أن السحر يخرج من الساحرة عند إدمائها . لهذا اكتفى بسبِّى فسمانى أسماء قذرة . لماذا تتركونى فى أيدى الانجليز ؟ إن الواجب أن أكون فى يد الكنيسة . ولماذا تربطونى إلى ساق من خشب ؟ أخشية أن أطير ؟

دستيفيه : [فى غير رقة] أيتها المرأة ، ليس لك أن تسألى المحكمة ، ولكن نحن الذين نلقى عليك السؤال .

كُورْسل : عند ما حَلُّوا عنك القيد ، أَلَمْ تحاولى الهربَ بالنطّ من برج يبلغ ارتفاعه ستين قدما ؟ فاذا كنت لا تستطيعين

أن تطيرى ، فكيف تفسرين أنك لا تزالين على قيد الحياة بعد هذه النطّة ؟

چان : تفسير هذا أن البرج لم يكن بهذا العلو الذى هو عليه الآن . إنكم منذ أخذتم تسألوننى عن البرج ، أخذ البرج يرتفع يوما بعد يوم .

دستيفيه : لماذا نططتِ من البرج ؟

چان : كيف جاءك أنى نططت ؟

دستيفيه : وجدناك ملقاة فى الخندق حول القلعة ، فلماذا هربتِ من البرج ؟

چان : لماذا يهرب السجين من سجنه إذا وجد مهربا ؟

دستيفيه : إذن أنتِ حاولت الهرب ؟

چان : بالطبع نعم ، ولم تكن هذه أولَ محاولة من نوعها . إنك إذا تركت باب القفص مفتوحاً طار العصفور .

دستيفيه : [ينهض] إن هذا اعتراف بالزندقة ، وإلى هذا ألفِت نظر المحكمة .

چان : زندقة ! يسمى هذا زندقة ! أأنا زنديقة لأنى حاولت الهرب من السجن ؟

دستيفيه : بدون شك . إذا كنتِ فى يد الكنيسة فحاولت

عمداً أن تُفْلتى منها ، فأنتِ إذن تهربين من الكنيسة ، وهذه زندقة .

چان : هذه سخافةُ بالغة لا أظن مغفّلا تبلغ به الغباوة إلى حدّ تصديقها .

دستيفيه : أسمعتَ يا مولاى كيف تسبُّنى هذه المرأة وأنا أؤدى واجبى [يجلس غاضبا] .

كوشون : قد سبق أنْ حذّرتكِ يا چان من هذه الإجابات الوقحة فهى لا تأتيك بخير أبداً .

چان : وماذا أصنع وأنتم لا تكلّمونى بالمعقول . إنكم إذا عَقَلتم عَقَلت .

المحقق : [يتدخّل] أرى هنا خطأً فى الإجراء . إنك ياسيدى المدَّعِى نسيت أن الإجراءات لم تُفتتَح رسميا . إن الأسئلة لا تُلقى عليها إلا بعد أن تَحلف على الإنجيل أنها ستقول الحق كلّه .

چان : إنك تقول هذا لى كل مرة ، وقد قلت لك المرة بعد المرة إنى سأخبرك بكل ما يتصل بهذه المحاكمة ، ولكنى لن أقول لك الحق كلَّه ، إن الله لا يأذَن فى الحق كلّه أن يقال . وحتى إذا أنا قلته فلن تفهمه . والمثل القديم يقول : إن من قال فوق ما يجب أن يقال فمصيره إلى المشانق . إنى سئمتُ هذه

المناقشة . لقد كرَّرناها تسع مرَّات قبل هذه . إنى حَلَفتُ بمقدار ما أريد أن أحلف ، ولن أحلف فوق ذلك أبداً .

كورسل : مولاى ، لا بد من تعذيبها .

المحقق : أسمعتِ يا چان ؟ هذا جواب كل عناد ، ففكِّري قبل أن تتكلمى . أأريتموها آلات التعذيب ؟

الجلّاد : إنها حاضرة يا مولاى وقد رأتها .

چان : لو مزّقتمونى عضواً عضواً حتى تخرج هذه الروح من هذا الجسد ، ما نطق لسانى بشىء فوق ما نطق . ماذا عندى فوق هذا مما تفهمونه ؟ على أنِّى لا أحتمل الألم . فإذا أنتم عذَّبتمونى ، قلت لكم ما تشاءون حتى يذهب الألم فأعود إلى إنكاره ، فماذا أنتم صانعون ؟

لدفينو : هذا كلام معقول . يجب أن نسلك معها سبيل الرحمة .

كورسل : ولكن التقليد جرى بالتعذيب .

المحقق : ولكن التعذيب لا يكون خبْطَ عشواء . إن المتَّهمة إذا اعترفتْ عن رضاً صار التعذيب حراماً .

كورسل : ولكن فى هذا خروجٌ عن المعتاد وتنكُّبٌ عن المعروف . إنها تأبى حَلِفَ اليمين .

لدفينو : أتريد تعذيب الفتاة لغير غرض سوى أن تستمتع بعذابها .

كورسل : ولكنه ليس استمتاعاً ، وإنما هو القانون . إنه العادة . إننا دائمًا نأتيه .

المحقق : هذا يا سيدى غير صحيح ، إلّا أن يكون الرجال المحققون يجهلون موقفهم من القانون .

كورسل : ولكن المرأة زنديقة . إننا دائماً نعذّب .

كوشون : [يقطع فى القول] لن يكون اليوم تعذيبٌ إذا لم تكن ثَمَّـةَ ضرورة ، فليكن هذا فصلَ الخطاب . لن أسمح بإجراء يقال من بعده إننا استندنا فى المحاكمة على اعترافات نُزِعت قسراً . إننا بعثنا لهذه المرأة أحسن وُعّاظنا ، وخير دكاترتنا ، يرجونها وينصحونها ويَحضُّونها على تخليص روحها وجُثمانها من النار ، فهل بعد هذا نبعث الآن لها الجلّاد ليدفع بها فى النار .

كورسل : إنك يا مولاى لاشك رحيم ، ولكن فى الخروج عن المألوف تبعة كبرى .

چان : أنت مغفّل نادر الوجود ياسيدى . « أصنعُ اليوم ما صنعتُه بالأمس » . هذه قاعدتك الغالية ؟

كورسل : أيتها الفاجرة العاهرة ، كيف تتجرئين فتسميني مغفلا ؟

المحقق : صبرا يا سيدى صبرا ، فلن يطول بك الزمن حتى يثأر لك منها شر ثأرة .

كورسل : [متمتما] مغفّل حقا ! [يجلس فى سخط شديد] .

المحقق : وإلى أن يَحِينُ حِين هذا ، علينا جميعاً ألا ننزعج كثيراً لما تفوه به هذه الفتاة . إنها ابنة راع يرعى الغنم ، ولسانها به جانب خشن تُعوزه الملاسة .

چان : لا . أنا لستُ ابنةَ راع ، ولو أنى ساعدت فى رعى الأغنام ككل فتاة غيرى . إنى أعرف من أمور المنزل ما تعرفه سيدته ، فأغزل وأنسج ، وابارى فيها أية امرأة فى رُوَان Rouen .

المحقق : ليس هذا أوان الغرور يا چان . إنك فى خطر كبير .

چان : أعلم هذا . وهل أنسى كيف جُوزيتُ على غرورى ؟ ألم يستهونى الغرور إلى أن لَبستُ ردائِىَ المُذْهَبَ فى الميدان والحربُ قائمة ، فِعْلَ الخرقاء ، فعرفنى جندىّ برجندىّ ، فشدَّنى من ورائى عن حصانى ، ولولا هذا ما كنت اليوم بينكم ؟

القس : إذا كنت تحذَقين أشغال النساء ، فلماذا لا تقبعين فى بيتك وتقومين بها ؟

چان : توجد نساء كثيرات تقوم بهذه الأشغال ، ولكن لا يوجد من يقوم بعملي .

كوشون : اتركونا من هذه الأمور فإنها توافهُ لا نكسب منها إلّا ضياع الوقت . چان : سأسألك سؤالا خطيراً جدا فتأمّلي قبل أن تجيبيه فعليه تتوقف حياتك ونجاتك . هل تقبلين فى كل ما صنعتِ ، خيراً كان أو شرا ، حكمَ كنيسة الله فى أرضه ؟ وعلى الأخص فيما فعلتِ من أفعال ، وقلتِ من أقوال ، يتّهمك بها المدّعِي فى هـذه المحاكمة ؟ هل تُسلمين أمرك فيها للكنيسة تفسّرها بما أوْحى الله ؟

چان : أنا بنت من بنات الكنيسة ، أمينة مؤمنة ، وسأطيع الكنيسة . . .

كوشون : [يميل إليها بصدره فى تلهّف ورجاء] تطيعينها حقا ؟

چان : ما دامت لا تأمرنى بالمحال .

[يعود كوشون فيرتمى فى كرسيه ، وهو يتنهّد يائساً متحسراً . أمّا المحقق فيضغط شفة على شفة ويُعبِّس . وأمّا لدفينو فيهز رأسه راثيا لچان] .

دستيفيه : إنها تنسب الخطيئةَ والسخفَ إلى الكنيسة بقولها إن الكنيسة تأمر بالمحال .

چان : إذا أنتم أمرتمونى أن أعلن أنّ الذى قلتُه وفعلتُه ، وأن الذى رأيته من رُؤًى ، وتجلّى لى من أمور ، لم يكن مأتاه من الله ، فأنتم إنما تسوموننى المحال ، ولا والله ما قبلتُ هذا بشىء فى الدنيا أبدا . إن الذى فعلته باذن الله لا رجعة لى فيه ، والذى أمرنى الله أو يأمرنى به سأفعله برغم كل حىّ . فهذا الذى أعنيه بالمستحيل . فإذا أمرتنى الكنيسة أمرا — مهما كان — ينتقض به أمر الله فلن أطيع للكنيسة أمرا فيه عصيان الله .

الخبراء : [وهم غاضبون مستاءون أشد استياء] أوه ! الكنيسة تنقض أمر الله . هذه زندقة مكشوفة . هـذا كفر لا كفر بعده . . . . وهلم جرا .

دستيفيه : [يرمى بأوراق الاتهام من يده] مولاى : أتريد شيئاً بعد هذا ؟

كوشون : أيتها المرأة ، إن الذى قلتِه الساعةَ يكفى لحرق عشرةٍ من الزنادقة . أَلَا تأبهين للنُذُر ؟ ألا تفقهين ؟

المحقق : إذا قالت لك الكنيسة إن تلك الرؤى التى جاءتك ، وما تجلّى لك من أمور ، إنما جاء به الشيطان ليضلّك به عن سبيل الله ، أفلا تؤمنين بقضاء الكنيسة وبأنها أعقل منك وأحكم ؟

چان : أنا أومن بأن الله أعقل منى وأحكم ، وأمر الله هو

المطاعُ . إن كل الأشياء التي عددتموها عليّ ذنوبا جاءتني من عند الله . وقد فعلتُ ما فعلتُ بأمر الله ، فلا أستطيع أن أقول غير هذا ، فإذا قال رجل من رجال الكنيسة خلاف هذا فلن آبهَ له ، وإنما آبه لله وحده ، ولأمره وحده أطيع .

لدفينو : [يجادلها في توسل كثير] إنك يا بُنيّتي لا تفقهين ما تقولين . أتطلبين الموت ؟ أنصتي إليّ . أتُقرّين بالخضوع لكنيسة الله في أرضه ؟

چان : نعم ، ومتى أنكرتُ هذا ؟

لدفينو : هذا حسن ، ومعنى هذا أنك تخضعين لمولانا البابا ، ولكردنالاته ، ومطارنته ، وأساقفته الذين يمثلهم هنا اليومَ مولانا الأسقف ، أليس كذلك ؟

چان : أنا أخضع لله أوّلا .

دستيفيه : إذن فالأصوات التي تسمعين تأمرك بألّا تخضعي للكنيسة ؟

چان : أصواتي لا تأمرني بعصيان الكنيسة ، ولكن طاعة الله تكون أولا .

كوشون : وأنتِ الحَكَم في ذلك لا الكنيسة ؟

چان : ومن يقضي لنفسي غيرُ نفسي ؟

الخبراء : [وقد استشنعوا ما قيل استشناعا فظيعا ، فلم يجدوا كلمة تؤدى ما وجدوا من شناعة] أوه !

كوشون : لقد أهلكتِ نفسك بلسانك . لقد جاهدنا فى خلاصك من التَّهلُكَة حتى أشرفنا بأنفسنا على التهلكة . وقد فتحنا لك الباب مرة بعد مرة ، وأنت تُغلقينه فى وجهنا ووجه الله فى كل مرّة . فهل تدّعين بعد الذى تقولين أن الذى أنتِ فيه من لطف الله ؟

جان : إذا لم يكن ما أنا فيه من لطف الله ، فانى أسأل الله لطفه . وإن كان ما أنا فيه من لطف الله ، فانى أسأل الله أن يحفظه علىّ .

لدفينو : هذا يا مولاى جواب جميل .

كورسيل : هل كنتِ فى لطف من الله عند ما سرقتِ حصان الأسقف ؟

كوشون : [ينهض غاضبا] لعنة الله على حصان الأسقف وعليك . إنّا هنا ننظر فى قضية زندقة ، ثم لا نلبث أن نصل إلى جوهرها حتى يصدّنا عنه مغفّلون لا يفقهون من الدنيا شيئا سوى الخيل والحمير [يرتجف غضبا ويغصب نفسه على الجلوس] .

المحقق : سادتى ، سادتى : إنكم بإلحاحكم فى هذه التُّهَم التافهة

خيرُ أعوان للفتاة على الفِرار ، ولهذا لم يدهشنى أن ضاق نيافة الأسقف بكم . ماذا يرى المدّعى ؟ أيتشبّث بهذه التُّهَم الفارغة ؟

دستيفيه : واجبى يحتم علىّ أن أتشبث بكل شىء ، ولكنّ المرأةَ كفرتْ كفرا يعود عليها بالطرد من الكنيسة ، فماذا تُغنى مع هذه الكبيرة صغائرُ الذنوب ؟ أنا أُشْرِك مولاى فى ضيقه بهذه الصغائر ، ولكنى بكل احترام أوجّه النظر إلى جريمتين فظيعتين خطيرتين ، لم تنكرهما الفتاة . أُولاهما أنها تخاطب الأرواح الشريرة ، فهى على اتصال بعالم خبيث . وثانيتهما أنها تلبس ملابس الرجال ، وهذا أمر شنيع فيه خروج على الطبيعة ، وإهدار للعفة . ورجوناها ، وعاتبناها ، وتوسلنا إليها أن تخلع هذه الملابس ، فرفضت حتى خَلْعَها لتأخذ القربان المقدس .

چان : هل القديسة المباركة كترينة روحٌ شريرة ؟ وهل القديسة مرغريت روح شريرة ؟ وهل ميكائيل الملك الأعظم روح شريرة ؟

كورسل : وما أدراكِ أن الخيال الذى يبدو لك ميكائيل ؟ أليس يبدو لك عاريا ؟

چان : ولماذا يبدو لى عاريا ؟ أم تحسبُ أن الله فقير لا يقدر على كُسوته ؟

[عند هذه لا يتمالك الخبراء أن يضحكوا لا سيما والضحك واقعٌ ثقله على كورسيل]

لدفينو : أحسنتِ جوابا يا چان .

المحقق : هـذا فى الواقع جواب طيب . ولـكن ليس فى الأرواح الشريرة روح واحدة تبلغ البلاهةُ منها أن تتراءى لفتاة صغيرة فى صورة فاضحة تبعثها على النفور منها ، وهى إنما تريد أن تُوقع فى نفسها أنها رسول العلىّ الأعلى . اسمعى يا چان . إن الـكنيسة تقول إن هذه الأطياف إنْ هى إلا شياطين تستدرجك إلى مواطن اللعنة ، فهل تقبلين ما تقوله الـكنيسة ؟

چان : أنا أقبل رسالة الله ، ولا أدرى كيف يرفضها رجل يخلص الإيمان للـكنيسة ؟

كوشون : أيتها التَّعسة ، إنى أسألك مرة أخرى : أتدرين ما تقولين ؟

المحقق : عِرَاكُكَ يا مولاى مع الشيطان لتخليص روحها عراكٌ فاشل ، ومجهودك فى ذلك مجهود ضائع ، فهى لن تنجو أبداً . [إلى الفتاة] أما عن مسألة اللباس ، فأنا أسألكِ آخرَ مرةٍ أن تخلعى هذا الزىّ الزرىّ ، وأن تلبسى كما يلبس النساء .

چان : لن أفعل .

دستيفيه : [ينقض كالطير الجارح] خطيئة العصيان هـذه يا مولاى !

چان : [تتأزّم] ولكن أصـواتى تقول لى الْبَسى كما يلبس الجنود .

لدفينو : چان ، چان : ألا يُثبت لك هذا أن هذه أصوات أرواحٍ شرّيرة ؟ أتستطيعين أن تذكرى لنا سبباً واحداً يحمل مَلَكا من ملائكة الله على إسداء مثل هذه النصيحة الفاضحة ؟

چان : بالطبع أستطيع . إنها نصيحةٌ منطقها بسيطٌ واضح ما كنتُ أحسب أنه يتعمَّى على أحد . فأنا جنديةٌ عشت بين الجند . وأنا الآن سجينة يحرُسُنى جنود . فاذا أنا لبستُ لِبْسَ النساء ، نظروا إلىّ نظرة الرجال إلى النساء ، فالى أىّ حال كنت أصير عندها ؟ أمّا إذا لبستُ ملابس الجندىّ ، نظروا إلىّ نظرة الجندىّ إلى الجندىّ ، فأَعيش بينهم كما كنت أعيش فى بيتى بين إخوتى . فهذا هو السبب الذى من أجله نصحَتْ لى القديسة كترينة أن لا ألبَس ما تلبَسُ المرأة حتى يجيئنى أمرها .

كورسل : ومتى يجيئك أمرها ؟

چان : يجيئنى عندما تنتشلونى من أيدى الإنجليز وجنودهم . لقد قلت لكم أسلِمونى إلى الكنيسة ولا تتركونى ليلَ نهارَ بين

أربعةٍ من جنود الإرل وَرِك . أبين هؤلاء تريدونى على الظهور فى غلائل النساء ؟

لدفينو : عَلِمَ الله أنّ الذى تقوله خطأ فاضح ، ولكنى أرى فيه ذرّة من فطنة أهل الدنيا قد يجوز مِثْلُها على مِثل هذه الفتاة القَرَوية الساذَجةِ .

چان : لو كنا فى قُرَانا سُذَّجا مثلكم فى محاكمكم وقصوركم لما وجدتم القمح الذى تصنعون منه خبز يومكم .

كوشون : أخى مرتان ، هذا جزاؤك منها على محاولتك دَفْعَ السوء عنها .

لدفينو : يا چان ، إنى أحاول أن أدفع عنك السوء . ومولاى الأسقف يحاول أن يدفع عنك السوء . والمحقق يعطيك من عدالته نفسَ القِسط الذى يعطيه لابنته . ولكنكِ عمياء ، أعماكِ صلفٌ زائد ، وكبرياء تترفّع بك عن معونة الناس .

چان : لماذا تقول هذا ؟ أنا لم أقل ما يسىء . أنا لا أفهم ما تقول .

المحقق : إن القديس أَثَنَسْيوس ، باركه الله ، قرّر فى تعاليمه أن اللعنة تَحِق على من لا يفهمون . فلن يكْفى المرء أن يكون ساذَجا . ولن يكفِيَه أن يكون ما يسمّيه السذّج طيبا . إن سذاجة

البصيرةِ المعْتِمة والقلبِ المظلم كسذاجة البهيم ، سواء سواء .

چان : خذوها عنى : إنّ فى سذاجة البهيم لحكمةً كبرى ، وإن فى حكمة العلماء أحيانا لسخافة كبرى .

لدڤينو : نعلمُ هذا ، ولسنا يا چان من الحماقة بحيث تظنِّين فدعِى هذه الإجاباتِ البذيئة ودافعى الشيطانَ فانه يغريكِ بها . أتدرين هذا الرجلَ الواقفَ وراءك [يشير إلى الجلاد]

چان : [تدور لترى الرجل] أهـذا جلاّدكم ؟ ولـكنَّ الأسقفَ قال إنى لن أُعذَّب .

لدڤينو : لن تعذّبين لأنك اعترفت بكل ما يكفى للحكم عليك بالإعدام . وهذا الرجل لا يعذِّب فحسْب ، بل هو يُميت . أيها الجلاّد ، أجبْ أسئلتى وأسْمِـع الفتاة . أأنت على استعداد لإحراق زنديق فى هذا النهار ؟

الجلاّد : نعم ، سيدى .

لدڤينو : أجهّزتَ الجِذْعَ الذى يُربَط به الزنديق قبل الحريق؟

الجلاّد : نعم سيدى ، نصبه الإنجليز فى السوق ، ونصبوه عالياً حتى لا أستطيع أن أقترب من الفتاة فأجعل موتهـا سريعاً سهلا . إنها ستموت موتة شنيعة .

چان : [وقد دخلها الفزع] ولـكنكم لن تحرقونى الآن ؟

المحقق : لقد أدركتِ المآل أخيراً .

لدفينو : إن على الباب ثمانمائة جندى انجليزى يترقبون اللفظةَ تخرج من قضاتك بالحكم بطردك من الكنيسة لينقضّوا عليكِ فيأخذوكِ إلى السوق للحريق . فهذا مآلك ليس بينك وبينه إلاَّ دقائق .

چان : [تنظر حولها فى حيرة اليأس تطلب النجدة] ربّاه .

لدفينو : لا تيأسى ياچان ، فالكنيسة رحيمة ، وسبيل النجاة لاتزال مفتوحة ، فادخليها .

چان : [وقد دخلها الأمل بعد اليأس] نعم . إن أصواتى وعدتنى بأن لن أُحرَق . والقديسة كترينة أمرتنى بأن أتشجّع وأن لا أخاف .

كوشون . أيها المرأة ، هل إلى هذا الحدّ بلغ بك الجنون ؟ ألا تُدركين بعد كل هذا أن أصواتك قد خدعتْك ؟

چان : لا ، لا . هذا مستحيل .

كوشون : مستحيل ! إن هذه الأصوات ستؤدى بك إلى الطرد من الكنيسة ، ثم إلى هذا الجذع الذى ينتظرك هناك لتُحرَقى عليه .

لدفينو : [يجاهد فى تعزيز الحجة التى بدأها الأسقف] هل وقفْ

لك هذه الأصوات بوعد واحد منذ أسروك فى كُمين ؟ إن الشيطان قد خانك . إن الكنيسة تفتح لكِ صدرها لِترتمِى فيه .

چان : [وقد يئست] نعم ، هذا حق . إن أصواتى خدعتنى ، والشياطين هَزِئتْ بى ، وقد انهار إيمانى . لقد غامرْتُ كثيرا ، وخاطرْتُ ما خاطرْت ، إلا هذه النار ، فلن يَمشِى برجلَيْه طوعاً إليها إلا مخبولٌ معتوه . إن الله الذى منحنى العقل لا يقبل أن أمشى بهذا العقل راضيةً إلى مثل هذه الموتة .

لدڤينو : الحمد لله الذى شاء لك النجاة فى آخر ساعة .

[ثم هو يذهب مسرعاً إلى مقعد خالٍ بجوار الكتّاب ، وينتزع صحيفة من الورق ثم يأخذ فى الكتابة عليها فى رغبة شديدة] .

كوشون : الحمد لله .

چان : وماذا علىّ أن أفعل الآن ؟

كوشون : تُمضِين إشهاداً بإنكار البدعة التى جئتِ بها .

چان : أُمضِى ؟ معنى هذا أنْ أكتب وأنا أُميّةٌ لا أعرف الكتابة .

كوشون : إنكِ أمضيت كُتُباً عدّةً فيما مضى .

چان : نعم . ولكنّ يدا كانت تُمسك بيدى فتَهْديها بالقلم

الذى فيها . على أنى أضع علامتى[1] على ما تريدون .

القس : [وقد كان يصغى فيزداد خوفاً وسخطا على الناحية التى خال أن الحديث سيؤدى إليها] مولاى ، أمعنى هذا أنك تأذن لهذه المرأة أن تُفلِت من أيدينا ؟

المحقق : إن القانون يجب أن يجرى مجراه ، وأنت أيها القس تعرف القانون .

القس : [ينهض وقد ازرقّ وجهه من الغضب] أنا أعرف أن الفرنسىّ خوّان . [يلغط القوم ، فيعلو بصوته على لغطهم] أنا أعرف مايقول مولاى كردينال ونشستر عندما يسمع بهذا . أنا أعرف ما يصنع أرل وَرِك عنـد ما يعلم أنـكم تخونونه . إن على الباب ثمانمائة رجل ينتظرون حتى تُحرَق هذه الساحرة اللعينة وأنوفـكم راغمة .

الخبراء : [فى هذه الأثناء] ما هذا ؟ ماذا قال ؟ يتهمنا بالخيانة ! هذا لايحتمل . الفرنسىّ لا يؤتمن ! أسمعت هذا ؟ هذا رجل لا يطاق . من هو ؟ أهـذا مَثَل القساوسة الإنجليز ؟ إنه مجنون أو سكران . . . وهلمّ جرا .

---

(١) كان من لا يعرف الـكتابة يصنع على الورقة علامة كائنة ما كانت تنوب عن اسمه ويغلب أن تكون رسم الصليب .

المحقق : [ينهض] السكوتَ ، السكوت ، ياسادة ! أرجوكم أن تسكتوا . وأنت أيها القس ، تذكَّر مَنصِبك الكنَسىّ لحظة واحدة . تذكر ما أنت وأين أنت . إنى آمرك بالجلوس .

القس : [يطوى ذراعاً على ذراع ، فى عناد شديد ، ووجهه يختلج اختلاجاً] أنا لا أجلس .

كوشون : سيدى المحقق ، إن هذا الرجل دعانى لوجهى خائناً قبل الآن .

القس : نعم أنت خائن . وأنتم جميعاً خونة . ماذا صنعتم غير الركوع بين يدىْ هذه الساحرة اللعينة تسألونها التكفير عمّا جنتْ .

المحقق : [يهبط إلى مقعده فى اتئاد] إذا أنتَ لم تجلس ، فلا يبقى إلاّ أنْ تقف . وهذا كل ماعندى .

القس : لن أقف [يضغط على « لن » ، ثم يرمى بنفسه فى مقعده] .

لدڤينو : [ينهض وبيده ورقة] مولاى : هـذه صورة التوبة التى تُمضيها الفتاة .

كوشون : اقرأها لها .

جان : لا تتكلفْ هذا العناء ، فأنا أُمضيها .

المحقق : أيتها المرأة ، يجب أن تعرفى ماذَا توقّعين . اقرَأها

لها يا أخى مرتان . وأنتم فاستمعوا له جميعاً .

لدفينو : [يقرأ فى هدوء] أنا صاحبة التوقيع چان ، المعروفة على الأشهر بالفتاة ، أقرّ بأنى مذنبة شقية ، وأنى أذْنَبْتُ أسوأ الذنب فى الأمور الآتية : فقد ادّعيت بالكذب أن وحياً يجيئنى من الله والملائكة والقديسين ، ورفضت فى تمرّدٍ وعناد نُذُرَ الكنيسة بأن هذا الوحى من الشياطين يُضلّون به عباد الله . وقد كفرت أشنع الكفر بارتدائى ملابس لا ترضاها الفضيلة ، فخالفتُ بذلك الكتاب المقدس وقوانين الكنيسة . وكذلك قصصت شعرى كما يقصّه الرجال ، وحملت السيف لسفك الدم البشرىّ ، وأغريت الرجال بذبح الرجال ، واستعنتُ بالعفاريت فى خداع الناس ، ونسبت كل هذا فى كفر بالغ وعناد شديد إلى الله جل جلاله . وإنى بهذا أعترف بالخطايا الآتية : بالفتنة ، وبالوثنية ، وبالعصيان ، وبالعُجْب ، وبالزندقة . وإنى أتبرّأُ الآن من هذه الخطايا جميعها ، وأُقلِع عنها وأطّرحها اطّراحاً . وإنى أشكر الدكاترة والقساوسة فى خضوعٍ أنْ هَدَونى إلى الحق وأدخلونى مرة أخرى فى رحمة الله . ولن أعود إلى أخطائى السابقة . وسأظل فى كنف الكنيسة المقدسة طيّعةً لأبينا الأقدس بابا روما وإنى أحلف على كل هـذا بالله العلىّ العظيم وبالإنجيل الكريم .

وإشهاداً على هذه التوبة أضع اسمى عليها .

المحقق : أفهمته كلّه ياچان ؟

چان : [فى غير اكتراث] واضح جدا يامولاى .

المحقق : وهل هو حقٌ ؟

چان : قد يكون حقا . لو كان باطلا لَمَا جهّزتم لِيَ النار فى السوق .

لدڤينو : [يأخذ قلمه وكتابا ، ويتّجه مسرعا نحوها خشيةَ أن يَصْدر منها ما يُفسد الأمور مرة أخرى] تعالى يا بنيّتى . وخذى القلم ودعينى أُمسك بيدك لتهتدى [تأخذ القلم ويبدآن بالكتابة مرتكزَيْن على الكتاب] جيم . ألف . نون . والآن ضعى علامتك بنفسك .

چان : [تضع علامتها ثم تعطيه القلم ، وهى فى ضيق من ثورة روحها على عقلها وجسدها] هاك !

لدڤينو : [يضع القلم على المنضدة ، ثم يسلّم التوبة إلى كوشون فى كثير من الاحترام] الحمد لله أيها الإخوان فقد عادت الشاة إلى حظيرتها بعد الضلال . والراعى قد فرح لها ، وهى الخاطئة ، أكثر مما يفرح لتسعة وتسعين من الصالحين[1] [يعود إلى مقعده] .

المحقق : [يأخذ الورقة من كوشون] بهذه التوبة نعلن أنك

(١) يشير إلى ماجاء بالإنجيل .

سلمتِ من الخطر الذى كان يتهدّدك ، فلن تُطرَدى من الكنيسة [يرمى بالورقة إلى المنضدة] .

چان : أشكرك .

المحقق : ولكن بما أنك أذنبت فى حق الله والكنيسة المقدسة إذنابا كبيرا ، وادّعيتِ الدعاوَى ، وتغطرست وتكبّرت تكبّراً شديداً فاضحاً ، وبما أننا نرجو لك التكفير عن سيّئاتك إذا أنت تأمَّلْتِها فريدةً وحيدة ، وبما أننا نرجو لك فى هذه الوَحْدة بعداً عن الغواية والرجوع إلى تلك الخطايا ، لهـذا نحكم عليك ، لخير روحك ، ورجاء توبة نرجوها لك تمحو عنك أدران الذنوب وتردُّك فى النهاية إلى الله طاهرةً مُطهَّرة ، نحكم عليك بأن تأكلى خبز الندامة ، وتشربى ماء الكرب ، فى سجن دائم إلى آخر يوم لك على هذه الأرض .

چان : [تنهض فى ذعر وغضب شديد] سجن دائم ! إذن لا تُطلقون سراحى ؟

لدڤينو : [وقد أخذه العَجَب بعضَ الشىء] نطلق سراحك بابنيَّةُ بعد الذى أتيتِ من خبائث ؟ أتحلَمين ؟

چان : إذن فردّ إلىّ الورقة وما كتبتُ عليها [تسرع إلى المنضدة وتنتزع الورقة من عليها وتمزّقها شرّ تمزيق] أشعلوا النار . حياةُ

السجون كحياة الفئران فى الجحور ، خيرٌ منهما النار فدونكم فأوقدوها . ما كذبتْ أصواتى أبداً .

لدڤينو : چان ! چان !

چان : ما كذبت أصواتى . لقد أخبرتنى أنكم مغفّلون ، [تحدث هذه الكلمة استياءاً كبيراً] و نصحتْنى أن لا أستمع إلى كلمات منكم خالبة ، وأن لا أرتكن إلى صَدَقة منكم كاذبة . وعدتمونى الحياة ثم ها أنتم تكذبون [تُسْمَع من القوم ثائرة غضب] . كل حياة عندكم حياةٌ ما نَبَضَ القلبُ فيها . كل حياة عندكم حياة إلا حياةَ الحجر . إنى لا أخشى الخبز والماء . إنى أعيش على الخبز ، فتى سألتكم غيره ؟ وليس فى شرب الماء عذاب ما دام الماء نقيا . ليس فى أكل الخبز عذاب ، ولا فى شرب الماء كرب ، ولكنّ الكربَ والعذاب أنْ تُغلقوا دُونِيَ الأبواب فلا أرى نور السماء ولا بهجة الأرض فى حقولها وأزهارها ، وأن تُقَيّدُونى بالسلاسل فلا أستطيع أن أركب فى الرجال للقتال أو أن أتسلّق الجبال ، وأن تحملونى على أخذ أنفاسى من هواء فاسد فى جوٍّ رطب مظلم ، وأن تضربوا حجابا بينى وبين كلّ شيء من شأنه أن يأخذ بيدى إلى كنف الله ، ويعود بى إلى محبة الله ، وقد كادت تذهب بها من قلبى هـذه الخبائثُ التى تأتون والحماقات التى تصطنعون .

إن ما تعرضون عليّ شرٌّ من تنّور الإنجيل الذى أُحمِى سبع مرّات . إنى أستطيع أن أستغنى عن جواد حربى ، وأستطيع أن أروح وأغدو أجرُّ ذيلَ النساء ، وأستطيع أن أدعَ الأعلام والأبواق والجند والفرسان تمرّ بى وتخلّفنى وراءها كما تخلّف سائر النساء . نعم أستطيع كل هذا إذا أبقيتم لى الريحَ أسمع حفيفه فى الشجر ، والقنبرةَ أسمع تغريدها فى نور الشمس ، والشاة الصغيرة أسمع ثُغاءها وهى تجرى فى الغابة فى صَفْو هوائها وموفور ضيائها ، والأجراسَ أجراسَ الكنيسة تُرسل إلىّ النَّغَم على الريح بأصوات قدِّيساتى . بدون هذه الأشياء لا أستطيع العيش ، فإذا أنتم رأيتم أن تحرمونى منها — إذا أنتم رأيتم أن تحرموا منها أى إنسان ، فهذا رأى يحمل فى طيّاته الدليلَ على أن مأتاه من الشيطان ، ويحمل الدليل كذلك على أن رأيى مأتاه من الله .

الخبراء : [فى اختلاط وجلبة] هذا كفر ! هذا كفر ! إن الشيطان قد ركبها . تقول إن رأينا من عند الشيطان ، وإن رأيها من عند الله ؟ هـذا فظيع . إن الشيطان قد حلّ فينا . . . وهلمّ جرّا .

دستيفيه : [يعلو بصوته على الجلبة] إنها قد ارتدّت إلى زندقتها .

إنها عنيدة لا يمكن إصلاحها . إنها غير جديرة بما بذلنا لها من رحمة . إنى أطلب الحكم بقطعها من الكنيسة .

القس : [إلى الجلاّد] إلى نارك فأشْعِلها . إلى النار بها .

[يخرج الجلاّد وأعوانه إلى الصحن مسرعين] .

لدفينو : أيتها الخبيثة . إذا كان الوحى الذى يأتيك من الله ، أفما كان فى وسعه أن يُنْجِيَكِ مما أنت فيه ؟

چان : إن طرائق الله فى تصريف الأمور غيرُ طرائقكم . إن الله قد شاء أن أرتمى فى أحضانه ولكن عَبْرَ النار . ذلك لأننى ابنته ووليته ، وأنكم لا تستأهلون أن يعيش فيكم مِثلى . فهذه آخر كلماتى إليكم .

[يقبض عليها الجنود] .

كوشون : [ينهض] لا تقبضوا عليها بعد ، فنحن لم نَفْرُغ .

[يكف الجند منتظرين ، ويسود سكوت كسكوت الموت . ثم يتّجه كوشون نحو المحقق يَرمُقه بعين سائلة ، فيهزّ المحقق رأسه إيجاباً . فيقوم الاثنان معاً فى عُبوسة واتّئاد ، فيرتّلون الجمل الآتية ترتيلا ، كلٌّ فى دوره] .

كوشون : نحكمُ عليك بأنّك مرتدّة زنديقة .

المحقق : وبأنكِ مِن الكنيسةِ مطرودة .

كوشون : ومن جسمها مقطوعة .

المحقق : وبجُذَام الزندقة موبوءة .

كوشون : آلةٌ من آلات الشيطان .

المحقق : وفرعٌ خبيث وَجَبَ اجتثاثُه من شجرة الإيمان .

كوشون : فنحن نطردكِ ونقطعك ، ونتركك للسلطة الزمنية تفعل فيك ما تشاء .

المحقق : ونُنْذِرُ السلطةَ المذكورة أن تَقصِد فى حكمها عليك فيما يختص بالموت وتقطيع الأعضاء [يجلس] .

كوشون : ونأذن لأخينا مرتان أن يتقدم لك بمراسم التوبة إذا بدت منك أية بادية للتوبة .

القس : إلى النار بالساحرة [يندفع إليها ، ويساعد الجند على دفعها وإخراجها] .

[يخرج الجند بجان عن طريق الصحن ، فينهض الخبراء ويخرجون وراءهم فى غير نظام ، إلاّ لدفينو ، فيُرى مكانه وقد أخفى وجهه فى كفّيه] .

كوشون : [كان قد همّ بالجلوس ، ولكنه لا يكاد يرى ما فعل القس حتى يعود إلى النهوض] لا ، لا . هذا خُرقٌ فى الإجراء . يجب أن يحضر نوّابُ السلطة الزمنية ليتسلّمُوها هنا منّا .

المحقق : [يقف كذلك] إن هذا القس رجل جهول لا شفاء لجهله .

كوشون : أخانا مرتان ، اذهبْ وارقبْ مايصنعون . يجب عليهم ألا يخرجوا على القانون .

لدفينو : إن واجبي أن أكون إلى جانبها الآن ، فارقُبْ أنتَ ما يصنعون ، واستخدم أنت سلطتك فى حماية القانون [يسرع فى الخروج] .

كوشون : إن هؤلاء الإنجليز لا يطاقون . إنهم سيقذفون بها فى النار دون إمهال . انظر !

[يشير إلى الصحن ، وقد ظهرت فيه النار واشتد ضياؤها واضطرب فاحمرّ منه وَضَحُ النهار . ولم يكن بقى فى قاعة المحكمة غير الأسقف والمحقق] .

كوشون : [وقد همّ بالنهوض] لا بدّ أن نقِف هذا .

المحقق : [فى هدوء] نعم . ولكن إياك والعجلةَ الزائدة يا مولاى .

كوشون : [يتمهّل فى نهوضه] ولكن ليس فى الوقت سَعَة .

المحقق : يجب أن نعمل فى حدود النظام التام . وإذا اختار الإنجليز سبيلا معوجًا فليس من واجبنا تقويمُهم . وغلطةٌ فى الإجراء الآن قد تكون نافعة لنا فى المستقبل . فمن يدرى ؟ وعلى كل حال فمن صالح الفتاة أن ينتهى أمرها سريعاً .

كوشون : [يسترخى فى جلسته] هذا حق . أظن أنه لا بد لنا من الصبر حتى ينتهى هذا الأمر .

المحقق : ستتعوّد هذا يا عزيزى الأسقف . إن المرء ربيب العادة . إنى قد اعتدت النار . إنها لا تلبث أن تنتهى . ولكن الأمر الفظيع فى كل هذا رؤيةُ فتاة صغيرة ومخلوقة بريئة تحطم عظامها بين قوّتين هائلتين ، قوةِ الكنيسة وقوة القانون .

كوشون : أتسمّيها بريئة !

المحقق : نعم فى غاية البراءة . ماذا تفهم هى من الكنيسة ، وماذا تفهم من القانون ؟ إنها لم تفهم كلمة من كلماتنا . إن الجاهل هو الذى يحيق به العذاب . هيّا بنا وإلّا فاتنا الختام .

كوشون : [يذهب معه] أنا لا آسف إن فاتنا ختامها ، فأنا لم أتعوّد مثلك هذه الخواتيم .

[وبينما هم يخرجون ، يدخلُ وَرِك فيلقاهم] .

ورك : أوه ! أنا متأسف على دخولى ، فقد ظننت أن الأمر انتهى [يتصنّع الخروج] .

كوشون : لا تخرج يا مولاى ، فقد انتهى كل شىء .

المحقق : إن إعدامها ليس فى يدنا يا مولاى ، ولكن من

المرغوب فيه أن نشهد الخاتمة . فمن إذنك ... [ينحنى ثم يخرج عن طريق الصحن] .

كوشون : يوجد شك فى أن مواطنيك اتّبعوا القانون يا مولاى .

ورك : قيل لى إن هناك شكا فى أن سلطتك تجرى على هذه المدينة يا مولاى . إنها ليست فى أبرشيَّتك . وعلى كل حال فإذا أنت تحمَّلت التّبِعَة فى هذه ، تحمَّلتُ أنا التبعة فيما بقى .

كوشون : إنَّا جميعاً سنُسأل عن هذا أمام الله . فصباحَ الخير يا مولاى .

ورك : مولاى ، صباح الخير .

[يتراشقان بنظرات مكشوفة العداء . ثم يخرج كوشون فيتبع المحقق. أما ورك فيبقى ، ثم ينظر حوله فلا يجد أحداً ، فينادى فى طلب أحد] .

ورك : هالو ! هل من رجلٍ هنا ! [سكوت] هالو ! هل من رجل ؟ [سكوت] هالو ! بريان Brian ! يا ولد يا خبيث ، أين أنت ؟ [سكوت] أيها الخفراء ! [سكوت] ذهب الكل ليشهدوا الحريق ، حتى هذا الولد الصغير .

[يقطع السكوتَ صريخ رجل يبكى ويُعوِل إعوال المهاويس] .

ورك : ما هذا الذى أسمع ...؟

[يدخل القس من الصحن مترنحاً كالمخبول ، ودمعه يجرى على وجهه مدراراً . وهو الذى كان يصرخ هذا الصريخ المؤلم الذى سمعه ورك . يدخل ويمشى فى غير اتزان إلى كرسى المتّهَمة فيرتمى عليه وهو يعول إعوالا يفتّت الأكباد] .

ورك . [يذهب إليه ويربّت على كتفه] ما هذا ياسيد چون ؟ ما الذى جرى ؟

القس : [يقول لورك وهو يمسك بيديه متوسّلا] مولاى ! مولاى ! بحق المسيح صَلِّ على روحِيَ المذنبةِ الشقيّة .

ورك : [يهدّئ من روعه] نعم ، نعم . بالطبع سأفعل . ولكن مهلا ، رويداً . . .

القس : [يبكى بكاء شديداً مرّا] هل أنا رجل فاسق يامولاى ؟

ورك : لا ، لا ، أبداً .

القس : إنى ما قصدت شرا . إنى لم أكن أدرك هذا المنظر كيف يكون .

ورك : [يتصلّب بعد لين] آه ! أنت رأيته ؟

القس : إنى لم أدْرِ ما كنت أصنع . إنى جهول متهوّر أخرق . ستقع علىّ لعنة الله من أجل ما صنَعت .

ورك : لا ، لا . إن الحادث بالطبع حادث مؤلم ، ولكنه لم يكن مِنْ فعلك .

القس : [وهو يتفجّع] أنا الذى جعلتهم يفعلونه . لو أنى عرفت من قبل ما أعرفه الآن لا نتزعتها انتزاعاً من أيديهم . إنك لا تعرف ما أعرف . إنك لم ترَ ما رأيت . إن الكلام مع الجهل يسير . إن المرء يخدّر عقله بالكلام حتى لا يبقى منه إلا ما يبقى للمجانين . إن المرء يصبّ اللعنة على رأسه ، لأنه يلتذّ صبّ الزيت على جهنمَ المتأججة من نار غضبه . حتى إذا تكشّف له الأمر فى صميمه — حتى إذا تكشّف له ماصنعت يداه قبيحاً ذميماً فأعمى بصره ، وأخذ بخُنّاقه فحبس أنفاسه ، وأمسك بقلبهِ فقبّضه وضيّقه حتى كاد يمزقه — عندئذ — عندئذ ... [يسقط على ركبتيه] . يا إلٰهى أبْعِدْ هذا المنظر عن عينى . يا إلٰهى أطْفِئْ هذه النار بين جوانحى . لقد صرخَتْ إليك وألسنةُ النار تندلع إليها . رباه ، رباه ، رباه . إنها الآن فى كنفك ، أما أنا ففى الجحيم إلى أبد الآبدين .

ورك : [يرفعه فى غير اتئاد حتى يقف على رجليه] قم ، قم ، يارجل . تصبَّرْ ، تصبَّرْ ، وإلاّ تحدّثت المدينةُ كلها بهذا [يرمى به فى غير لطف كثير على كرسى إلى جانب المنضدة] إذا لم يكن لك من أعصابك

ما يحتمل هذه المناظر فلِمَ لا تغيب عنها كما أغيب ؟

القس : [وهو مشتت الفكر فاقد الإرادة مخذول] إنها طلبت صليباً ، فربط لها جندى عودين وأعطاها إياها . شكراً لله أنه كان انجليزيا . لقد كان فى وسعى أن أصنع ما صنع ، ولكنى لم أفعل . إنى نذلٌ جبان . أنا كلب مكلوب . أنا مغفّل . ولكنه كان مثلى انجليزيا .

ورك : يا لَلْمغَفّل . إنهم يحرقونه لو استطاع القُسُسُ إمساكه .

القس: [يصيبه التشنُّج فيرتج] بعض الناس ضحكوا منها . هؤلاء كانوا يضحكون من المسيح لو أنهم حضروه . إنهم كانوا فرنسيين يامولاى . أنا أعلم أنهم فرنسيّون .

ورك : صه ! بعض الناس قادم ، فتماسكْ .

[يدخل لدفينو من مدخل الصحن ، فيمر على يمين ورك ، وهو يحمل صليب أسقف كان قد أخذه من كنيسة . يدخل وهو هادئ النفس ، ولكن وجهه عابس] .

ورك : أُخبِرْتُ أن الأمر انتهى ياأخانا مرتان .

لدفينو : [يُلغز فى القول] لا ندرى يا مولاى ، فلعلها البداية .

ورك : ماذا تعنى بالضبط ؟

لدفينو : إنى أخذتُ لها هذا الصليب من الكنيسة لتظل تراه للنهاية . إنه لم يكن لديها صليب غيرُ عودين وضعتْهما على صدرها تحت ردائها . فلما استعرت النار وزحفتْ حولَنا ، رأت أنى لو بَقِيتُ أحمل الصليب أمام عينها لامتدَّت إلىَّ النار فأحرقتنى . عندئذ أنذرتْنى وسألتْنى أن أنزل وأنجو بنفسى . مولاى : إن فتاة تستطيع وهى فى مثل هذه المحنة أن تَصرف من بالها إلى خير غيرها فتاةٌ لا يمكن أن يكون الشيطان قد أَوْحَى إليها . وعندها اضطررتُ أن أنتزع نفسى والصليبَ من موقف الخطر الذى كنت فيه . فلما اختَفَى الصليبُ عن نظرها ، أشاحت بوجهها إلى السماء . ولستُ أظن أن السماء عندئذ كانت فارغة . إنى موقن أن الله تجلّى لها ، فلما رأت وجهه مؤاسياً حنّاناً ، هتفت باسمه ، ثم ماتت . فهذه ليست النهاية لها ، بل البداية .

ورك : أنا أخشى أن يكون لما حدث أثر فى الناس .

لدفينو : لقد كان له أثر فعلا يا مولاى — فى بعضهم . لقد سمعت ضحكا ، سامِحْنى إذا قلت إنى أرجو وأعتقد أنه ضحكٌ من انجليز .

القس : [ينهض كالمجنون] لا . لم يكن من انجليز . لم يكن هنالك إلا رجل انجليزى واحد عَرَّ قومَه ، رجلٌ فاسق ، كلبٌ

مسعور ، هو أنا دى اسْتُوجَمْبر [يخرج هائما على وجهه وهو يصرخ] فلْيعذبوه . فليحرقوه . سأذهب فأصلّى على رمادها . أنا يهودا ، ليس بيننا خيار . سأشنق نفسى .

ورك : أسرعْ ، أسرع إليه ، يا أخانا مرتان . إليه ، إليه قبل أن يُحدث سوءاً بنفسه .

[يخرج لدفينو مسرعا ويحثه ورك فى خروجه . ثم يدخل الجلّاد من الباب الذى يقع خلف مِنصة القضاء ، فإذا عاد ورك لقى الجلادَ وجها لوجه] .

ورك : مَنْ أنت يا رجل ؟

الجلاد : [فى وقار] أنا لا ينادينى أحد برجلٍ يا مولاى . أنا أستاذ الجلادين فى مدينة رُوَان ، والجِلادة صناعةٌ صعبة تحتاج إلى حذق كثير . إنى أتيت لأخبر مولاى أن أوامره قد انفِذت .

ورك : أسأل عفوك ومعذرتك يا أستاذ الجلادين . لقد ضاع عليكَ ما كنتَ تبيعه للناس من بقايا القتيلة ، ولكنى سأعوّضك عن هذا . أنت وعدتنى أنك لن تُبقِى على شىء منها ، فلا عظمةَ ولا ظُفر ولا شعرةَ .

الجلاد : إن قلبها أبى أن يحترق يا مولاى ، ولكنْ كلُّ

ما تخلفَ منها فهو فى هذه الساعة فى قاع النهر . لقـد سمِعْتَ يا مولاى آخرَ ما يُسمَع عنها .

ورك : [فى ابتسامة مرّة ، وهو يذكر ما قال لدفينو] آخرَ ما يُسمع عنها ؟ ليت شعرى أهذا آخره !

المنظر الختامى

[ليلةٌ عصيبة من ليالى يونيه عام ١٤٥٦ ، شديدة الريح مضطربة ، جاءت بعد أيام شديدة الحرّ من أيام الصيف ، فكثر من أجل ذلك برقها ودَوِىّ رعدها . أما المكان فحجرة نوم فى قصر ملكىّ بها سرير رقد عليه شارل السابع ملك فرنسا ، وهو المعروف قديما بالدُوفين . أما الآن فلقّبوه شارل الفاتح . وهو فى عامه الحادى والخمسين . وفى أوسط الحجرة نافذة شكل أعلاها كسنّ الرمح . وقد وضع السرير على مِنصّة ترتفع عن الأرض درجتين ، وذلك فى جانب من جوانب الحجرة لكى لا يحجب النافذة . وأظلّت السرير مِظلّةٌ نُقشت عليها شارة الملك . ولولا هذه المِظلّة ، ولولا وسادات من الريش هائلة ، لما فرّق الإنسان بين هذا السرير وبين أريكة عريضة فُرِشت عليها مُلاءاتٌ وعُلِّقت ستائر . من أجل هذا كان النائم مكشوفا كله للناظر إليه من ناحية رجليه] .

[ولم يكن شارل نائما ، بل كان راقدا يقرأ فى فراشه ، أو على الأصح كان يطالع صُوَرا فى كتاب لفوكيه[1] ، وقد ثنى ركبتيه ليتخذ منهما للكتاب مسندا . وكان إلى يساره ، إلى جانب السرير ، مِنضدةٌ عليها صورة للعذراء مريم تضيئها شموع مصبوغة . وعلى الحوائط عُلّقت ستائر

(١) هو جان فوكيه Jean Fouquet رسام فرنسى شهير من الذين أسسوا الفن الفرنسى ولد فى عام ١٤١٥ ومات فى عام ١٤٨٠ . وصور لشارل السابع صورة معلقة اليوم فى متحف اللوفر بباريس فهو من معاصريه .

منقوشة فسترتْها من السقف إلى الأرض ، وكانت تضطرب فى مهب الريح . وكانت هذه الستائر المصوَّرة أبينُ ألوانها الأصفر والأحمر ، فكلما انفرجت مع الريح تراءت للناظر أوّلَ وَهْلةٍ كأنها ألسنة اللهيب] .

[وكان باب الحجرة على شمال شارل وأمامَه ، قريبا من أبعد ركن منه . وكان فى الفراش ، فى مُتَناوَل يده ، جرسٌ جميل الصُّنع مزوّق كالذى يستخدمه الخفراء للانذار إذا أوجسوا خيفة] .

[ويقلّب شارل صحيفة من الكتاب . وتدقّ ساعة بعيدة دقا يُسْمَع خفيفا يؤذن بانتصاف الساعة . فعندها يطبق شارل الكتاب ، فيُسْمَع صوت إطباقِه ، ثم يرمى به جانبا . ثم يمد يده إلى الجرس فيهزه هزا عنيفا فيحدث صوتا يُصِم الآذان . عندئذ يدخل لدفينو على الملك ، فيمشى إليه مِشية اتئادٍ فيها الصلابة والغرابة ، وقد تقدم به السن خمسة وعشرين عاما فوق ما عهدناه ، وهو لا يزال يحمل الصليب الذى كان حَمَلَه فى رُوَان عند ما حُرِقت چان . ولم يكن شارل ينتظره ، فهو لذلك يفزع منه ويرمى بنفسه خارجَ سريره إلى الجانب البعيد عن الباب] .

* * *

شارل : من أنت ؟ أين وصيف الحجرة ؟ ماذا تريد ؟

لدفينو : [وهو جادٌّ متوقِّر] إنى آتيك بأخبار عظيمة سارَّة ، فافرح أيها الملك ، فاللَّوثة التى فى دمك قد طُهِّرت ، والوصمة التى بتاجك قد غُسِلت ، والعدل الذى تأخّر طويلاً ، قد فاز أخيراً .

شارل : من أنت ؟ وما الذى تقوله ؟

لدفينو : أنا الأخ مرتان .

شارل : ومَنْ يكون الأخ مرتان ، ولا مؤاخذة ؟

لدفينو : أنا الذى حملتُ هذا الصليب لمّا احْرِقَت الفتاة .
وقد مضى الآن على إحراقها خمسة وعشرون عاماً : نحوٌ من عشرة آلاف يوم . وفى كل يوم من هذه الأيام دعوت الله أن يبرِّئ فتاته على الأرض كما برّأها فى السماء .

شارل : [وقد عاد إليه اطمئنانه فجلس على ذيل السرير] أى نعم أذكر الآن . لقد سمعتُ باسمك . إن بك مَسًّا من الفتاة لا يفارقك . أحضرتَ التحقيق ؟

لدفينو : وشَهِدتُ فيه ؟

شارل : هل انتهى ؟

لدفينو : نعم قد انتهى .

شارل : بخير ؟

لدفينو : إن لله طرائق غريبة .

شارل : وكيف هذا ؟

لدفينو : فى المحاكمة القديمة قضى القضاة بالزندقة على قديسة ، فأُرسِلتْ بسبب هذا إلى النار لتلقى جزاء الزنديقات الساحرات .

فى تلك المحاكمة جرى الحق على ألسنة القائلين ، واجريت الإجراءات فى حدود القانون ، وبُذِل للفتاة فوق المألوف من رحمة الراحمين ، فلم يقع فيها من أخطاء إلا ذلك الختام الأسود من حُكمٍ كاذبٍ ونارٍ تأكل ولا ترحم . أما فى هذه المحاكمة الحاضرة التى خلقتُها الآن ورائى فقد وقعتْ فيها الأيْمان الحانثة ، والدعاوَى الكاذبة ، ووقع فيها الفساد مزوّقا ، ووقع فيها تجريح لموتى قاموا فى إخلاص بما تراءى لهم أنّه الواجب الذى لا مِرْية فيه . ووقع فيها غير ذلك يامولاى خروج عن موضوع القضية سوّل إليه الجبن ، ووقعت شهاداتٌ بأقاصيصَ لا تجوز على أبله . ولكن أتدرى ماذا خرج من هذا التلويث للقضاء ؟ ومن هذا التشنيع على الكنيسة ؟ ومن هذا المعترك الذى غلب فيه الكذبُ والغباء ؟ خرج منه الحق أبْلَجَ واضحاً كأنه قمة الجبل والشمسُ من فوقه . خرج منه ثوب البراءة ، وقد غُسِل ما عليه من سُخام الحطب . فحياة القديسة مُجِّدت . والقلب الصادق الذى عاش رغم النار قد قُدّس . والأكذوبة الكبرى قُطِع لسان من افتراها إلى الأبد . والغلطة العظمى قد صُحِّحت أخيراً على مشهد من الناس أجمعين .

شارل : يا صديق ، ما دام أن الناس لن تقول الآن إن التى

توّجتْني ساحرةٌ زنديقة ، فلستُ أُبالى كيف حَلَلْتم العقدة . وچان ما كانت لتبالى ما دام الختام طيباً . إنها لم تكن من هذا الصنف المتزمّت . إنى أعرفها جيداً . والآن هل تم ردُّ اعتبارِها إليها ؟ إنى أوضحت لهم أنى لن أقبل هَوادة فى هذا .

لدڤينو : نعم ، فقد أعلنوا على رؤوس الأشهاد أن قضاتها الأقدمين كانوا مُفسدين غشّاشين نصّابين حقودين . أربعة أكاذيبَ يا مولاى .

شارل : لا تَحفل بهذه الأكاذيب فقضاتها قد ماتوا .

لدڤينو : لقد أُلغى الحكم القديم إلغاء تاما ، واعتُبر كأنه لم يكن فلا قيمة له ولا أثر .

شارل : هذا جميل . إذن فلن يستطيع الآن أحدٌ أن يتحدّى صحة تتويجى ؟

لدڤينو : تتويجك الآن كتتويج الملك داوود وشرلمان . كلها فى القدسيّة سواء .

شارل : هذا غاية الأمل . تصوّر خطرَ هذا عندى .

لدڤينو : إنى أتصوّر خطره عندها .

شارل : إنك لا تستطيع ذلك ، فليس منا من عرف كيف كانت تقوِّم الأشياء . إنها مخلوقة اختلفتْ عن كل الناس . وهى

لا بد كافلةٌ أمورَ نفسها بنفسها أينما حلّتْ ، فأنا لا أستطيع أن أرعاها ، وأنت لا تستطيع أن تَرعاها ، ومهما ظننتَ بها ، فأنتَ فى نظرها دائما دونها قدراً . أنصتْ إلى ما أقوله فيها واحفظْه عنى : إنك لو استطعت بعثها من جديد فأنا ضامن لك أن هؤلاء الناس يحرقونها فى ستة أشهر أو دونها برغم ما هم فيه اليوم من حبها وتقديسها ، وأنك ستقوم بحمل الصليب عند حرقها كما فعلْتَ فى المرة الأولى ، فاقطع ما بينك وبينها ، ودعْها وشأنَها [يصلّب على نفسه] مستريحةً فى قبرها ، ودعْنا من الخوض فيها ، فحسْبُكَ شؤونُك وحسبى شؤونى .

لدفينو : أعوذ بالله من قطيعة تمنعنى حظى منها ، أو تمنعها حظّها منّى . [ثم هو يدور فيتجه إلى الباب ليخرج فى خطى واسعة ، كما دخل أولا ، وهو يقول] مِنَ الآنَ لن تطأ قدمى أرضَ القصور ولن يجرى لسانى بالحديث إلى الملوك .

شارل : [يتبعه إلى ناحية الباب وهو يصيح خلفه] أرجو لك الخير الكثير من ذلك يا ولىَّ الله ! [يعود إلى وسط الحجرة ، ثم يقف يحدّث نفسه] إن هذا رجل عجيب . كيف يا تُرَى دخل هنا ؟ أين رجالى [يذهب جازعاً إلى السرير فيهز الجرس . وعندها تهب فى الحجرة من الباب المفتوح هبّةٌ من الريح تضطرب لها الحوائط اضطراباً ،

وتنطفئ الشموع فينادى فى الظلام] هالو ! أحداً يدخل فيُغلق النوافذ فالريح تطير بالأشياء . [يلمع البرق فتضيء النافذة ، فتظهر فيها صفحة من شبح إنسان] من هذا ؟ من هنا ؟ المعونة ، النجدة ! قاتل ! قاتل ! [يقصف الرعد ، فيقذف بنفسه فى السرير ويتستّر فيه باللحائف] .

صوت چان : مهلا يا شارلُ مهلا . ما هذا الصراخ . إنه لن يسمعك أحد . أنت نائم [تتراءى چان إلى جوار السرير فى غير وضوح كبير فى ضوء أخضر باهت] .

شارل : [يُطلُّ من تحت اللحاف] چان ! أأنتِ روحها ياچان ؟

چان : ولا هذه يافتى . كيف تكون روحٌ لفتاة مسكينة محروقة ؟ إنما أنا حُلمٌ أنت حالمه [يزيد الضوء ، ويعتدل شارل ويجلس ، فيظهر الاثنان ظهوراً بيّناً] أنتَ أكبر مما كنتَ يافتى .

شارل : نعم قد زادت سنى . ولكن حدّثينى ، أحقا أنا نائم ؟

چان : غلبكَ النوم وأنت تقرأ فى كتابك السخيف .

شارل : هذا عجيب .

چان : أعجب منه أنى ميّتة .

شارل : أحقا أنت ميّتة ؟

چان : ميّتةٌ كأتمّ ما مات إنسان . لقد خرجتُ عن جسدى .

شارل : عجيب جدًّا والله . هل آلمك كثيرا ؟

چان : ما الذى آلمنى كثيرا ؟

شارل : الحرق .

چان : آه ! الحرق ! إنى نسيت فما أكاد أذكر . أظن أنه آلمنى أوّلا ، ولكن بعدها اختلطت الدنيا فلم أسترجع صوابى إلاّ بعد أن خَلَصْتُ من جسدى . ولكنى أوصيكَ ألا تلعب بالنار ظنا منك أنها لا تؤلم . كيف حالك من بعدها ؟

شارل : حال لا بأس به . أتعلمين أنى قُدْت جيشى بنفسى وكسبت وقائع ؟ ونزلت فى الخندق ، فى الماء والدماء ، إلى خصرى ؟ وصعدت السلالم على جدران القلاع والسماء تمطر حجرا وقطرانا ساخنا من فوقى ؟ فعلتُ ما كنت تصنعين ياچان .

چان : حقا ! إذن فقد خلقتُ منك رجلا بعد يأس طال ياعزيزى شارل .

شارل : أنا أُسَمَّى الآن شارلَ الفاتح . لقد وجب أن أتشجّع لأنكِ كنت شجاعة . كذلك أَجْنِس Agnes حَبَّبَتْنِى بعض الشجاعة .

چان : أجنس ؟ مَنْ أجنس ؟

شارل : أجنس سُوريل Agnes Sorel . إنها المرأة التى

أحببْتها . أنا أحلمُ بها كثيراً — أنا لم أحلم بك قبل الآن أبدا .

چان : هل ماتت مثلى ؟

شارل : نعم . ولكنها لم تكن مثلك . إنها كانت جميلة جدا .

چان : [تضحك مِلْءَ فيها] ها ، ها ! أنا لم يكن بى جمال . أنا كنت دائما جِلفةً جافية ، جندية في جنود ، حتى كدت أكون رجلا ، ويا ليتنى . فعندها ما كنت أحدثْتُ لكم جميعا كلَّ هذه المتاعب . ولكن همِّى كان فى السماء ، ومجدُ الله مِلْءَ نفسى . فرجلا كنتُ أو امرأة ، لم يكن بدٌّ من إزعاجكم ما ظلّت أنوفكم فى الوحل مغروزة . وعلى كل حال قلْ لى ماذا جرى بعد أن ضاقت بكم الحِيَلُ معشرَ الحكام فلم تجدوا منها مخلصا إلا أن تصنعوا منى كَوْمَةً من رَماد .

شارل : إن أمك وإخوتك طلبوا إلى المحاكم أن يعيدوا النظر فى قضيتك . فقضت المحاكم بأن قضاتك الأقدمين كانوا مفسدين غشّاشين نصّابين حقودين .

چان : إنهم ما كانوا كذلك . إنهم كانوا جماعةً من جهّال مساكين لم يقلّوا إخلاصا عن نظائرهم ممن قضوا بحرق مخلوقات هى خيرٌ منهم .

شارل : إن الحكم الذى أصدروه عليك قد أُلغى إلغاءً ومُسح

مسحا ، فهو معدوم كأن لم يكن ، فلا قيمة له ولا أثر .

چان : أنا أُحرِقتُ على كل حال . أيستطيعون إلغاء ما كان من حرق ؟

شارل : إنهم لو استطاعوا إلغاءه لترددوا فيه . إنهم قرروا أن يقام صليب جميل حيث قام جِذْع الحريق ، وذلك للرحمة والذكرى .

چان : إن الصليب لا يبرِّر الرحمةَ والذكرى ، بل الرحمة والذكرى هما اللتان تبرِّران الصليب . [تدور مشيحةً عنه ، وقد غفلت عنه] إنى سأعيش فى الناس فوق ما يعيش هــــذا الصليب . وسيذكرنى الناس إذا اُمحتْ رُوَانٌ فلم يذكروا أين قامت .

شارل : ها أنتِ تروحين وغرور يومك كغرور أمسك ، لم ينقص أبدا . كان بك أولى وأجمل أن تشكرى لى صنيعى أنْ حقّقتُ لك العدالةَ أخيراً .

كوشون : [يظهر عند النافذة ، بينهما] كذبت !

شارل : أشكرك .

چان : من هذا ؟ لكأنى به بطرس كُوشُون ! كيف حالك يا بطرس ؟ وأى القِسَم أعطاك الزمان بعد أن أحرقتنى ؟

كوشون : قِسمةَ السوء . إنى أشكو عدل الإنسان . إنه ليس من عدل الرحمن .

چان : ألا تزال تحلم بالعدل يا بطرس ؟ ألم تر ما جرّه العدل عليّ ؟ ولكن قل لى ماذا جرى لك ؟ أحيّ أنت أم ميّت ؟

كوشون : ميّتٌ مهتوكُ العِرض مَهِين . لقد تَبِعونى وراء الموت ، فنبشوا قبرى ، واستخرجوا جسدى ورمَوا به فى المجارى التى تحمل أقذار الناس .

چان : جسدكَ الميّتُ لم يُحسّ المِعولَ ولا المجارى كما أحسّ النارَ جسدى الحى .

كوشون : ولكنها فَعْلةٌ تؤلم المدالة ، وتفسد الإيمان ، وتزعزع أركان الكنيسة . إن هذه الأرض الجامدة لَتمِيد كالبحر الخوّان تحت أرجل الرجال ، أجسادِهم وأرواحِهم على السواء ، إذا ما قُتِّل الأبرياء باسم القانون ، ثم بُرِّئَتْ ساحتهم بتجريح قوم بيضِ القلوب أطهار .

چان : على كل حال ، أرجو يا بطرسُ أن يَصْلح الناس على ذكرِى . وهم ما كانوا ليذكرونى لولا أنكم أحرقتمونى .

كوشون : سيَفسُد الناس على ذكرِى ، فهم سيرون فىّ الشرّ ينتصر على الخير ، والكذب على الصدق ، والقسوة على الرحمة ، وجهنّم على الجنّة . فهم إذا ذكروكِ انتعشت قلوبهم ، وهى تخور إذا ذكرونى . ومع هذا فالله يعلم أنى كنت عَدْلا فيما

قضيت ، رحيما فيما أتيت ، مخلصاً فى قرارة قلبى للذى ارتأيت ، وما كان فى طَوْقى أن أصنع غير ما صنعت .

شارل : [يخرج من ألحفته فى غير نظام ، ويجلس على جانب السرير جِلسته على سرير المُلْك] نعم ، نعم . إن أكبر الفساد يأتى منكم أنتم معشر الرجال الأخيار . انظرْ إلىَّ . أنا لست شارلَ الخيِّر ، ولست شارل الحكيم ، حتى ولا شارلَ الكاسر . بل إن عُبَّاد چان قد يسمونني شارلَ الجبانَ لأنى لم أنتشلها من النار . ولكنى مع كل هـذا لم أُفسِد فى الأرض كما أفسدتم . أنتم أيها الناس تضعون رؤوسكم فى السماء ثم تنظرون ، فتحسبون الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب ، فتُنفقون العمر لتَعْدلوها ، فإذا بكم تَقْلبوها . أما أنا فآخُذُ الأشياء كما وجدتها . فرؤوس الأشياء ما أجده فى أعاليها ، وأرجلها ما أجده فى أدانيها . وأحاول دائماً أن لا أرتفع ببصرى كثيراً عن هذه الأرض . إنى أُسائلكم برغم ما تأخذونه علىَّ ، هل وجدتم أن ملكا من ملوك فرنسا فعل خيراً مما فعلْت ، أو أحسن فيما قدَّره الله عليه فوقَ ما أحسنْت ؟

چان : أأنت ملك فرنسا الآن حقا ياعزيزى شارل ؟ أذَهبَ الإنجليز عنكم ؟

دنوا : [يدخل بين الستائر على يسار چان ، فتشتعل الشموع من

ذات نفسها فتضئ درعه وعباءته فيشيعان البهجة فى المكان] لقد أنفذتُ وعدى . قد ذهب الإنجليز .

چان : حمداً لله ! ففرنسا الجميلةُ اليومَ بُقعةٌ من بقاع الجنّة . حدِّثنى عن الحرب يا چاك . هل أنت الذى قُدْت الرجال ؟ هل بَقِيتَ تقود جنود الله إلى يوم موتك ؟

دنوا : أنا لم أمت بعد . إن جسمى نائم مرتاح فى فراشى فى شَتُودان Chateaudun . إن روحك استدعتْ روحى هنا .
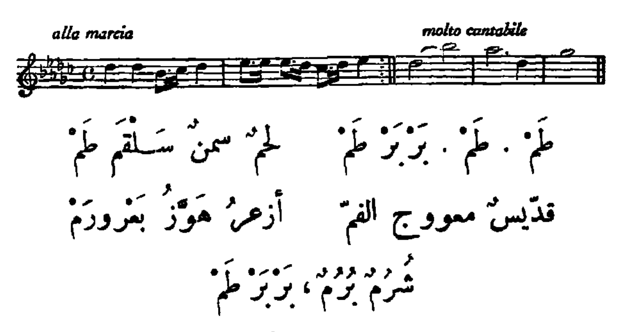
چان : قل لى هل حاربتهم على طريقتى يا چاك ، لا على الطريقة العتيقة التى كان همّها المزايدة فى الفداء ؟ هل حاربتم على طريقة الفتاة : تخاطرتم بالأنفس فى سبيل الموت بقلوب مليئة بالشجاعة فارغة من الأحقاد ، لا يهمّها بعد الله غير فرنسا حرةً والفرنسيين أحراراً ؟ أ كانت طريقتى يا چاك ؟

دنوا : كانت أيَّةَ طريقة خِلناها تؤدى إلى النصر . ولكن الطريقة التى نجحت دائماً كانت طريقتك ، فاعْلمِى أنك أحسنت الإحسان كلّه يا چان . إنى كتبت عنك كتاباً جميلا أرسلته إلى المحكمة عندما جدّدوا محاكمتك ليردّوا الأمور إلى نصابها . لعلى أخطأت لمّا تركت القسس يحرقونك ، ولكنى كنت مشغولا عنك بالحرب ، ورأيت أن هذا من شُغل الكنيسة لا شُغلى . ولم

أجد نفعاً فى أن نُحْرَق نحن الاثنين . أم ماذا تَرَيْنْ ؟

كوشون : نعم ، نعم ، ألقِ باللائمة على القساوسة . إنى أقولها قولةَ مَنْ أصبح لا يطلب المديح ، ولا يخشى أن يُذَمَّ بالقبيح : إن خلاص الدنيا لا يتحقق على أيدى الجند ولا أيدى القساوسة ، ولكن على يد الله وقدّيسيه الأطهار . إن كنيسة الله فى أرضه قد أرسلت هذه المرأة إلى النار ، ولكنّ النار شعّت ، حتى وهذه المرأة تحترق فيها ، فكانت وهّاجة كالسراج ، واندلعت ألسنتها بيضاء تعلن نصر الكنيسة فى السماء .

[تدق الساعة ثلاثة الأرباع ، فيُسمَع صوتٌ خشن ذَكَرٌ يغنى بملء فيه أغنية مرتجلة] :



طَمْ . طَمْ . بَرْبَرْ طَمْ   لحمٌ سمنٌ سَلْقَم طَمْ

قدّيسٌ معووج الفمّ   أزعرُ هوّزُ بعَرورَمْ

شُرُمْ بُرُمْ ، بَرْبَرْ طَمْ

[يدخل من بين الستائر جندى انجليزى غليظ المظهر عربيده ، فيمشى بين جان ودنوا]

دنوا : أى شعْرور خبيث علّمك هذا الشعر الخسيس ؟

الجندى : ليس فى الأمر شاعر ، بل نحن الذين ألّفناه ونحن نسير فى الصفوف . ولسنا من الأعيان ولا من الشعراء ، بل هى الموسيقى تتدفّق بالطبيعة من قلوب الشعب :

طَمْ ، طَمْ ، بَرْبَرْ طَمْ لحمٌ سمنٌ سَلْقَمْ طَمْ
قدّيسٌ معووج الفم أزعرُ هَوَّزُ بَعْرورَمْ

فهذا كلام فارغ لا معنى له ، ولكنه يقوّينا على السير . سيداتى وسادتى ، أنا طَوعُ أمركم . من منكم طلب قديسا ؟

جان : هل أنت قديس ؟

الجندى : نعم سيدتى ، قديس جاء توّا من جهنم .

دنوا : قديس من جهنم !

الجندى : نعم ، أيها الضابط النبيل . أنا فى يوم إجازة من إجازاتى . إن لى يومَ إجازةٍ كلّ عام . هذا جزائى الوحيد عن فَعْلة الخير الوحيدة التى فعلتُها فى حياتى .

كوشون : أيها الشقى ، أفى كل سِنِى حياتك لم تفعل إلا حسنة واحدة ؟

الجندى : أنا لم أفكّر فيها ولم أقصد إلى عملها ، فهى إنما جاءتنى بالطبيعة ، ولكنهم حسبوها لى .

شارل : وما هى ؟

الجندى : فَعلةٌ كأسخف ما تكون الفعلات ، كنتُ . . .

چان : [تقطع عليه الحديث ، وتخطو إلى السرير وتجلس إلى جنب شارل] إنه ربط عودين معا وأعطاهما لفتاة كانت على وشك أن تحرَق .

الجندى : هذا صحيح ، فمن أين جاءك الخبر ؟

چان : لا تُبالِ مِنْ أين جاءنى ، وقل لى أتعرفُها إذا رأيتها ؟

الجندى : لا يستطيع مثلى أن يعرف كل الفتيات . إن الفتيات كثيرات ، وكلهن ينتظرن من الرجل أن يَذْكرهن كأنما الدنيا بها فتاة واحدة . ولكنّ هذه الفتاة التى أحدّثكم عنها لا بد أَنْ كانت من صِنف ممتاز ، لأنى من أجلها أستمتع بيوم إجازة كل عام . أنا الآن طليقٌ إلى الساعة الثانية عشرة تماما ، وفى هذه الفترة أنا قدّيس ، فأنا فى خدمتكم وطَوْعَ أمركم يا سادتى النبلاء ويا سيداتى الجميلات .

شارل : وبعد الساعة الثانية عشرة ؟

الجندى : بعد الساعة الثانية عشرة أعود إلى المكان الأَوْلَى بأمثالى .

چان : [تنهض] تعود إليه ! أنت ! أنت الذى أعطيت الفتاةَ الصليب ؟

الجندى : [يعتذر عن فَعلته كأنها عمل لا يليق بالجنود] ، وماذا كنت أصنع . إنها هى التى طلبته . وكانوا على وشك إحراقها . وكان حقها فى الصليب كحق أيهم . وكان لديهم عشرات من الصلبان . وكانت البليّةُ بليتَها لا بليتَهم . فأىّ ضرر فى هذا ؟

چان : أيها الرجل ، أنا لا ألومك . ولكنى لا أطيق أن أتصور أنك ستذهب إلى هذا العذاب .

الجندى : [فى ابتهاج] إنه ليس بالعذاب الكبير يا سيدتى . تفسير هذا أنى تعودتُ عذابا أكبر .

چان : عذاب أكبر ! أكبر من جهنم ؟

جندى : خمس عشرة سنة قضيتُها فى حروب فرنسا ، ثم جاءت جهنم بعدها فكانت نعمة بالنسبة إليها .

[ترفع چان يديها توسلا إلى الله ، وتذهب إلى صورة العذراء تطلب فى كَنَفها الوقايةَ من يأس الإنسانية] .

الجندى : [يستمر] إن جهنم لسبب ما توافقنى . ويوم إجازتى كان علىّ ثقيلا فى البدء كأنه يوم أحدٍ كثيرُ المطر . ولكنى

اعتدته الآن . إنهم يقولون لى إنى أستطيع طلب إجازات غيره بمجرد إحساسى بالحاجة إليها .

شارل : كيف يجد المرء جهنم ؟

الجندى : لن تجد فيها كثيراً مما تكره يا سيدى . جوّها مفرح . كأنك سكران دائما دون أن تدفع للخمر ثمنا . وصُحبةٌ من أرق طبقة : أباطرة ، وبابوات ، وملوك من كل صِنف . وهم ينتهروننى لأنى أعطيت الصليب لتلك الفتاة اللخناء . ولكنى لا أعبأ بما يقولون . وأنهض لهم فأقول : إن هذه الفتاة اللخناء لها حق فى الصليب فوق حقكم ، فلو لم يكن لها هذا الحق لكانت هنا فى جهنم مكانكم . وهذا يقطع ألسنتهم ، فلا يستطيعون إلا تحريق أضراسهم ، على طريقة أهل جهنم ، فأضحك منهم ، وأنصرف عنهم وأنا أغنى أغنيتى القديمة : طَمْ ، طَمْ ، بَرْبَرْ طَمْ — هالوا ! من ذا يقرع الباب ؟

[ينصتون ، فيُسمَع صوتُ قرع خفيف متّصل] .

شارل : أُدخُلْ .

[ينفتح الباب ويدخل قسيس عجوز أشيب ، وقد تقوّس ظهره ، وارتسمت على فمه ابتسامة فيها البلاهة ممزوجةً بحب الخير . يدخل ويعدو إلى جان] .

الزائر الجديد : عفواً سادتى وسيّداتى . لا أودّ أن أقطع عليكم ما أنتم فيه . أناقسيس إنجليزى عجوز مسكين لا يُخشَى منه ضرر . كنت فى سابق أيامى قسيساً للكردنال : لمولاى كردنال ونشستر . أنا چون دى استُوجَبر ، فى خدمة أسيادى . [ينظر فيهم متسائلا] هل قلتم شيئاً ؟ أنا متأسِّفٌ لأنى أصمُّ بعضَ الشىء . كذلك فىّ شىء — كيف أقول — نعم ، قد لا يكون لعقلى دائماً كل صوابه . ولكن هذا لا ضرر منه ، فالقرية صغيرة وسكانها قليلون ، وأنا فىّ الكفاية . نعم فىّ الكفاية . إنهم فيها يحبوننى ، وأنا بينهم أستطيع أن آتى ببعض الخير . ذلك أنى متصل بأهل الجاه وهم يقبلون رجائى .

چان : مسكين يا چون . ماذا أدَّى بك إلى هذا الحال ؟

دى استوجبر : إنى أسأل أهل قريتى أن يكونوا على غاية الحذر . أقول لهم : « إنكم إذا استطعتم أن تروا ما تفكرون فيه ، لفكَّرتم فيه على خلاف ما تفكرون . إنكم لو رأيتموه لهزَّكم هِزَّةً عنيفة . أى نعم ، هِزَّةً عنيفة جدا » . فيقولون جميعاً : « نعم يا أبانا ، إنا نعلم أنك رجل رحيم ، وأنك لن تؤذى ذبابة » . فهذا قول جميل يُريحنى كثيراً . أنا بطبعى لست رجلا قاسياً .

الجندى : ومن قال إنك قاس ؟

دى استوجبر : آه إنى فعلت فَعلة قاسية مرّةً ، لأنى لم أكن أعرف كيف تكون القسوة . لأنى لم أكن رأيتها قط . فترى من ذلك أنه لا بد لك من رؤيتها ، فإذا رأيتها فقد نجوْتَ واهتديت .

كوشون : ألم يكُن لك فى آلام المسيح عبرةٌ كافية ؟

دى استوجبر : لا . لا . لا أبداً . إنى رأيت آلام المسيح فى الصور ، ورأيتها فى الكتب ، وتأثّرتُ بها تأثراً كبيراً على ما حسبت . ولكن لم يكن لشىء من هذا فائدة . فلم يَهْدِنى المسيح وما لاقاه من ألم ، ولكن هدتنى فتاة رأيتها بعينى تُحرق فتموت . منظر فظيع . أوّاه . فظيعٌ جدا . فهذا الذى هدانى . وبعده صرت رجلا غير الذى كُنتُه قبْلا ، ولو أن صوابى يغيب عنى أحياناً .

كوشون : أمعنى هذا أنه لا بد من مسيحٍ يُعذَّب ويُقتَّل فى كل جيل لِيَهْدِىَ مَنْ لا خيال لهم ؟

جان : إذا كنت باحتراقى قد نجّيْت من كانوا يقعون تحت عذاب هذا الرجل إذا هو لم يرنى أحترق ، فوالله ما كان حرقى عبثاً .

دى استوجبر : لا . لا . لستِ إياها . أنا نظرى ضعيف

فلا أستطيع أن أتميَّز ملامحك . ولـكنك لستِ إياها . لا . لا . إنها أُحرقَتْ حتى لم يبق إلا رمادها . إنها ماتت . ذهبت . ذهبت .

الجلّاد : [يدخل من وراء ستارة السرير عن يمين شارل ، فيكون السرير بينهما] إنها أكثر منك حياة أيها الرجل . إن قلبها أَبَى أن يحترق ، وأَبَى أن يَثقُل فى الماء فيغرق . إنى كنت أُستاذاً فى صناعتى — كنتُ خيراً من جلّاد باريس ، وخيراً من جلّاد تولوز ، ولـكنى لم أستطع قتل الفتاة . إنها قائمةٌ حية فى كل مكان .

الإرل ورك : [يدخل خطفَ البرق من وراء ستائر السرير من الناحية الأخرى، فيقف إلى يسار چان] سيدتى ، تقبلى تهنئتى على ردّ اعتبارك . أُحِسُّ أن عَلَىّ لك اعتذاراً .

چان : ما عليك من شىء .

ورك : [فى لطف وانشراح] إن إحراقك كان إحراقاً سياسيا . أؤكد لك أنه لم يكن بينى و بينك كراهةٌ شخصية .

چان : إن قلبى لا يحمل منك حفيظة يا مولاى .

ورك : جميل منك أن تَلْقَينى بهذا الكرم ، فهو دليل على حسن النشأة وطيب الارومة . ولـكنى لا بدّ لى من الإلحاح فى اعتذار طويل . فالحق أن هذه الضرورات السياسية تنقلب أحيانا

فتكون أخطاء سياسية ، وهذه الضرورة بالذات كانت من أسوأ الأخطاء . فروحك يا سيدتى غلبتنا على أنفسنا برغم ما حملناه إليك من الحطب . والتاريخ سيذكرنى من أجلك ، لصلة أخشى أن لا تكون من أسعد الصلات .

جان : نعم ، لم تكن بالضبط من أسعد الصلات أيها الرجل المِهذار .

ورك : ومع هذا ، فهم إذا نصّبوك قديسة فسيرجع فضل هذا إلىّ ، كما رجع إليكِ الفضل فى تاج هذا الملك المبخوت .

جان : [تشيح عنه بوجهها] ليس لرجل فضلٌ علىّ ، والفضل كله لروح الله التى ملأتنى . ولكن كيف أكون أنا قدّيسة ! وماذا تقول القدّيسة كترينة والقديسة مرجريت إذا رأتا فتاة فلاحة تجئ فتأخذ مجلسا إلى جوارهما .

[يظهر فجأة أمامهم فى الركن الذى على يمينهم رجل عليه سيما الاكليروس ، فى سترة سوداء وسروال أسود ، وعلى رأسه قبعة طويلة على أسلوب القبعات فى عام ١٩٢٠ . وعندها يحدّقون فيه النظر ، ثم يغلبهم الضحك فيقهقهون] .

الرجل : لم هذا الضحك يا سادة ؟

ورك : أهنئك على ابتكارك زيا بلغ الغاية فى الإضحاك .

الرجل : أنا لا أفهم . إنكم جميعا فى ملابس من صنع أهوائكم لبستموها للتنكر والتلهّى . أما أنا ففى زىّ محتشم .

دنوا : كل لباس من صنع الهوى ، وللتلهّى ، إلاّ جلودنا .

الرجل : لا تؤاخذونى . أنا هنا فى صَدَدِ واجبٍ جدىّ ، فلا أستطيع أن أدخل فى مناقشات مستهترة . [يُخرج ورقة ، ثم يستقيم فى وقفته استقامة جافة يقتضيها واجبه] إنى أُرسلتُ لأُعلن فى الملأ أن چان درك ، المشتهرةَ فيما مضى بالفتاة ، بناء على تحقيق أمر به أسقف أُرلين . . . .

چان : [تقاطعه] آه ! إنهم لا يزالون يذكرونى فى ارلين .

الرجل : [يؤكد الكلمات إظهاراً لغضبه من المقاطعة] — أمر به أسقف أرلين للنظر فى دعواها القداسةَ . . . .

چان : أنا لم أدّعِ شيئاً أبدا .

الرجل : [يتم توكيده الفائت] — قد بحثت الكنيسة دعوى چان درك المذكورة بحثا دقيقا بالطريقة المعهودة . فبما أن الكنيسة قد منحتها على التتالى رتبة المحترمة ، ثم رتبة المباركة ، فقد رأت أن تعلن فى الناس أنه كان لچان المذكورة صفاتٌ للبطولة وتجلياتٌ للوحى اختصتها بها العناية الربانية ، ورأت أن تدعو چان المحترمة المباركة المذكورة إلى الدخول فى شعب الدولة

المسيحية فى السموات العلى باعتبار أنها القديسة چان . . .

چان : [فى ذهول] القديسة چان !

الرجل : وبما أن اليوم الثلاثين من مايو هو يوم وفاة المذكورة بنتِ الله ، الطاهرةِ المطهَّرة ، فقد تقرر أن تُعقد لذكراها صلاة خاصة فى كل كنيسة كاثوليكية فى الثلاثين من مايو من كل عام إلى آخر الزمان . وقد أصبح من الجائز الذى يُقرّه القانون أن توهَبَ المعابدُ باسمها ، وأن تخصَّص لها ، وأن توضع صورتُها على مذابح هذه الكنائس . وقد أصبح من الجائز الذى يقره القانون ويدعو إليه الدين أن يركع لها المؤمنون ، ويَصِلُون بدعواتهم وصلواتهم عن طريقها إلى رب العرش فى السموات العُلى . . .

چان : لا ، لا إن القديسة هى التى تركع [تسقط على ركبتيها وهى لا تزال فى ذهول] .

الرجل : [يُشْهِر الورقة وهو يتنحى جانبَ الجلاّد] تحرَّرَ فى الكنيسة البازيليكية بالفاتيكان فى اليوم السادس عشر من الشهر مايو من عام ١٩٢٠ .

دنوا : [يرفع چان] نصفُ ساعة كَفَتْ لحرقك ، ولكن

لظهور الحقيقة فيك احتاج الناس إلى أربعة قرون يا قدّيستى العزيزة .

دى استوجبر : سيدى ، أنا كنت مرة قسيس كردنال ونشستر . وكانوا يلقبونه دائما ويُلحُّون فى تلقيبه بكردنال انجلترا فأنا وسيدى الكردنال نرتاح جميعاً إذا ارتفع للفتاة تمثال جميل فى كتدرائية ونشستر . فهل تظن أنهم يقيمون لها تمثالا هناك .

الرجل : لا أستطيع أن أقول ، فالكتدرائية التى تذكر وقعت مؤقتا فى أيدى الزنادقة الانجلكانيين .

[تظهر من النافذة صورة كالطيف للتمثال الموجود بكتدرائية ونشستر] .

دى استوجبر : انظروا ! انظروا ! هذه ونشستر .

جان : أهذا تمثالى ؟ إنى كنت أصلبَ من هذا على رجلىّ .

[يختفى الطيف]

الرجل : قد سألنى رجال السلطة الزمنية بفرنسا أن أذكر أن تَعَدُّدَ التماثيل للفتاة يكاد يسدّ حركة المرور . فأنا أذكر هذا مجاملة لهم ، ولكن لن يفوتنى أن أقول بالأصالة عن الكنيسة إن حصان الفتاة لن يقف فى سبيل الحركة ويَشُلَّها أكثر من غيره من الأحصنة .

چان : أنا مغتبطة بأنهم لم ينسوا حصانى .

[يظهر طيف لتمثال كتدرائية رانس] .

چان : أهذا الشىء القليل المضحك أنا ؟

شارل : هذه كتدرائية رانس حيث توّجْتِنِى . فهـذا لا بد تمثالك .

چان : من كسر سيفى ؟ إن سيفى لم يكسر أبداً . إنه سيف فرنسا .

دنوا : لا تحزنى ، فالسيوف يمكن إصلاحها . إن روحك لم تُكسَر أبداً ، وأنت روح فرنسا .

[يختفى الطيف . وعنـدئذ يظهر المطران والمحقق على يمين كوشون وشماله] .

چان : إن سيفى لم تفرغ بعدُ فتوحاتُه ، وهو الذى لم يرتفع لضربة أبداً . إن الناس أتلفوا جسدى ، ولـكنى رأيت الله بروحى .

كوشون : [يركع لها] إن الفتيات فى الحقول يَحْمدونك ، لأنكِ رفعتِ أبصارهن فعرفن أنْ ليس بينهن و بين الله حجاب .

دنوا : [يركع لها] إن الجند يحمدونك وهم يحتضرون ، لأنك عنوان مجدهم يومَ الدين .

المطران : [يركع لها] إن أمراء الـكنيسة يحمدونك ، لأنك

غسلت المِلّةَ من أوحال أصابها بها حبُّهم لدنياهم .

ورك : [يركع لها] إن النُّصَحاء المَكَرَة الخبثاء يَحمَدونك لأنك قطعت العُقَد التى زمُّوا بها أرواحهم .

دى استوجبر : [يركع لها] إن الرجال الشـيوخ الحَمْقَى يحمدونك وهم على فراش موتهم ، لأن سيئاتهم فيك انقلبت حسنات .

المحقق : [يركع لها] إن القضاة فى عَمَاية القانون وأسره يحمدونك لأنك أطلقت رأى الفرد من قيده وروح الإنسان من عِقالها .

الجندى : [يركع لها] إن الأئمةَ خارجَ جهنم يحمدونك ، لأنك أريتهم أنّ نار السعير التى لا تخمد أبداً نارٌ مقدّسة .

الجلاد : [يركع لها] إن الجلادين والمعذِّبين يحمدونك لأنك أثبتَّ أنهم أبرياء مما قتلتْ أيديهم من النفوس .

شارل : [يركع لها] إن المتواضعين غير الأدعياء يحمدونك ، لأنك حملت عنهم فى شهامةٍ أعباء ناءوا بحملها .

جان : الويلُ للناس إذ يحمَدُنى الناس جميعا . فَتَقُّوا أذهانكم واذكروا أنى قديسة ، وأن القديسات تقدِرُ أن تأتى بالمعجزات .

والآن حدثونى بالذى ترون : هل أنهض من بين الأموات وأعود فيكم إلى الحياة ؟

[ينهضن الجميع مذعورين ، وعندئذ يهبط على المكان ظلام فاجئ تمحِى معه الحيطان فلا يرى إلا السرير والرجال] .

چان : ماذا جرى ! هل لا بد من حرق مرة أخرى ؟ أليس لى عند أحدكم كنف رحيب ؟

كوشون : الموت خير للزنادقة . إن عيون أهل الدنيا لا تميّز بين الزنديقة والقديسة ، فارحميهم [يخرج من حيث أتى] .

دنوا : اعذرينا يا چان فنحن لا نزال غير أهل لك . أنا عائد إلى فراشى [يخرج هو أيضاً] .

ورك : إنّا نأسف على أخطائنا الصغيرة . ولكن الضرورات السياسية لا بد منها ولو أخطأت أحياناً . لهذا تفضّلى فأذنى لى .. [يخرج بخفة وقد تبيّن الحكمةَ فى الخروج] .

المطران : إن رجوعك لن يجعل منى رجلا كالذى ظننتِنِى إياه . وكل ما أقوله أنى إذا لم أجسر على مباركتك ، فإنى مع هذا أرجو أن ينالنى حظ من بركتك . وإلى أن يَحين أوان هذا فإنى ... يخرج .

المحقق : إنى فى الأموات ، وقد شهدت بأنك ساذجة بريئة

ولكني مع كل هذا لا أرى كيف يمكن الاستغناء عن ديوان التحقيق والأحوال هي ما هي . لهذا . . . [يخرج] .

دي استوجمبر : أرجو أن لا تعودي . يجب أن لا تعودي فلا بد أن أموت مطمئنا . اللهم أنزل على عبادك السلام [يخرج] .

الرجل : إن الرأى برجوعك إلى الدنيا لم يخطر لهم على بال عند ما نصّبوك قديسة ، فلا بد لى من الرجوع إلى روما للحصول على تعليمات أخرى [ينحنى انحناءة رسمية ثم يذهب] .

الجلاد : أنا جلادٌ أستاذٌ فى صناعتى ، فلا بد لى من التفكير فى صالح مهنتى . وعلى كل حال فواجبى الأوّل لأولادى وزوجتى . أمهلينى للتفكير [يذهب] .

شارل : عزيزتى المسكينة چان . لقد هربوا منك جميعاً إلا هذا الجندى الحقير الذى لا بد له أن يعود إلى جهنم إذا انتصف الليل . فماذا بقى لى أنا أن أصنعه إلا أن أتبع دُنوا فأذهب إلى فراشى كما ذهب [يذهب إلى سريره] .

چان : [وهى حزينة] طاب لك الليل يا شارل .

شارل : [يتمتم كالنعسان وقد دفن رأسه فى وسادته] طاب ليلك [يذهب فى النوم فَيَلُفُّ الظلامُ سريره] .

جان : [إلى الجندى] وأنت يا رجائى الوحيد ، ماذا عندك من السلوى للقديسة جان ؟

الجندى : قولى لى ، ما قيمـــة هؤلاء الملوك والضباط والأساقفة والمحامين وأمثالهم ؟ إنهم يتركون الجندىّ منا فى الخندق يَدْمَى إلى أن يموت ثم هم يَلقَوْنه بعد ذلك فلا يجد منهم إلا خدوداً مصعَّرة وأنوفاً عالية . إنى أرى أن حقك فى التمسك بآرائك مثل حقّهم فى التمسك بآرائهم ، أو هو أكبر من حقهم [يجلس كمن استقرّ لإعطاء محاضرة طويلة فى الموضوع] . المسألة يمكن إيضاحها على النحو الآتى . فإذا . . . [تُسمَع الساعة من بعيد تدق الدقة الأولى مؤذنة بانتصاف الليل] لا تؤاخذينى . موعدٌ لا بد من وفائه [يخرج على أطراف أصابعه] .

[تتجمع الشعاعات المختلفة من النور فتتركز على جان ، من فوقها ، فتتراءى بيضاء ناصعة البياض . أما الساعة فتدوم على دقاتها] .

جان : أى ربّ ، وقد خلقت هـذه الأرض الجميلة ، متى تستقبل هذه الأرضُ قديسيك بالتّرحاب ؟ متى يا رب ، متى ؟

« النهاية »

مقدمة المؤلف[1]

جان ذات السجايا الأصيلة والطبع المتغطرس

جان دَرْك ، فتاة قروية من القوج[2] Vosges ، وُلدت فى نحو عام ١٤١٢ ، وأُحرقت بتهمة الزندقة والسحر والعِرافة فى عام ١٤٣١ ، وبُرّئت ساحتها نوعا ما ، وأعيدت إلى شىء من مكانتها عند الناس فى عام ١٤٥٦ ، ولُقّبت « مكرمةً » عام ١٩٠٤ ، واذّن فى النـاس بأنها « مباركة » فى عام ١٩٠٨ ، ثم قُدّست أخيراً فى عام ١٩٢٠ .

وهى أشهر مجاهدة قدّيســة فى تاريخ النصرانية ، وأغرب شخصية بين الـكفايات الممتازة الشاذة الأطوار فى القرون الوسطى . وكانت تعتنق الـكثلـكة باعترافها ، وكانت شـديدة التقوى فيها ، وبدأت حرباً شعواء على أتباع هوس[3] Hus ، ولكنها

(١) لم نؤخر هـذه المقدمة عن الرواية فى الطبع لأنها دون الرواية قدراً . فقدمات برناردشو لرواياته تآليف تصلح أن تستقل بذاتها من حيث أقدارها . ولـكن أخرناها ليكون القارئ أفهم لها بعـد قراءة الرواية . وفى المقدمة ما يدل على أن كاتبها يفرض أن القارئ عالم بها أو أنه رآها تمثل على المسرح .

(٢) مقاطعة شرقية من مقاطعات فرنسا .

(٣) هو المصلح الدينى الشهير ، ولد فى بوهيميا عام ١٣٧٣ وأحرق حيا =

مع كل هذا كانت فى الواقع من شُهَداء البروتستنتية السابقين وكانت كذلك إحدى رُسُل الوطنيــة الأولين . وكانت من الفرنسيين أول من طبّق المــذهب الواقعىّ فى الحرب على نحو ما فعل نابليون ورفضت أسلوب زمنها فى القتال ، وقد كان على نظام الفَراسة والفرسان رياضةً ولهواً ، وكان رِهاناً ومقامرة ، يأسِرون فيه ويؤسرون ، فَيَفْتدون ويُفتَدون ، ثم يعودون بالفِدَى إما كاسبين وإما خاسرين . وكانت أول من ارتأى رأياً جديداً فى زى النســاء : أنْ يبدّلن ملابسهن بملابس أليق بهن وأوفق لهن . ورفضت أن يكون لها حظ النساء فعاشت كالرجال تلبس ما يلبسون وتحارب كما يحاربون ، فسبقت فى ذلك الملكة كرستينا[1] ملكة السويد بقرنين ، دع ما كان من الفارس ديون[2] Chevalier D'Eon ومن العدد العديد من بطلات أنثيات

= من أجل تعاليمه عام ١٤١٥ . تعلم فى جامعة براغ ثم كان مدرساً فيها ثم عميداً لكلية الفلسفة بها ثم مديراً للجامعة . وطرده البابا من الكنيسة مرتين ثم حوكم وأحرق وذرّى رماده فى نهر الرين .

(١) هى ملكة السويد ولدت عام ١٦٢٦ وماتت عام ١٦٨٩ . تولت الملك وسنها ١٨ سنة وأحسنت فيه إحساناً كبيراً وكانت ترعى العلوم والفنون وأربابها . وطلبت رعيتها منها أن تتزوج فرفضت الزواج كرهاً له . وتتوجت عام ١٦٥٠ واتخذت لنفسها لقب « ملك » . وفى عام ١٦٥٤ اعتزلت الملك وساحت بقية عمرها فى أوربا واعتنقت المذهب الكاثوليكى فيها .

(٢) هو فرنسى ذو شخصية غريبة تفوق فارساً وقانونيا ودبلوماسيا . ولد =

خاملات الذكر تسترن فتزين بزى الرجال ليخدمن فى البحر والبر بحّارة وجندا . وجاهدتْ أن تفرض نفسها ودعاواها على الناس فرضا فى كل هذه المناحى ، فشاع اسمها وذاع فى غرب أوربا ولم تكن بلغت بعدُ العشرين ربيعاً ، والحق أنها لم تبلغها أبداً . فلا غرابة بعد هذا أنها حُوكمت ثم أُحرقت . وكانت حجّة قضاتها فى الظاهر أنها ارتكبت عدةً من جرائم كبرى لا نَعُدّها نحن اليوم جرائم كبرى ولا نعاقب عليها بمثل ما عاقبوا ، ولكنهم أحرقوها فى واقع الأمر لغطرسة لا تُطاق فيها وتبجّح لا يُغتفَر من أنثى . وهى فى سنّها الثامنة عشرة ادعت لنفسها ما لا يدعيه أكثر البابوات إعجاباً بنفسه ، وفوق ما يدعيه أكبر القياصرة إدلالا بسلطانه . فادعت أنها رسول الله وسفيره المفوّض وأنها فى الواقع عضو من كنيسة الله فى السموات العُلَى وهى لا تزال فى صورة اللحم على هـذه الأرض . ونصّبت نفسها وصية على

= عام ١٧٢٦ . وأرسل عام ١٧٥٥ فى مهمة شاقة فى بلاط روسيا فلبس لها ملابس النساء . وعين أخيراً سفيراً لانجلترا ثم اختلف مع حكومتـه ففارقها وعاش فى لندن فى شبه نفى . وفى هـذه المدة كان يلبس ملابس النساء أحياناً حتى شك الناس فى رجولته . وعاد إلى فرنسا عام ١٧٧٧ فأمر بأن يظل يلبس ملابس النساء ثم عاد إلى انجلترا وهو امرأة حيث مات فى فقر مدقع عام ١٨١٠ . وأثبت الكشف الطبي عندئذ سلامة رجولته . ويظهر أن المستر برنارد شو لا يؤمن بما أثبته الكشف الطبي .

مَلِكها . وأرسلت إلى ملك الإنجليز تأمره بالتوبة وبالطاعة لأمرها . وخاطبت القساوسة والساسة فألقت عليهم الدروس والمواعظ ، فإن حاجّوها أسكتتهم ، وإن ناهضوها نحّتهم . وأطلعها قواد الجيش على خُطَطهم فسخرت بها وبهم ، وسلبت منهم جنودهم فقادتهم إلى النصر على خُطَط من عندها . وكانت تحتقر رجال الحكم ، آراءهم وأحكامَهم وسلطانَهم . وتهزأ من رجال الحرب وما يدبّرون من حِيَل الحرب وأفانينها ، وكانت تغالى فى احتقارها وهُزْئها وتظهرهما فى الناس إعلاناً . فلو أنها أوتيت الحكمةَ والملْكَ معاً ، فاجتمع فى صلبها جلالُ الكَهَنوت ومجد الملوك ، إذن لعكّرت صفو الحكومة بدعاواها وغطرستها وسلوكها تعكيراً شديداً ، ولأقلقت بالَهَا بمثل ما أقاق قيصر Caeser[1] بدعاواه وغطرسته بالَ كسيوس Cassius[1] . ولكنها نهضت من الحضيض إلى العلاء نهضة باغتة ، فلم يكن للناس فيها إلا رأيان ، رأى يقول إنها آية من آيات الله ، ورأى يقول إنها امرأة ثقيلة الظل لا يطيقها إنسان .

---

(١) هو يوليوس قيصر دكتاتور روما القديم الشهير . وكسيوس عدوه وصاحب المؤامرة التى قضت على حياة قيصر قتلا بالخناجر فى اجتماع السيناتو الرومانى فى ١٥ مارس سنة ٤٤ قبل ميلاد المسيح .

جان وسقراط

لو أن جان كان بها حب الذات ، أو لو أنه كان بها خباثة أو جبن أو نذالة أو غباوة لكانت من أبغض الشخصيات التى عرفها التاريخ لا مِن أحبِّها . ولو أنها كانت من السن بحيث تعرف الأثر الذى تُحدثه فى الرجال عند ما تصيب ويخطئون ، وتدرك شعورَ الذلّة التى كانوا به عند ذاك يشعرون ، أو لو أنها عرفت كيف تتملّقهم وتسوسهم ، إذن لعاشت طويلا بقدر ما عاشت الملكة إليصابات[1] Elizabeth . ولكنها كانت صغيرة السن ، وكانت ساذجة قليلة التجريب ، فلم يكن بها شىء من تلك الصناعات والمداهنات . فإذا عارضها معارض فظنّت الحماقةَ فيه ، لم تستطع عليه صبراً ، وصارحته بأنه أحمق وبأنها لا صبر لها عليه . وكانت من السذاجة بحيث أنها كانت كلما قوَّمتْ للرجال معوّجاً ، أو حمتهم مواقع الزلل والإضرار ، حسبتْ أنها أسدت إليهم جميلا فاستوجبت عليهم شكراً . وليس هذا بغريب ، فالعقول الكبيرة الرجيحة يصعب عليها دائماً فهمُ ما تستثيره من حقد وما توقده من غضب بفضْحها جهالاتِ قوم

(١) ملكة الإنجليز وقد تولت الحكم من عام ١٥٥٨ إلى عام ١٦٠٣ .

ذى عقول أخف فى الميزان وزناً . حتى سقراط[١] على ما بلغ من سن كبيرة وما كسب من خبرة طويلة ، لم يدافع عن نفسه لدى محاكمته دفاع رجل فَقِهَ هذا وقدّر الغضبَ الطويل المركوم الذى رَكَمته ضدّه السنون حتى انفجر مُدوِّياً يطلب موته . وما كان الرجل الذى قام على اتهامه فى تلك المحاكمة بذى الخطر الكبير ، فلو أنه وُلد بعد عصره بثلاثمائة وألفى عام لكان كبعض من نلقاهم اليوم فى عربات الدرجة الأولى من قُطُر الضواحى غادين إلى المدينة[٢] فى زحمة الصباح الأولى أو رائحين عنها فى الأمساء . فلم يكن لديه فى الواقع ما يقوله فى اتهامه إلاّ أنه وأشباهه لا يطيقون أن يفتضحوا فتُنشَر غباواتُهم وتُعرَّى سوآتهم كلما فتح سقراط

(١) سقراط هو الفيلسوف الإغريقى الشهير . ولد فى أثينا حول عام ٤٦٩ قبل الميلاد . وكان نحاتاً فناناً وكان جنديا شجاعاً ثم قاضياً . واختلف مع رجال الحكم فاعتزل الحياة العامة وعلل ذلك بأن صوتاً فى ضميره دعاه إلى ذلك . وأخذ فى التنسك فنجح فى التغلب على شهواته وكانت حادة بطبيعتها . وكان لا يكتب شيئاً عن فلسفته فلم يخلف للناس شيئاً منها . ولكنه كان يدور بين الناس يباحثهم ويناقشهم فلم يصمد له فى النقاش أحد فأثار عليه ذلك حقد الكبراء وخلق له الأعداء . وفى عام ٣٩٩ قام رجل من قادة الدهماء يتهمه بانكار دين الأمة وإفساد شبابها . فدافع سقراط عن نفسه وقال إن رسالته محو الجهل الشائع ومقصده خير الناس وإن حياته بركة على الأثينيين فلو أعفى من الموت جاهد فى ذلك ما استطاع . ولم يعبأ بالموت . وحكم عليه بالموت ورفض فرصة هيئت لهربه . وبعد ثلاثين يوماً من حكم الاعدام شرب السم وهو هادئ النفس رزين فمات فى عامه السبعين سنة ٣٩٩ قبل الميلاد .

(٢) يقصد بالمدينة لندن . وهذا تعريض برجال الأعمال فى لندن من ذوى الثراء والغباء على مايرى شو .

فاه . ولكن سقراط لم يدرك هذا ولم يخطر شيء منه على باله ، فأعجزه إحساسه بقصوره عن فهم مرامى هذا الاتهام إعجازاً كبيراً . ومضى يُثبت أنه جندى قديم ، وأنه رجل طاهر الذيل شريف العيش ، وأن متّهمه صَلِف غبي ، فلما أثبت من ذلك ما أراد ، كان فى إثباته هلاكه والقضاء عليه . قضى عليه جهله بمبلغ ما أثاره رجحان عقله فى قلوب الرجال من خوف وكره . وما كان يحمل سقراط لهم فى قلبه إلا الخير ، وما كان يدرك إلا أنه أسدى إليهم كل معروف .

فرق ما بين چان وبين نابليون

وإذا كان سقراط بمثل هذه السذاجة فى مثل هذه السن ، فتصورْ كيف كانت سذاجة چان فى السابعة عشرة . كان سقراط رجلا ذا حِجاج ونِقاش ، وكان يؤثّر فى عقول الرجال فى بطء وسكون . أما چان فكانت امرأة عَمّالة تعمل فى أبدان الرجال بشدة وفى غير هوادة . وهذا لا شك هو السبب فى أن سقراط احتمله معاصروه عصراً طويلا ، أما چان فأعدموها وهى لم تَشِبَّ وتكتمل . ولكن كليهما جمع إلى مقدرةٍ مُخيفة صراحةً وتواضعاً وميلا للخير كان من غير المعقول أن يؤدى بهما إلى

تلك الكراهة الغاضبة التى أهلكتهما . فهما لهذا لم يفهما لتلك الكراهة سبباً أو معنى . ونابليون كانت له مقدرة مخيفة كالتى كانت لهذين ، ولكنه لم يكن مصارحاً مجاهراً ، وكان مغرضاً فلم ينخدع فى رواجه عند الناس ولم يخطئ معناه أبداً . وسُئِل مرّة كيف يتصوّر حال الناس إذا تلقّتْ نعيّه فقال سيتنفّسون الصُّعَداء . ولكنه من الصعب على أصحاب العقول الجبّارة الذين لا يُبغضون ولا يؤذون أن يتصوّروا أن رفقاءهم على الرغم من هذا يكرهون جبابرة العقول ولا يألون جهداً فى إهلاكهم ، لا عن حسد فحسب ، ولا لأن وَضْعَهم إلى جنب رجال أعلى منهم منزلة وأسمى يجرح نفوسهم ، ولكن لأنهم بكل بساطة وبكل إخلاص وصراحة يخافونهم ويخشون من مكانهم إلى جانبهم . والخوف يدفع بالخلائق إلى الغلوّ ويجمح بهم إلى أبعد الحدود ، والخوف الذى يثيره ذو المكانة الأسمى ظاهرةٌ معضلة من ظواهر النفس لا يمكن بالمنطق تفسيرها . وبما أنه خوف لا حدّ له فهو لا بد بالغٌ كل مبلغ ، خارجٌ عن كل طوق ، إذا لم يكن عند الخائفين الهالعين ما يخفف من حدته ويهوّن من سورته ، كأسباب تحملهم على أن يفترضوا قصد الخير أو يَكْفُلوه فيمن أثاروا خوفهم ، أو تبعةٍ أدبية يحملها هؤلاء يفترضها الخائفون

أو يكفلونها فيهم . واختصاراً يبلغ هذا الخوف ما يبلغ إذا لم يكن باعثُه ذا مقام رسميّ يبعث فى الناس شيئاً من ضمان واطمئنان . ولنضرب مثلا لذلك هيرُودُس [١] Herod وبيلاطُس [٢] Pilate ، وكذلك حَنَّـان [٣] Annas وقَيافا [٣] Caiaphas ، سمَوا جميعا على قرنائهم سموًّا رسميا شرعيا وكذلك عرفيًّا فكان سُموًّا أثار خوفا ، ولكنه كان خوفا محتملا لأنه كان خوفا معقولا من عواقب محدودة متَّقاة ، تراءى أنها قد تكون مَجْلبةً للخير ومَدفَعةً للسوء . أما المسيح فان سُمُوّه فى غرابته أرعَبَ كل من لم يتحسّسوا فيه معنى الخير ، فكان جزاؤه منهم صريخَ الفزِع الهلِع : أن اصْلبوه .

---

(١) ملك اليهود من عام ٤٠ إلى ٤ قبل الميلاد ، بدأ بحكم طبرية ثم تدرج إلى أن صار ملكا بمعونة أنتونى الرومانى . كان ذا كفاية ممتازة فى السياسة والحرب والعمارة أكسبت اليهود مجداً كبيراً ولكنه كان ذا شهوة عنيفة جامحة حدت به إلى قتل زوجته وأخاها وجدها وأمها وأولاده منها . ومات عند مولد المسيح عليه السلام .

(٢) هو والى أورشليم الرومانى وقت محاكمة المسيح . جاء فى إنجيل متى : « ولما كان الصباح تشاور رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه فأوثقوه ومضوا به ودفعوه إلى بيلاطس النبطى الوالى » . وجاء فيه بعد هذا ما يدل على تلكؤ بيلاطس فى الحكم بالاعدام على عيسى وميله إلى العدالة ، ولكنه وقع عليه الحكم أخيراً لما خاف هياج الشعب . وجاءه فى المساء رجل غنى من الرامة اسمه يوسف كان تلميذاً ليسوع ، فطلب إلى بيلاطس جسد من صلب فأمر بالجسد أن يسلم إليه .

(٣) قيافا كان رئيس كهنة أورشليم الذين تألبوا على قتل المسيح . وحنان حموه . وإلى حنان هذا ساق الجند المسيح بعد أن قبضوا عليه فى البستان ، فأرسله حنان إلى قيافا فسأله عن تعاليمه ثم أرسله إلى الوالى بيلاطس حيث حكم عليه بالاعدام . جاء فى إنجيل متى : « ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه ومضوا به إلى حنان لأنه كان حمى قيافا الذى كان رئيساً للكهنة فى تلك السنة » .

شرب سقراط كأسه ، وقُتل المسيح صبرا على صليبه[1] ، وأُحرقت چان على ركازتها ، على حين أن نابليون يموت على فراشه حتف أنفه بغضّ النظر عما كان من أسره فى جزيرة سانت هيلينا St Helena ، وعلى حين أن العدد العديد من أوغاد رسميّين يقومون فى الناس فيُخيفون ويُذعِرون ولكنهم لأسباب ظاهرة يموتون حتف أنوفهم فى أوج الملك وسلطان الأمم ، مثبتين بهذا أن القديسين أقرب إلى التهلكة من الغُزاة الفاتحين . أما الذين جمعوا إلى القداسة غزْوَ الغزاة كمحمد وچان فقد أدركوا أن القداسة لابدّ أن تُحمَى بالغزو ، وأن الشهادة فى الهزيمة والأسر . فأُحرقت چان ولم ترفع يدٌ فى أصحابها لخلاصها . فالرفقاء الذين اتّبعوها إلى النصر ، والأعداء الذين افتضحوا بها فى الهزيمة ، وملك الفرنسيين الذى توجته ، وملك الإنجليز الذى رفست بتاجه فى اللّوار ، كل هؤلاء كانوا سواء فى الغبطة بقطع دابرها .

أكانت چان بريئة أو مذنبة ؟

وتلك حالة ما كانت تصير إليها چان إلا بسبب تَدَنٍّ فى سفه وإسراف وفساد ، أو بسبب تفوّق يسمو إليه كل نبيل طاهر . فأى هذين العاملين دفع بها إلى مآلها المعروف ؟ سؤال

(١) هكذا يرى المؤلف .

لا بد من مواجهته . وقد واجهه معاصروها وأجابوا عنه فى غير صالحها بعد محاكمة غاية فى الدقة غاية فى العدالة . ومضى خمس وعشرون سنة بعد ذلك فقضى القوم فى أمرها بنقيض ماقضت به المحكمة الأولى ، بأن « ردّوا اعتبارها » إليها ورفعوها إلى مكانتها الأولى من احترام الناس وإجلالهم . ولكن الذين قضوا بهذا الحكم لم يقصدوا منه ظاهره ، وإنما أرادوا به توكيد ما كان من تتويج شارل السابع وتصحيحه . ثم جاء بعد هؤلاء خلف أجمعوا على تبرئتها ونقض ما كان من تجريمها فكان نقضاً نحماً مؤثراً محا عنها كل شائبة ، وانتهى إلى تقديسها ، وأدّى عدا هذا إلى اتهام قضاتها الأقدمين اتهاماً لم يزل إلى اليوم أكثر إجحافاً وأقل إنصافاً من اتهامهم القديم إياها . ومهما يكن من فساد والتواء فى « ردّ اعتبارها » الذى كان فى عام ١٤٥٦ ، فإنه أظهر للناس أدلة تكفى لإقناع كل نقّاد متّزن معتدل بأن جان لم تكن امرأة صخّابة سليطة ، ولم تكن عاهرة ولا ساحرة ولا كافرة ، ولم يكن لها من عبادة الأوثان إلا بمقدار ما للبابا منها إن كان له فيها نصيب ، ولم تسلك قط سلوكا معيباً إلا أن تكون احترفت الجندية ولبست ملابس الرجال وإلا أنها تهجّمت وتجرأت . ولكنها برغم هذا كانت لطيفة المزاج

بشوشة ، وكانت بكراً عذراء ، وكانت تقية ، وكانت لا تشرب الخمر إلا قليلا (كان طعامها خبزاً مغموساً فى خمر فرنسا العادية ، وهى ماء الشراب عند الفرنسيين ، فهل كان هذا إلا تقشفاً ؟) وكانت شفوقة رحيمة . وبرغم جنديتها وشجاعتها وشدة مِراسها فى الحرب كانت على نقيض الجند لا تحتمل السَّفَهَ فى القول ولا الخلاعة فى السلوك . وذهبت إلى مصرعها شريفة الذيل طاهرته إلا من عجرفة بالغة هى التى صيّرتها إلى ما صارت إليه . فمن العبث بعد هذا إضاعةُ الوقت فى تَخْطِىء ما جاء عنها فى الجزء الأول من الرواية التاريخية « هنرى السادس » التى ظهرت فى عهد الملكة اليصابات[1] ونُسِبت زعماً إلى شيكسبير ، فقد صوّرتها مناظرها الأخيرة بصور مزرية قذرة إرضاء لوطنية[2] حادّة ضلّت سواء السبيل . وقد غسلت السنون عن جان كل الأدران والأقذار التى أُهيلت عليها فلم يبق لكاتبٍ حديثٍ ما يغسله . وإنما العسير غسلُ الأدران التى أهيلت على قضاتها بما اتّهموها قديماً . والعسير كذلك غسل الطلاء الذى نشروه كثيفاً عليها حتى أخفى معالمها فلم يعد يتعرّفها

---

(١) ملكة الانجليز الذى عاش فى زمانها شكسبير وقد مرّ ذكرها .

(٢) يقصد الوطنية الانجليزية وكان الانجليز أعداء جان والفرنسيين .

من ورائه أحد . فإن السفاهة الوطنية المتطرفة لما فرغت من إسداء ما أسدت لها من أسواء ، قامت السفاهة الطائفية [في هذه الحالة السفاهة البروتستنتيّة] فاتخذت من شهادتها في سبيل الله سبباً تضرب به الكنيسة الكاثوليكية وديوان التحقيق ، وأي سبيل إلى ذلك أيسر من قصة تصاغ تَكْثُر فيها المفاجآت وتتوالى الفجيعات . تكون بطلتُها چانَ وأشرارُها الكثلكة وقضاةَ ديوان التحقيق . فهذه القصة التي صيغت محض افتراء ، فچان أصابت من الكنيسة وديوان التحقيق قسطاً من العدالة أكثر مما يناله اليوم متّهَم من نوعها وفي مثل مكانها من أية محكمة زمنية حاضرة . هذا فضلا عن أن حكمها الذي وَقَع عليها كان وفْق القانون كلّ الوفْق . وما كانت لتصلح بطلة للقصة التي أرادوها : فتاةً بديعة الحسن أضناها الحب ترامت على بطل يضارعها حسناً . فقد كانت چان قديسةً عبقريةً أبعدَ ما تكون امرأةٌ من بطلة قصة مُشجيةٍ هزّازةٍ بحبها وفجاءاتها .

ولنعد إلى هاتين الكلمتين ، القديسةِ والعبقرية ، لنتأكد من وضوح معناهما وتحدّده . أما العبقرية فهي أن يكون المرء بصيرة ترى أكثر مما يراه الناس ، وتنفذ في بواطن الأمور أكثر من نفاذهم ، فيكون لها من ذلك مقاييسُ لقِيَم الأشياء

غيرُ مقاييسهم ، وأن يكون للمرء عدا هذا نشاط جمّ يدفع به إلى إنفاذ ما تستدعيه هـذه البصيرة وما توجبه هذه المقاييس على الأسلوب الذى يأتلف ومواهب المرء وكفاياته الخاصة . أما القداسة فهى أن يَسُوس المرء نفسه على خصال الكمال ويَرُوضها على ألم الفضيلة ومِحْنتها ، وأن يمتاز بإلهامات أو يكتسب قُوًى مما تسميه لغة الكنيسة خوارق ، فيتأهل عندئذ لأن يكون قديسا .
فالمؤرّخ إن كان كرّاهاً للنساء يعتقد أن المرأة لا تنبغ فيما جرى العرف به أن يكون من عمل الرجال . فهو لن يستطيع أن يقدِّر ما أتته چان من الأعمال ، ونبوغها إنما ظهر فى الجندية والسياسة .
وإن كان المؤرخ لا يؤمن إلا بالقياس ، ولا يُخرِّج إلا بالدليل ، فلا مناص له من جحود القداسة وإنكار القديسين ، وعندئذ لا يستطيع أن يتصور لچان وجوداً أو يتعرف لها شبهاً . فمؤرخها الأصلح يجب أن يكون خلواً مما كان بالقرن التاسع عشر من زَوَغ وميل ، ويجب أن يفهم العصور الوسطى والكنيسة الكاثوليكية الرومانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة فهْما أوفى كثيراً مما فَهِمها مؤرخونا الرِدِكاليّون Whig ، ويجب أن يكون فى مقدوره اطّراحُ العصبية الجنسـية وما يتصل بالنساء من أقاصيص الهوى ، وأن يعتبر المرأةَ أنثى الجنس البشرىّ

لا نوعاً منفصلا مستقلا من الحيوان يختلف عن الرجل اختلافاً كبيراً يتميز بِعفاتن خاصةٍ وسخافاتٍ خاصة .

جمال چان

ولإيضاح النقطة الأخيرة إيضاح إجمال أقول إذا أنت وقعتَ على كتاب عن چان يبدأ بذكر جمالها وفاتن حسنها فاعتبرْه فوراً قصةَ غرام لا تاريخاً لچان . فلم يدّع أحد من رفقائها فى القرية أو فى البلاط أو فى مُخيَّم الجند أنها جميلة أبداً ، حتى ولا عندما أجهدوا أنفسهم ليكسبوا عطف الملك عليها ويسرّوه بامتداحها . وكل الرجال الذين أشاروا إلى هذا الأمر أكّدوا فى غير لَبْس أن فتنة الإناث أعوزتها لدرجة خالوا أنها معجزة إذا هم اعتبروا أنها كانت فى زهرة الشباب ونضارة الصبا ، وأنها مع هذا لم تكن دميمة ولا لُخَمةً ولا مشوّهة ، ولم يكن بها ثِقَل أو فظاظة . والحق البيِّن أنها ، ككل امرأةٍ متجرّئةٍ آمرة ناهية ، لم تنزل ميدان الحب لأن الرجال خافوها فتهيّبوها فلم يقعوا فى هواها . أما هى فلم تفقد أنوثتها برغم أنها نَذَرت إلى حدٍّ أن تبقى عذراء ما عاشت ، وظلّت فعلا عذراء ولكنها قَطُّ لم تقطع قطعاً باتا بأنها لن تتزوّج أبداً . ولكنّ

الزواجَ وما يستدعيه بادئ بدء من مغازلة فمتابعةٍ فاقتناص زوجٍ لم يكُن من صناعتها . فقد كان لهـا في الحياة شُغُل عند ذلك . قال الشاعر بَيْرُون[١] Byron : « حبّ الرجل يَشغل بعض عيشه ، وحب المرأة يملأ كل وجودها » . فهذه قاعدة لا تنطبق على چان إلا بمقدار انطباقها على چورچ واشنطن[٢] George Washington أو أي ذَكَرٍ غيره من رجالات الحيـاة وأبطالها . ولو أن چان عاشت في عصرنا هذا لبيعت صورتها على بطاقات البريد وهي في

---

(١) الشاعر الإنجليزي المعروف ، ولد في لندن عام ١٧٨٨ من أبوين نابهين . ومات أبوه وهو في الثالثة من عمره ، فكفلته أمه ، وكانت مسرفة في أهوائها وشهواتها ، فأثر ذلك في ابنها لما شب ، فكان مسرفا في شهوته مهتاج النفس أفاقا . وفي عام ١٧٩٨ صار لورداً بالوراثة من عم أبيه ، فانتقل إليه مع اللقب مقر الأسرة وثروتها . وفي عام ١٨١٥ تزوج ، ولكن اللادي بيرون هجرته بعد عام من زواجها فكسب من ذلك سخط الناس ، فترك انجلترا غاضباً ناذراً أن لا يعود إليها . فطوف في أوروبا وأقام في إيطاليا زمناً ، وفي عام ١٨٢٤ ناصر الإغريق في حرب استقلالهم ضد الترك ، فجاءته حمى لم تمهله إلا أياما فمات في عامه السابع والثلاثين . وشعره يحمل طابع حياته .

(٢) هو أول رئيس لجمهورية الولايات المتحدة . وهو منحدر من أصل إنجليزي . ولد عام ١٧٣٢ ميلادية في ڤرجينيا ، ومنذ عامه التاسع عشر أخذ يتقلب في مناصب الجيش . وحارب القوات الفرنسية في الشمال كثيراً . ولما وقعت حرب استقلال أمريكا قاد قواتها في ظروف غير ملائمة منها عداء ضباطه له . ولما وقعت معاهدة الصلح اعتزل الحياة ورفض أن يجزى على خدماته إلا ما تحمله من النفقات فعلا . وفي عام ١٧٨٧ رأس المؤتمر الذي أسس الروابط بين الولايات المتحدة وأنشأ الدستور الذي لا يزال إلى اليوم قائماً . وانتخب أول رئيس للجمهورية عام ١٧٨٩ وأعيد انتخابه عام ١٧٩٣ ، وقبل أن تنتهي مدة هذه الرآسة استقال ، ولكن لما ساء ما بين فرنسا والولايات عاد يقود قوات البلاد . وكان في رآسته للجمهورية قديراً . وكان ذا عقل كبير ارتفع به عن كل حزبية . ومات فبكاه كل الأحزاب .

زىّ قائد جيش لا سلطانة حَرَم . ومع كل هذا فلدىّ سبب واحد يجعلنى أعتقد أن وجهها إنْ فقد الحسنَ فقد كان عجيباً يستوقف الناظرَ إليه . ذلك أن نحّاتاً من معاصريها نحت تمثالا لامرأة شابة على رأسها خُوذة ولها وجه وحيدٌ فى فنه ، لا بأنه المثل الأعلى فى الوجوه ، ولكن بأنه صورة مأخوذة من وجه حىّ غريب لا يشبه وجهاً رآه إنسان لامرأة أبداً . والظنُّ أن فنّاناً قد اتخذ جان أنموذجاً له وهى لا تدرى . وليس لدىَّ من برهان على هذا ، ولكن تلك الأعين المتباعدة الشاذة تبعث فى الخاطر هذا السؤال بقوة : « إذا لم يكن هذا التمثال لجان فلمن هو ؟ » . من أجل هذا لن أتقصّى الأدلّة فقد كفانى هذا دليلا ، فمن ينكر دعواى فيه فأنا أتحدّاه أن يجد لها نقضاً . إنه وجه عجيب ولكنه ليس عجيباً بجماله وفتنته ورقّته ، ولن يجد فيه طلّابُ الجمال المسرحيون شيئاً مما يطلبون ، فإن كانوا لا يزالون فى ريب بعد هذا ، فأنا أروى لهم عن صاحبته حقيقة غيرَ ذات جمال تذهب بما بقى فى نفوسهم من ريب ، ذلك أنها اتُّهمَتْ بأن وعدت رجلا بالزواج ، ثم نقضت عهدها ، فلما جاءت إلى المحكمة دافعت هى عن نفسها بنفسها وكسبت القضية .

مكانة جان فى المجتمع

كانت جان ابنة لمزارع يُعَدّ عيناً من أعيان قريته ، ويقوم عن القرية بما يتّصل بالإقطاع من أعمال ، فيفاوض عنها الرؤساء الإقطاعيّين المجاورين ومن ينوب عنهم من محامين . وكان للقرية حصن يحتمِى فيه أهل القرية إذا غزاهم غازٍ فأُهمِل وهُجر ، وخرج من أيديهم ، فألّف والدها جماعةً من ستّةٍ من المزارعين ليستولوا على الحصن مرة أخرى ليكون للقرية وقاء كلما داهمهم مداهم . وعندما كانت جان طفلة كانت تذهب أحياناً إلى الحصن لتلعب فيه فتدعى أنها أميرة القصر الصغرى ، فتشْركها أمها وإخوتها فى لعبها ، فيأخذون مكانهم من بلاط القصر فيسلكون مسلكاً لا يزرى بهم كثيراً . فهذه الحقائق لا تدع لنا عذراً فى الجرى على ما جرى به العرف القصصىّ الذى يفرض دائماً أن البطلة إما أميرة وإما شحاذة . ويشبه أمرُ جان فى هذا الصدد ما كان من أمر شيكسپير ، فقد زعموا أنه كان فاعلا أجيراً لا يقرأ ولا يكتب ، ثم اتخذوا من هذا الزعم القليل أساساً بنوا عليه أبحاثاً كثيرة متراكبة متراكمة ، فكان بناء كالهرم المقلوب له جرم كبير واسٌّ حقير . وأغمضوا العين عن دليل غايةٍ فى

البساطة : أن أباه كان يعمل فى التجارة ، وأنه كان يوماً وافر النعمة ثريا ، وأنه تزوج من امرأة كان لها بعض المكانة فى المجتمع . كذلك يميل بعضهم إلى زحزحة چان عن مرتبتها فى المجتمع إلى مرتبة دونها فيصورونها فتاةً راعية أجيرة ، فى حين أن الفتاة الأجيرةَ الراعيةَ فى قريتها كانت إذا نادتها فإنما تدعوها سيدةَ المزرعة الصغيرة .

إن الفرق بين چان وشيكسپير أنها كانت أُميَّةً وأنه لم يكن أُمِّيًّا . فقد ذهب إلى المدرسة وعرف من اللغتين اللاتينيَّةِ والإغريقيةِ بمقدار ما يستبق خريج الجامعات منها ، أى شيئاً قليلا لا يُغنى شيئاً . أما چان فلم تكن تعرف كيف تقرأ أصلا . قالت : « أنا لا أعرف ألفها من بائها » .

ولكن كثيرات من أميرات ذلك العهد وعهود بعده طويلةٍ كانت لا تعرف القراءة . خذ مثلا « مارى أنطوانيت » (١) Marie Antoinette ، فإنها فى مثل سنّ « چان » ما كانت تدرى أن تتهجّى اسمها هجاء صحيحاً . ولكن ليس معنى هذا أن چان كانت فتاة جاهلة ، أو أنها أحسَّتْ بما يُحس به الأمىُّ فى عصرنا

(١) صغرى أولاد الإمبراطور فرنسيس الأول ومارية تريزا . وهى أرشدوقة النمسا وملكة فرنسا ، حيث تزوجت الدوفين الذى صار فيما بعد لويس السادس عشر ملك فرنسا . ولدت فى ڤينا عام ١٧٥٥ وأعدمت فى باريس بالچيلوتين عام ١٧٩٣ .

هذا من استحياء وخزي وعجز عن دخول المجتمع والتقدم فيه .
وهى إن فاتها أن تعرف كيف تكتب الكتب والرسائل ، فقد
كانت تمليها وتُعنَى بها عناية شديدة تَغْلُو فيها غلوًّا كبيراً .
وسمّاها بعضهم فتاةً راعية فى وجهها فأنكرت ذلك بشدة ،
وتحدّتْ أيّةَ امرأة من أى منزل طيب أن تباريها فى فنون البيت .
وكانت تفهم موقف أُمّتِها فرنسا من السياسة والحرب أحسن
كثيراً مما يفهم خريجاتُ جامعاتنا اليوم من موقف أُمّتهم ، ومصدرُ
علمهن ذلك الصحُفُ السيارة . وأغرت الناس باتباعها ، فكان
أولَ متّبعيها جارٌ لها كان قائد حامية فى ڤوكولير Vaucouleurs ،
جاءته فأخبرته بأن جيوش الدوفين Dauphin هُزِمتْ فى وقعة
هيرنجز Herrings قبل أن يأتيه الخبر الرسمى عنها بزمن طويل
فخال أن وحيا جاءها فأخبرها خبَرَها . ولكنّ عِلْمَ الشؤون العامة
والاهتمامَ بأمور البلاد لم يكن بالشيء الغريب بين المزارعين فى
ريف تجتاحه الحرب اجتياحا . فالساسة كثيراً ما كانوا يجيئونهم
عند أبوابهم فى سيوف مسلولة ورماح مُشرَعة فلم يكن بدٌّ من
مراضاتهم . ولم يكن لأهل چان بدّ من معرفة ما يجرى فى بلادٍ
عمّها الإقطاع . ولم يكن أهلها أثرياء ، فعملت چان فى الحقول
مثل ما عمل أبوها ، فساقت الأغنام إلى المراعى ، وقامت

بأشباه هذا من الواجبات . ولـكن لا يوجد دليل ولا شبه دليل يفيد أنهم كانوا فقراء مُدقِعين . وليس من سبب يُستنتج منه أن جان استؤجرت كما تستأجَر الخادمات ، أو أنها غُصبت على العمل أبداً إذا ما هي شاءت أن تَدَعَه لتذهب إلى قسيس القرية لتعترف إليه ، أو أن تعبث بزمنها تترقّب رُؤَاها أو تتسمّع « لأصواتها » فى أجراس الـكنائس . ومجمل القول أن جان كان حظها من طيّبِ المحتدِ ومن حسن التثقيف أكثرَ كثيراً من حظ كثيرات من طبقة بنات البلد السخيفات ممن يحتقرن العمل والعاملات .

أصوات جان ورُؤاها

إن أصوات جان ورؤاها لعبت بسمعتها الألاعيب . فمن أجلها عدّها قوم مدخولةً ممرورة ، وعدّها آخرون كذَّابةً نصَّابة ، ومن أجلها حَكَمَ عليها قومٌ بمعالجة السحر ومواصلة الشيطان واحرقت من أجل هـذا ، ومن أجلها منحوها البركة ونفحوها بالقداسة أخيراً . وليس فى هذه الأصوات والرؤى ما يثبت شيئا من ذلك أو يؤدى إليه . ولـكن اختلاف النتائج يكشف عن قلة ما عرفه المؤرخون ذوو الخيال المنطقىُ عن عقول الناس ، فهم يجهلون كيف تعمل ، وحتى عقولهم هم يجهلون كيف

تدار . فإن فى البشر أناسا احتد خيالهم واتّقد ، حتى إذا خطرت لهم فكرة جاءتهم صوتا مسموعا . وقد يتراءى لهم كأن خيالا ينطق بها . وفى مستشفيات المجانين كثير من القتلة ما قتَلوا إلا طوعا لأصوات هكذا سمعوها . فقد تسمع امرأة صوتا يأمرها أن تذبح زوجها وأن تخنق ولدها وهما نائمان فلا تجد مفراً من طاعته . وعندئذ تتدخل خرافة طبية شرعية قديمة تسود فى محاكمنا تقول بأن المذنب إذا أتى الإجرام بتأثير خيالات كهذه لا يُسأل عما يفعل ، وإنما يعتبر مجنونا ويعامل معاملة المجانين . على أنه ليس كل من رأى رؤية أو سمع هُتافا مجرما سفّاحا . فالعبقرية لها وحيها ولها إلهامها ولها استنتاجات تتخرّج فى بطء وخفاء من فروض دفينة فى دخيلة النفس فهى تجرى فيها دون أن يحس صاحبها بها . وكل ملابسات العبقرية هذه قد تتمثّل صُوَراً وأطيافا كالتى رأتها چان وغير چان . فسقراط ولوثر[١]

---

(١) هو المصلح الدينى البروتستنتى الألمانى . ولد عام ١٤٨٣ من أب فقير يعمل فى مناجم للفحم . علمه أبوه فبدأ حياته بأن كان قسيساً كاثوليكيا ولكنه خرج على الكنيسة الكاثوليكية وتزوج راهبة ممن اتبعن تعاليمه وجاء منها بأولاد ستة وأخذ يناهض الكثلكة والإمبراطور . وفى عام ١٥٣٠ أعلن فى الناس عقيدته البرتستنتية الجديدة . وكان بدأ فى عام ١٥٢١ بمعونة أصدقائه فى ترجمة الإنجيل إلى الألمانية فأتمه فى عام ١٥٣٤ . فزاد هذا العمل الكبير فى توطيد تعاليمه فى ألمانيا .

Luther واشفندنبورج[١] Swendenborg وبلاك[٢] Blake كل هؤلاء رأوا أطيافا وسمعوا أصواتا كالتي سمعتها ورأتها القديسة جان والقديس فرنسيس[٣] Francis . ونيوتن[٤] Newton لو كان خياله يُغرَم بالمفاجئات المؤثِّرات وينحو منحى الدرامات

---

(١) عالم علمي سويدي المولد والنشأة والتعليم ، ولكنه رحل إلى هولانده وفرنسا وانجلترا فدرس فيها جميعاً . وتابع أبحاثه العلمية والفلسفية من بعد ذلك . وفي عام ١٧٤٣ اتصل لأول مرة بعالم الأرواح . قال إن عين شخصه الباطن انفتحت فرأت الجنة والنار وعالم الأرواح ، وفي هذا العالم تحدث إلى معارفه الذاهبين وإلى عظماء العصور البائدة والحضارات الغابرة . وكان له حظ كبير من احترام الناس له ، فوقعت تصريحاته عن تلك الاتصالات الروحانية موضع الغرابة من أفهام النـاس ، لأنهم لم يستطيعوا اتهامه بالكذب لأنه كان أميناً صادقاً ، ولا بالجهل لأنه كان عالما متبحراً ، ولا بالبله لأنه كان شديد الذكاء ، وكان فوق هذا تقيا .

(٢) هو وليم بلاك شاعر ورسام وفنان معا . ولد في لندن عام ١٧٥٧ ومات عام ١٨٢٨ . كان شعره غزيراً ، وكانت رسوماته غامضـة تنحو على الأغلب مناحي الرمز والاستعارة . وكان مما تفردت به عبقريته أنه كان ينظر إلى نتاج خياله من أشياء وأشباح فيتضح له اتضاحاً بالغاً حتى لكأنها تتجسد له فيراها ويسمعها ويشمها ويحسها حسه الأشياء ذات الأجرام .

(٣) أغلب الظن أن المؤلف يقصـد القديس فرنسيس مؤسس الطريقة الفرنسيسكانية ولد في أسيسى بإيطاليا عام ١١٨٢ ومات فيها عام ١٢٢٦ . ولم يكن في بدء حياته كثير الورع ولم يعزف في شبابه عن ثمرات الدنيا . ولكنه مرض في عام ١٢٠٢ مرضاً شديداً خرج منه شديد السخط على أسلوب حياته . ثم تطور فزهد وتقشف وترسم خطوات المسيح ما استطاع فبلغ في ذلك مبلغا بعيدا .

(٤) هو إسحق نيوتن العالم الإنجليزي الشهير ولد عام ١٦٤٢ ومات عام ١٧٢٧ تعلم في جامعة كمبردج ونبغ في الرياضة النبوغ المعروف . وهو صاحب نظرية الجاذبية . وقد هبطت إلينا مع الأجيال حكاية عنه طريفة تزعم أن تفاحة رآها تسقط في جنينة هي التي اقترحت عليه آراء أدى تفكيره فيها إلى اكتشاف تلك النظرية وإلى هذه الحكاية يشير المؤلف .

والمسرحيّات لرأى خيالَ فيثاغورس [1] رأْى العين ، ولرآه يدخل إليه فى البستان فيعلّل له كيف سقطت التفاحة عن شجرتها .
وعندها ما كان يجوز لأحد أن يتخذ من نظرية الجاذبية أو مما عُرِف عن صاحبها من صحة العقل دليلا يثبت به أن الطيف الخدّاع الذى رآه حقيقةٌ واقعة . وعدا هذا ، وفوق هذا ، لو أن نظرية الجاذبية اكتشفها نيوتن على يَدَىْ هذا الطيف بدلا من اكتشافها بالطريقة العادية ما كان بين الطريقتين فرق أبداً ، ولما امتازت أُولاها على أُخراها بمثقال ذرة من إعجاز . كذلك صحة عقل نيوتن لايستدل عليها من الطريقة التى سلكها فى اكتشافها وإنما مما فى النظرية ذاتها من دلائل التعقل . فلو أن نيوتن طلع عليه طيف فيثاغورس فأخبره أن القمر مركبٌ من جُبْن أخضر لسقناه إلى حيث يساق المجاذيب . ولكن نظرية الجاذبية الذى جاء بها نُيُوتن نظرية مستنتجة بالأدلة وقد وافقت

---

(١) فيثاغوس هو الفيلسوف الإغريقى . ولد حول عام ٥٨٢ قبل الميلاد . قيل إنه جمع علمه من سوريا وفينيقيا وبابل والهند ومصر . والتف حوله تلاميذ فتكونت منهم رابطة قوية لدرس فلسفته والعمل بها . واشتدت هذه الرابطة من الوجهة الس... اشتدادا كبيرا ، وكانت تناصر الحزب الأرستقراطى ، فعاداها الحزب الديمقراطى ... اضطر فيثاغورس إلى الاعتزال . ومن عقائد فيثاغورس أن الأرواح تتناسخ لذ... يذبح قط حيوانا ولم يأكل لحما . ومن تعاليمه احترام الروابط الإنسانية كرابطة ا... بزوجه ، والولد بأبيه وأمه ، والناس بقضاتهم وحكامهم وهلم جرا . وإلى فيثاغو... ينسب إثبات النظرية السابعة والأربعين من الكتاب الأول لإقليدس فى الهندسة .

